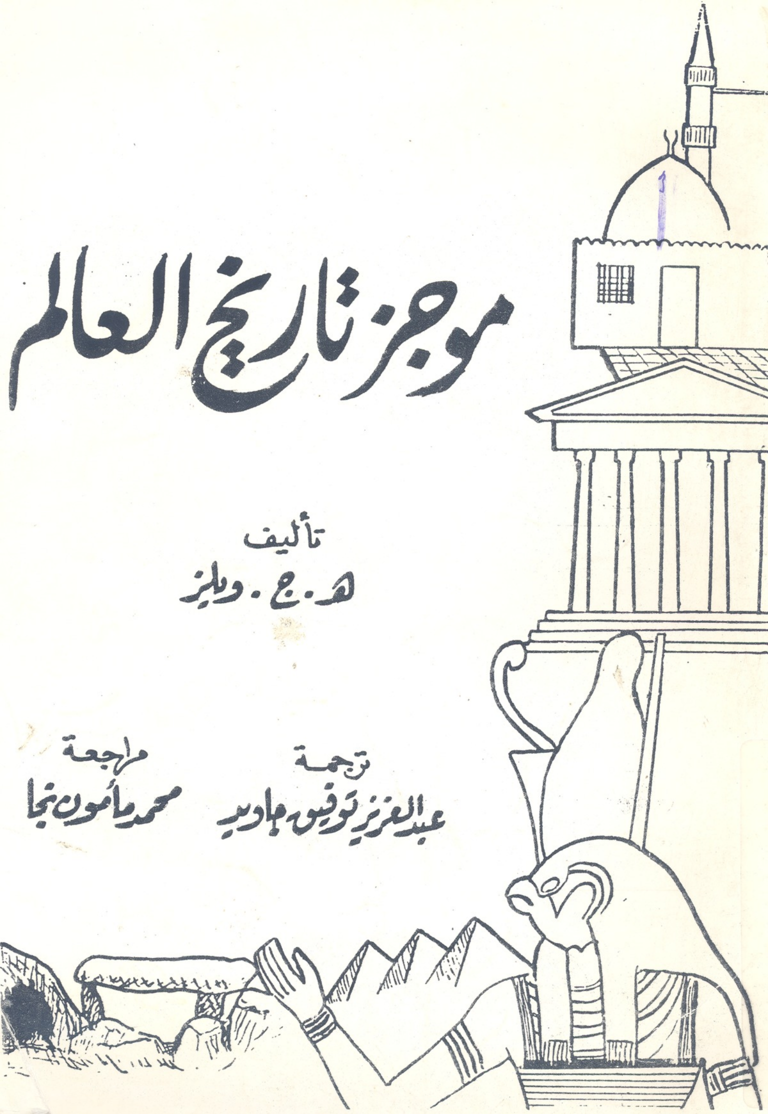


موجز تاريخ العالم

تأليف

ه . ج . ويلز

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

مراجعة

محمد مأمون نجا



موجز تاريخ العالم

تأليف
ه . ج . ولز

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

مراجعة
محمد مأمون نجا

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي بالقاهرة



١٩٩٧

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الخرائط

موجز تاريخ العالم

مقدمة المترجم

كان طبيعيا وقد ترجمت «للعالم» أن يتجه الفكر إلى شقيقه « للوجز » . ذلك أن « العالم » ليس سفرا يسجل التاريخ ويدون أحداثه فحسب بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صناع التاريخ ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من بنات أفكار مؤلفه ، يعد من الصور التى تتحول عندها أحداث هذا الكوكب . ويحسب القارىء ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا ، وتنوير لمن أحاطت به سدفة الظلمات . يحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذى عليه نعيش ، تعده إقليما واحدا بل قطرا واحدا ، استغفر الله بل قريه واحدة ، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتعاطف مايقوم فى كل ريف . ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ماينبغى أن يزول من الريف السعيد الذى ترفرف عليه ألوية الوئام . ويحسب القارىء أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تعمهم المساواة والإخاء والصفاء ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أحمر ولا استعمارى ولا مستعمر ولا استغلالى ولا مستغل ، بل الكل فى حظ الحياة سواء . والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى .

كان طبيعيا وقد ترجم للعالم بما حوى من ذم لدول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا ونعى على سوء تدبيرها ، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطبائع البشر وسوء استغلالهم للموارد البشرية ، أقول كان طبيعيا أن يتجه الفكر إلى هذا الموجز الذى تجده بين يديك عسى أن يفيد به من لم يقع كتاب العالم فى يده .

كان هذا الوجز عندى منذ كنت طالبا بمدرسة المعلمين ، تراودنى نفسى على ترجمته وتأبى ظروفى إلا أن تحول دون ذلك . بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله . وإن ألممت به فى بعض ماتيسر لى من وقت الفراغ إلمامات وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التى اتصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

رجت العالم ، فخالطت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت من مهجة اللحم والدم . وإذا هي قطعة من حياتي الفكرية . وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حياتي الإيمان بالمجالس النيابية الدستورية . وجرى في العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية والحرية العامة . وذلك فضلا عما كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليزي الذي كان منذ حداثتنا يغتصب السلطان في هـذا البلد المسكين ، وفضلا عما لهجت به النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستثمار الأجنبي والاستغلال: استغلال الأجنبي للمصري واستغلال الغنى الفقير واستغلال الاقطاعي الضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . ولز . بعد انقطاع الصلة به فترة ما بين المعالم والشروع في نقل الموجز . وزاد من شعور السعادة إحساسي بأني أقرب للقارئ منهلا جديداً إن عز عليه في المعالم ارتياده لعظم سعته ، لقد سهل عليه في الموجز وروده . وسرني أني وجدت آراء الرجل في الكثير من الأحوال مبثوثة في الصغير ، فلبثت أني أقدم لقارئ العربية أفكار الرجل نفسها في ثوب موجز أنيق ، يستطيع تناولها منه ماعن له وقت فراغ في ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب المتناول. ولا يغرنك قوله في مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة المعالم . إذ الواقع الذي لا مرية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا ففيم طرب المؤلف الجليل في الكتابين كليهما بنشوء الحضارات وإشادته بالبدايات التي أثرت في الثقافة والفكر الإنساني ؟ وانظر إليه في الكتابين كليهما وهو يدق البشائر فرحا بالكتابة وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي يونان ، وصعود منار العلم البطلمي بالإسكندرية، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكم تحزنه الحروب ويشقيه ماتعود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم ، وإذا أهازيج النصر تتثاقل أنغامها حتى تتردد في الآذان رنات المراثي الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف في الكتابين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل مضيع لجهود البشرية مبدد لها في أتون الحديد والنار . فإن كان القارئ المصري الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب أن يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التي دعا إليها الإسلام وهو في أوج مجده ألا وهي الحضارة ومسايرة ركب التقدم والحرية ودعت إليه انتفاضة مصر في عهد ثورتها الفتية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسبي وغاية ما أرجو .

وفى الكتاب آراء للمؤلف قد تخالف رأينا ولكنا أبقيناها فى موضعها عملا بحرية
ى ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد
مناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام فى هذه القصة فمعروف
يحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها فصلا
الحرب العظمى الثانية (أكملنا ما ينقصه من حلقات) وضمنه أمانيه الخالصة للبشرية
ذراً إياها عواقب أخطائها وموضحاً لها سبيل النجاة .

مصر الجديدة فى ١٤ يونيه ١٩٥٨ — عبد العزيز توفيق جاويد

مقدمة المؤلف

الغرض من هذا الموجز لتاريخ العالم أن يقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات . إذ يقدم إلى القارىء بأبسط الطرق وأعمها بيانا بمعارفنا التاريخية الراهنة مجردة من التفصيلات والتعقيدات . كما يراد منه أن يحصل القارىء على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكون منها الهيكل الذى لا بد منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قطر بالذات . وهو توطئة نافعة تمهد للقارىء الاضطلاع بمطالعة شقيقه الأكثر جلاء واستيفاء الموسوم « Outline of History »[1] لنفس المؤلف . ومع ذلك فإن الغاية الرئيسية منه هي سد حاجة القارىء العادى الكثير المشاغل ، الذى يضيق وقته عن الانقطاع لدراسة تفصيلية لما فى « المعالم » من خرائط ومصورات زمانية ، والذى يرغب فى تجديد ما يبقى فى مخيلته من صورة زاوية مضمحلة للمغامرة العظمى للجنس البشرى .

وليس كتابنا هذا ملخصاً « للمعالم » ولا صورة مركزة لما فيه . ذلك أن كتاب « المعالم » ـ فى حدود الهدف الذى رسم له مركز تركيزاً ليس وراءه زيادة لمستزيد ، وكل ما فى الأمر ، أن هذا الكتاب تاريخ أكثر تعميماً أقيم على خطة أخرى وحرر تحريراً جديداً .

هـ . ج . ولز

---

(١) وقد نقله إلى العربية مترجم هذا الكتاب تحت اسم «معالم تاريخ الإنسانية» ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

موجز تاريخ العالم

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يحتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث فى العالم قبل ذلك فكان أمراً تضرب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير ، وكان الناس فى شطر كبير من العالم المتحضر ، يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بغتة فى عام ٤٠٠٤ ق . م ، وإن اختلف الثقات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث فى خريف تلك السنة أو ربيعها ! ! . . . . وقد قام هذا الوهم الخاطىء العجيب فى دقة تحديده على المبالغة فى تأويل « العهد القديم » العبرانى ، تأويلا حرفياً أو بالأحرى على افتراضات وتفسيرات لاهوتيـة رائدها التعسف . ولقد تخلى معلمو الأديان منذ أمد بعيـد عن مثل هذه الأفكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذى نعيش فيه كان — فيما توحى به جميع الظواهر — موجوداً طوال حقبـة هائلة من الزمان ، ربما لم تكن لها بداية . ومن البديهى أن تلك الظواهر ربما انطوت على شىء من الخداع والتضليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التى تتراءى لنا عن حجرة وضعت بها مرايا متقابلة فى كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذى فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماما .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروى ، أى أنها ككرة مضغوطة قليلا على نمط البرتقالة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريبا . وكان شكلها الكروى معروفا لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس ، منـذ قرابة ٢٥٠٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون فى شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الذى هو أقصر من قطرها الاستوائى بأربعة وعشرين ميلا تقريبا) مرة فى كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب فى تعاقب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة

فى كل عام فى مدار يضاوى منحرف قليـلا ومتغير تغيراً بسيطاً . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليونا ونصف المليون من الأميال فى أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليونا ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجما ، هى القمر ، على مسـافة متوسطها ٢٣٩٫٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٣٦، ٦٧ من ملايين الأميال ؛ وفيما وراء مدار الأرض وبغض النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجما ، هى السيارات الصغرى (الكويكبات) Planetoids ، يوجد المريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ ، ٢٧٩٣ مليون ميل على التعاقب ولا شك أن من العسير على الأفهام تصور هذه الأرقام المقدرة بملايين الأميال . وربما يسر الأمر على خيال القارىء تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فإذا نحن على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام وعلى مبعدة ٣٢٣ ياردة ، أى ما يقارب خمس ميل تستغرق أربعا أو خمسا من الدقائق مشيا على الأقدام ، وعندئذ يكون القمر فى حجم حمصة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتى بين الأرض والشمس الكوكبان الداخليان ، عطارد والزهرة ، على بعدى ١٢٥ ياردة . ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينهض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى تبلغ المريخ وهو وراء الشمس بـ ٤٩٠ ياردة ، والمشترى وهو على ما يدانى الميل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يجىء زحل وهو أصغر قليلا وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتى اللاشيئية والعدم لولا بعض جزيئات صغيرة وقطع متنقلة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا القياس نفسه على بعد ٤٠٫٠٠٠ ميل .

وربما أعانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الخواء المريع الذى يعم الفضاء الذى فيه تتوالى مسرحية الحياة .

ذلك أننا فى كل هذا الخواء المريع الذى يعم الفضاء لا نعلم يقينا بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التى لا تغوص فى باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التى تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تعلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما يقى بعد ذلك من فضاء لاحد له ولا نهاية يتكون — حسبما يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغه الغوص فى أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع فى أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . . . حقاً إن الإنسان قد صعد فى الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد ، إلا أنه كابد فى سبيل ذلك آلاما ذريعة . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صغار الطيور والحشرات التى حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثانى

العالم والزمان

ذهب العلماء فى السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شتى وممتعة فى تقدير عمر الأرض وأصلها. ولسنا ندعى ههنا أننا سندلى بموجز لتلك الآراء، وذلك لانطوائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية والحق إن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بعداً يجعل كل ما يذل فى مضمارها مجرد افتراضات تخمينية. والاتجاه العام للعلماء يجنح كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض. وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من السنين. وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيراً، ولكنها مدة يعجز الخيال تماماً عن تصورها.

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التى تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السحيقة من وجودها المنفصل دوامة هائلة من المادة المنتشرة فى الفضاء. ويكشف لنا المرقب (التلسكوب) فى أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولبية منيرة من المادة، هى السدم الحلزونية التى تبدو فى دوران مستمر حول مركز. ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوما أحد تلك السدم الحلزونية، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالى، وتواصل ذلك التحول التركيزى دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقمرها مميزين فى تلك الحقبة البعيدة من الماضى السحيق، الذى ترجمناه بالأرقام. وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتهما الحالية، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل؛ لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد، ولعلهما كانا عند ذلك متوهجين أو منصهرى السطح، وكانت الشمس نفسها شعلة فى السماء أكبر كثيراً مما هى عليه الآن.

ولو أننا استطعنا أن نخترق آماد ذلك الزمان السرمدى، لنرى الأرض فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظراً أشبه بباطن أتون الصهر، أو سطح

دافق من اللافا[1] المنصهرة قبل أن تبرد وتتصلب ، ـ منه بأى مشهد آخر معاصر . ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استحال إلى بخار مستعر فى جو عاصف من الأبخرة الكبريتية والمعدنية . ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بحراً متلاطماً من المواد الحجرية المنصهرة . وإن وهج الشمس والقمر ليجر مارقاً كسهم من لافح اللهب عبر جو من سحب نارية .

وبتعاقب السنين مليونا فى إثر مليون يأخذ ذلك المشهد النارى البركانى فى فقدان لظاه المتأجج ببطء تدريجى وتنساب أبخرة السماء إلى الأرض مطراً فيقل تركزها فى الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر المنصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة فى التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليحل محلها كتل أخرى طافية . وتندفع الشمس والقمر عبر السموات فى سرعة متضائلة وقد أخذا يزدادان بعداً ويصغران حجما . وعندئذ تكون حرارة القمر ـ نظراً لصغر حجمه ـ قد بردت بالفعل إلى ما دون التوهج ، ثم يأخذ على التوالى يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويعكسه إليها فى سلسلة متعاقبة من الكسوف والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء الذريع فى خلال الزمن السرمدى أخذت الأرض تزداد قرباً من حالها التى نعيش عليها اليوم ، حتى جاء فى النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف سحباً فى الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول المطر محدثاً نشيشا[2] على ما تحته من الصخور الأولى . وتنقضى آلاف لا حصر لها من السنوات يظل إبانها الجزء الأكبر من مياه الأرض بخاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التى تنساب على الصخور الآخذة فى التبلور من تحتها ، كما توجد البرك والبحيرات التى تحمل تلك التيارات إليها حتاتة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها « إنسان » أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ما حوله ويعيش على ظهرها ، ولو أنه قدر لنا أن نزور الأرض فى تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه « باللافا » دون أن نعثر على أى أثر للتربة أو أية بقية للنبات ، فى جو مكفهر بالزوابع .

---

(١) اللافا (Lava) هى المادة الذائبة التى تقذفها البراكين من فوهاتها .

(٢) النشيش . صوت الغليان . وذلك لأن المطر عندما يلتقى بالصخور الساخنة يتبخر على الفور

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من العواصف الهوجاء ، ولفجأتنا من المطر انهمارات لاتتأتى اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأشد بطئا ، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا عكراً بحطام الصخور ويلتقى بعضه ببعض فى سيول جارفة تنحت الخوانق الغائرة والوديان وهى مندفعة إلى البحار الأولى لتودعها رواسبها .

ولابد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء ، كما كنا نشهد فى أعقابها حين تمر وفى أعقاب القمر حركة مد يومى قوامها الزلازل والارتفاعات والتقببات فى القشرة الأرضية . ولابد أن القمر الذى يطل الآن على الأرض بوجه واحد لايتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئيا كاشفاً الوجه الذى يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ، وبطؤت سرعة القمر فى السماء ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء فى البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دثاراً لكوكبنا .

ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خلوا من الأحياء ، والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذى نستقى منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجيرى والرملى كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفواكه وآثار الاقدام والخدوش وما إليها ومعها آثار المد والجزر منذ أقدم العصور ، والخدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلذة بعد فلذة بطريق الفحص المضنى عن هذا السجل الحجرى . وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية . ولكن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا ترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أنيق ؛ بل إنها تغضنت والتوت وتبعثرت وتموجت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مراراً وتكراراً بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر المدى الزمانى الكامل الذى يمثله سجل الصخور ببليون وستمائة مليون سنة — ٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠ر١ سنة .

والجيولوجيون (علماء طبقات الارض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الآزوية Azoic » ، أى التى لا يبدو فيها أى أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الآزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . وإنى لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تمايز اليابس والماء لأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أى أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخدشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأى كائن حى .

فإذا صعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة الماضية وأخذ عددها

يتزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار الغابرة باسم الزمن الپاليوزوى Palaeozoic السفلى .

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة ودنيئة نسبياً ؛ مثل أصداف أسماك عارية صغيرة وجذوع لحيوانات نباتية[١] ، ورؤس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لهـا . وتظهر منذ زمن مبكر جداً مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى الثلاثة الفصوص[٢] . وبعد ذلك ببضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم تحظ أية واحدة من هذه المخلوقات بضخامة الحجم . وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام . وليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات فقارية . وجميع النباتات والكائنات التى تخلفت لنا بقاياها عن تلك المدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه المناطق التى يتجاورها المد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى (الپاليوزوى) السفلى العتيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحى إلا فى الحجم فى قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية أو حفرة مزبدة آسنة ، ثم نتفحصها تحت الميكروسكوب (المجهر) . لما نجده هناك من القشريات والسمك الحارى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبه أخاذ بتلك الاصناف الأولى الفجيجة الأكبر حجما التى كانت فى يوم من الأيام أسمى ما بلغته الحياة على « كوكبنا » الأرض .

ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الپاليوزوى السفلى قد لا تزاودنا بشىء ما يمثل أول بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للمخلوق عظام

---

(١) مثل ذلك الإسفنج والرجان واسمها العلمى للزرجات Zoophytes

(٢) الثلثة الفصوص Trilobite هى حفريات من العصر الپاليوزوى السفلى العتيق لحيوانات ذات فصوص ثلاث وبدون فقار وهى من فصيلة العناكب Arachmida .

أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكتسياً بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف ونفل
ـ ليطبع على الطين آثاراً بارزة للأقدام والدروب المطروقة ، فمن غير المحتمل تخلف
ـار حفرية بعده تدل على وجوده . ويوجد فى العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من
ـلوقات الصغيرة المشة الأجسام التى لا يتصور عقل إمكان تركها أى أثر يطوع لجيولوجى
ـد العثور عليه . ولعل للماضى السحيق لهـذا العالم كان يعج بملايين الملايين من أنواع
ـت المخلوقات التى عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها .
ربما كانت مياه البحار والبحيرات الدفيئة الضحلة فى ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى
Azoi ، زاخرة بعينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية، والمجردة
ـن الأصداف والعظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق
الصخور والشواطىء المعرضة للمد والجزر والمغمورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل
الصخرى للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله فى ذلك مثل دفاتر أحد المصارف
من حيث عدم وفائها بحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف ، ولا يتيسر لأى نوع من
الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ فى تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جذع
متكلس[١] ، يحفظه على هـذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد
الجرافيت فى صخور سابقة فى عصرها على تلك التى تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت
الذى يسمى عادة باسم الرصاص الأسود — صورة من الكربون غير المركب ، ويرى
بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوى لكائنات حية مجهولة .

---

(١) الكلس : هو المادة الجيرية التى تتكون منها العظام والمحار .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان المظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هى أشياء ثابتة ونهائية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هى عليه الآن تماما ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندماشرع الناس ينقبون فى سجل الصخور ويدرسونه أن تزعزع هـذا الاعتقاد بسبب الاشتباه فى أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم نمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقاداً بما يسمى النشوء العضوى والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، ينحدر بعمليات تغير بطىء دائب ، من صورة سلفية غاية فى البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيا يسمى بالبحار الآزوية .

وقديماً كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوى هـذه ، مثار مجادلات ألمة كثيرة بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بعمر الأرض، حتى لقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد فى النشوء والارتقاء العضوى Organic Evolution لا يستقيم — لعلة لانعلمها — وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكا بالعقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لايتحرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والأشمل القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلا مشتركا . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر الغبراء . بل إن الحياة قد نمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان يكل الخيال دون تصورها ، والحياة تتطور من مجرد هزة فى الصلصال المخضل بمياه المد والجزر إلى بحبوحة الحرية والقوة والإدراك .

تتكون الحياة من أفراد . وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يماثلون البلورات غير المحدودة وغير المتحركة المكونة من المادة

ير الحية ، ثم إن لهم خاصتين مميزتين لاتشاركهم فيهما أية مادة فى عالم الجماد ، ذلك
نهم يستطيعون أن يتمثلوا فى أنفسهم مادة أخرى ويحيلونها إلى جزء منهم ، كما أنهم
ستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفا ؛ فهم يأكلون وهم يتناسلون ، وهم يستطيعون أن
نشئوا أفراداً آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما . وإن
ناك لمشابهة نوعية وعائلية بين الفرد ونسله ، كما أن هناك فارقا فردياً بين كل والد وكل
ولود له ، وهذا صحيح فى كل نوع من الأنواع وفى كل مرحلة من مراحل الحياة

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذى يوجب على النسل أن
شابه والديه وما الذى يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولكن نظراً لأن الذرية يجتمع
ا الشبه والاختلاف فى وقت واحد ، فإن من المعقول وإن لم يثبت علمياً أنه إذا
غيرت الظروف التى يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة .
مرد ذلك أن أى جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تهيء لهم
وارقهم الفردية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التى لابد للنوع أن يعيش
بها ، (وعدد آخر) فوارقه الفردية تجعل من العسير عليه نوعا ما أن يعيش . والقسم
لأول يكون أطول فى الجملة عمراً وأكثر نسلا من القسم الثانى ؛ وهكذا يتطور مستوى
نوع جيلا بعد آخر فى الاتجاه الملائم : وهذه العملية التى يطلق عليها « الانتخاب
لطبيعى » ليست نظرية علمية بقدر ماهى نتيجة حتمية لحقائق التوالد والفوارق
فردية . قد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها فى تبديل النوع أو إبادته أو صيانته ،
ون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى ، ومع ذلك فالرجل الذى يتأتى له
ن ينكر سريان عملية الاختيار الطبيعى هذه فى الحياة منذ بدايتها ، لابد أن يكون إما
جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتفكير العادى .

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالباً
ماتكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولكن أحداً منهم لم يصل إلى أية معلومات باتة
محددة ولا فرض على يركن إليه عن الصورة التى بدأت بها الحياة . على أن جميع الثقات
يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفيئة الضحلة القليلة
الملوحة والمعرضة لنور الشمس ، وأنها امتدت على السواحل حتى بلغت منطقة تعاقب المد
والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه المكشوفة .

كان ذلك العالم الغابر عالم مدوجزر وتيارات قوية . ولابد أن إبادة الأفراد لم تكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطىء ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه فى غور لاتصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجذور والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وغلاف يقى الفرد المتخلف على الشاطىء شر الجفاف الفاجىء . ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلمة فى أعماق البحر ومجاهله أو إلى التاوى فراراً من الوهج الشديد فى الأضحال (١) الخطرة .

ولعل أول المحارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لامن أعدائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظفار تظهران فى حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم العقرب المائية الأولى . وانقضت عصور طويلة ومثل هذه المخلوقات هى صاحبة السيطرة فى الحياة . ثم يظهر بعد ذلك فى قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلورى Silurian ، (الذى يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالأعين والأسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ماعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقرى ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات المعروفة .

---

(١) [illegible] جمع ضحل وهو الماء [illegible] النور .

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن سوامخ الصخور والأراضى الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح فى أشعة الشمس ومياه المطر ، أما التربة بمعناها الصحيح فلم تكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزيئات الصخور وتحولها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أثر مطلقاً لطحلب أو عشب بحرى . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخرى الأجرد عوامل تغيرات عظيمة فى المناخ . وأسباب هذه التغيرات المناخية فى غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والتزحزح التدريجى فى ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضا ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات، ولعل هذه الأسباب مجتمعة قد تضافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دفىء أو معتدل لأمد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطنى العظيم، فترادفت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركانى والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجبال ارتفاعا، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تضافر فيها الصقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال ،وحمل مقادير ضخمة من الغرين لتملأ أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقعتها مع زيادة ضحالة البحر وانتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكم من عصر فى تاريخ العالم اجتمع فيه « الارتفاع والعمق » أو تجاور فيه « الانخفاض والاستواء » . ويجب أن يبعد القارىء عن ذهنه كل فكرة توحى بأن سطح الأرض ظل يبرد باطراد منذ أن تجمدت قشرتها فبعد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر فى أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثاراً لفترات تكاثر أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظمى ، وهى « العصور الجليدية » التى حدثت حتى فى العصر الآزوى نفسه (مع شدة قدمه) . ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقا إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك وفى فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأنماط الأولى من الأشكال التى بدأت عندئذ فى الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطوراً نادراً خفياً إبان عشرات من ملايين السنوات ولكن هاقد وافت الآن فرصتها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية فى غزوها هذه اليابسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقبت خطى النبات فى هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هى مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خوصاته [١] Fronds التى يدفع بها نحو ضياء الشمس عندما تنسحب المياه التى يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هى صعوبة الحصول على الماء — الذى لم يعد آنذاك قريباً فى متناول اليد — من الأرض الموحلة فى أسفل إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التى صلب بها عود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بغتة يكتظ سجل الصخور بأضرب جمة من النباتات الخشبية المستنقعات ، كان الكثير منها ضخم الجسم ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأسوخ [٢] الهائلة وما أشبهها . وسايرت زحف هذه النباتات من الماء عصراً بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذى الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قريبة الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك السكبوريا [٣] King - Crab والعقارب البحرية التى تحولت إلى أقدم العناكب والعقارب الأرضية . وسرعان ما وجدت حيوانات فقارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيراً جداً . فهناك رعاشات [٤] (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعاً وعشرين بوصة .

---

(١) الخوصات Fronds وتسمى أيضاً الفرونات هى نباتات بسائية لم يتميز فيها الساق من الورق فهى سيقان ورقية أو متورقة .

(٢) الأسوخ هو ما يسمى بذيل الفرس .

(٣) هو عنكبوت بحرى عجيب لمدرع على شكل حدوة الحصان وهو آخر من بقى من فصيلته .

(٤) وتسمى بالسرمان أيضا وهى حشرة زاهية الألوان ذات زوجين شفافين من الجناحين .

وقد استطاعت هذه الرتب(orders) والأجناس(genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تتنفس الهواء الذائب فى الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعا مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تكتسب ، بطرائق منوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماما لا منجاة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكى ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه فى جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يتكون للخياشيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية البخر ، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة للتنفس تندس فى صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الخياشيم القديمة التى كان السمك الذى يعد سلفا للسلالة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة للتنفس على البر . وقد حدث فى هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن مثانة العوم هى التى أصبحت عضواً جديداً متأصلا للتنفس هو الرئة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات ، وهى الضفادع وسمندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها فى الماء ، وتتنفس بالخياشيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تتطور على نفس النمط الذى يحل بمثانات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو فى الزور شبيه بالكيس ، فيبرز الحيوان إلى الأرض ، وتضمحل الخياشيم وتختفى شقوق الخياشيم (تختفى جميعا إلا نتوءاً فى شق واحد من شقوق الخياشيم ، يصبح فتحة الأذن وطبلتها) وعندئذ لايستطيع الحيوان البرمائى أن يعيش إلا فى الهواء ، ولكن لابد له أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكى يبيض بيضه وينتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات المتنفسة الهواء فى هذا العصر عصر المستنقعات والنباتات تنتسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريبا أشكال ذات قربى بسمندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقا إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش فى الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى فى ذلك العصر برمائية هى الأخرى مثل حيوانه تماما ، ولم يكن شىء منها قد أنتج حتى ذلك الحين بذراً ولا حبا يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والمطر . إذ لم يكن

أمامها فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores [١] فى الماء إن قدر لها أن تتوالد .

ومن أمتع نواحى ذلك العلم الجليل «التشريح المقارن» اهتمامه بتعقب التكيفات المعقدة المدهشة التى حدثت فى الكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش فى الهواء. فجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هى قبل كل شىء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يعلو الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا فى تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو فى الرحم قبل الميلاد ، فى مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تنمحى قبل خروج الجنين .

والعين التى هى فى السمكة عارية متصلة بالماء ، يمنعها من الجفاف فى الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفرز الرطوبة . وتموجات الصوت الخافتة فى الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وإنك لتلاحظ فى كل عضو من أعضاء الجسم تقريبا تعديلات وتكييفات مماثلة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أى عصر البرمائيات ، عصر حياة فى المستنقعات والبرك ، وعلى الشطوط المنخفضة فى تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار بلغته الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماما من كل حياة . . لقد تعلمت الحياة أن تتنفس الهواء ، ولكن كانت لا تزال متأصلة فى الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتتوالد وتنتج سلالة نوعها .

---

(١) البوغ : Spore جسم أو (بذرة) مفرد الخلية منتج بغير نشاط جنسى .

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكوين الطبقات الفحمية ، وجاءت فى أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ويمثلها فى سجل الصخور رواسب سميكة من الحجر الرملى وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تتقلب تقلباً شديداً فثمة آماد طويلة من الزمهرير القارس ، ترتب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتمدن [1] التى منحت العالم معظم رواسب الفحم فى هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التعديلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تتلقى أثمن ما تتعلم من دروس إبان المحن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متأصلة . ووجدنا فى السجل بقايا حيوانات فقارية تبيض بيضاً ، لا يتفتح عن أبى ذنيبات تحتاج إلى العيش فترة ما فى الماء ، بل هو شئ ارتقى فى سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه قربا يستطيع الصغير معه أن يعيش فى الهواء منذ اللحظة الأولى التى ينفصل فيها ويستقل بوجوده . لقد ذهبت الخياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذنيبات هى الزواحف . وصحب تطورها تطور للأشجار الحاملة للبذور ، والتى كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل وكثير من أشجار المخروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب .

---

(١) التمدن أو المدنة أو التفلز : اكتساب الأشياء غير المدنية خصائص المعادن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لا شك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوهرية لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور المترامية من العسر والشدة . ولم يكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف الوائمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرا بعد عصر ومع كثير من التقلبات ، وتكاثفت حركات القشرة الأرضية التي لم تبرح تتعاقب بغير حصر ، وتغيرات مدار الأرض وتقلب زاوية الميل التبادل بين المدار والمحور زيادة ونقصاناً ، وراحت تعمل جميعها على إيجاد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق . ويروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتى مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن الميزوزوى ، تفريقا لها عن الزمنين الآزوى والباليوزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماما في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمئة مليون سنة) وتمييزاً لها أيضاً عن الزمن الكاينوزوى (أى فترة الحياة الجديدة) الذى جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن ، كما أنها تسمى أيضا باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يبعث على الدهشة وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالى ثمانين مليونا من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبيا فى العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعا من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التى كانت صاحبة السلطان فى العالم فى عصر الرواسب الفحمية . إذ لا تزال لدينا الثعابين والترسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكى (Alligator) والتماسيح العادية والسحالى [1] . وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهى لا تستطيع أن تتحمل التعرض للبرد ، والراجح أن جميع زواحف الزمن الميزوزوى قد كابدت الأهوال لنفس هذه السبب . كانت حيوانات مما ينمو فى البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات مما يربى فى تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تكن تتحمل

---

(١) السحالى : Lizzads دويبة ملساء تمشى مشيا سريعا ثم تقف وتسمى أيضا العظاية والعظاءة وجمعها عظاء وعظايا وعظايات (المنجد) .

ضفيعاً . ولكن العالم الآن قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيقى، والمختلف تماما عن حيوان ونبات الطين والمستنقعات فى العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً فى تلك العصور ، فهناك ترسات وسلاحف كبيرة ، وتماسيح ضخمة وكثير من السحالى والثعابين ، ولكن كان هناك عدا ذلك عدد من عائلات من المخلوقات العجيبة التى اختفت الآن تماما من هذه الأرض . ثم أنواع جمة من كائنات تسمى الدناصير: [العظايا المهولة].وكان النبات قد شرع فى الانتشار حينئذ فوق ما فى العالم من المستويات المنخفضة . فتكاثر القصب (البوص) وآجام السرخس وما ماثلها ؛ وفى هذه الوفرة من الخيرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف المقتاتة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى، وأخذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الزمن الميزوزوى إلى ذروته ومن هذه الوحوش ما تفوق فى حجمه على كل حيوان برى عاش على ظهر البسيطة قبلها ؛ فهى تضارع الحيتان فى حجمها فكانت العظاءة مزدوجة العاتق (الديپلودوكس كارنيجاى Diplodocus_Carnegii) مثلا تمتد أربعة وثمانين قدما من البوز إلى الذيل ؛ كما أن العظاءة المارده (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مئة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش حشد من العظايا المهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorous) المتناسبة معها حجما . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظاية الجبارة (التيرانصور) وتصفه بأنه قد بلغ الغاية فى شناعة الزواحف .

وبينما كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتتعقب بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Fronds) والنباتات الدائمة الخضرة للآجام الميزوزوجية، إذا قبيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه الضفيرة — ولا وجود لها الآن — تتأثر الحشرات وتتعقب بعضها البعض ، بادئة بالوثب والهبوط ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيقانها الورقية وتلك هى التيرودا كتيل (أى ذو الأصبع المجنح)[1]. وهو أول الكائنات الطيارة ذات العمود الفقرى؛ ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

---

(١) وهى إحدى الفقريات برو زاحفة طيارة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطير وغشاء الطيران يتصل بالأصبع الخامس الطويل .

وفضلا عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت فى العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى انتجاع البحر الذى خرجت منه أسلافها ؛ هى عظايا نهر الوز (الموسوصور) وأشباه العظايا (البلسيوصور) وعظايا البحر المندثر (الإخثيوصور) . وبعض هذه يقارب فى حجمه حيتاننا الراهنة ، ويلوح أن الإخثيوصور كان حيوانا تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البلسيوصور طراز من حيوان ليس الآن ما يماثله . فجسمه كان بدينا ضخما له مجاديف عريضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف فى المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبيا فمنصوبة فوق رقبة كالثعبان هائلة لا تكاد تدانيها رقبة البجعة . والظاهر أن البلسيوصور كان يعوم ويبحث عن الطعام تحت الماء ويغتذى كما تفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هى أهم أنواع الحياة الموجودة فى البر طوال الزمن الميزوزوى . فهى تعتبر — بمقاييسنا البشرية — تقدما فاق كل شىء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجما وأوسع انتشاراً وأعظم قوة ونشاطا ، وأحفل بالحيوية (كما يقول الناس) من أى شىء شهده العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت فى البحار الضحلة أضرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الحبرذات محار مقسم إلى تجاويف معظمها حلزونى ، وهى العمونى[1] بأنواعه ، وللعمونى أسلاف قديمة فى بحار الزمن الباليوزوى ، ولكن هاقد حل الآن عصر مجده . غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثله ، وأدنى الكائنات شبها به فى الوقت الحاضر هو النوتى اللؤلؤى[2] ، الذى يعيش فى المياه المدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر نسلا وأشد تكاثراً وذى قشور أخف وأرق من تلك الأغطية الشبيهة بالدرقات والشبيهة بالأسنان ، التى كانت منتشرة حتى آنذاك ، فأصبح هو النوع السائد فى البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

---

(١) العمونى Ammonites صدف حجرى منسوب للإله عمون .

(٢) النوتى اللؤلؤى Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جميل الصدف

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الحاشدة التي كانت تمرح في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعني الزمن الميزوزوي . وبينما كانت الدناصير تسود ذلك العصر في مراعي السلقاس وسهول المستنقعات الحارة ، والتيرودا كتيل يملأ سماء الغابات برفرفة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونعيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزل بعد مجردة من الزهر ، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحرز قوى خاصة وتتعلم دروساً معينة من الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تضنان بسماحتهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ، قد أكرهتها المنافسة وتعقب الأعداء لها على المفاضلة بين أمرين : إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفي هذه القبائل التي ابتليت بالمحن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنابيب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنابيب وأصبحت بدايات لجة الريش . وكانت هذه القشورة الشبيهة بأنابيب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافاً حافظاً للحرارة أكثر من أي غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تغزو المناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صحب تلك التغيرات زيادة في اهتمام هذه المخلوقات ببيضها فمن الجلي أن معظم الزواحف لا تعني ببيضها أقل عناية ، بل تتركه لتتولى فقسه الشمس والوقت المناسب . ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد من شجرة الحياة أخذت تكتسب عادة حراسة بيضها والمحافظة على دفئه بوساطة حرارة أجسامها .

وفضلا عن هذه التكيفات وفق البرودة، كانت تجرى تكيفات باطنية أخرى جعلت هذه المخلوقات ــ وهى الطيور البدائية ــ دفيئة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء.

ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاديف تكاد تشبه مايوجد فى طائر البطريق (البنجوين) وإذا نظرت إلى طائر الكيوى النيوزيلندى ذلك الطير البدائى الممعن فى بدائيته وجدت له ريشاً ذا طراز بسيط جداً ، ورأيته لايطير ولا يبدو عليه أنه ينحدر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر فى عملية تطور الطير قبل الأجنحة .ولكن ما كاد الريش يتطور، حتى أصبح من المحتم أن يؤدى إمكان انتشاره انتشاراً خفيفاً إلى ظهور الجناح ، وإنا لنعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له فى فكه أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مراء أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيزودا كتيل فى الزمن الميزوزوى . ومع هذا فالطيور لم تكن بالمتنوعة ولا الوفيرة فى الأزمنة الميزوزوية فلو تهيأ لإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوى نموذجى، لسار أياما كثيرة دون أن يرى شيئا يسمى بالطير أو يسمع له صوتا ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات.

وثم شىء آخر لعل عينيه لاتقعان على أى أثر له هو الثدييات . والراجح أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الصغر والضآلة والانزواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد .

والثدييات الأولى ــ شأن الطيور الأولى ــ مخلوقات دفعتها المنافسة والمطاردة إلى تجشم حياة حافلة بالشدائد وبالتكيف مع البرد . وفيها أيضا اتخذ القشر شكل قصبة الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم ألمت بها أيضا بعض تعديلات . تمشى فى نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت فى التفاصيل ــ وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء . فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر، وبدلا من حراسة بيضها واحتضانه ، كانت تحتفظ به دافئا مصونا باستبقائه داخل أجسامها حتى يقارب النضج . وأصبح معظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنياحية ، وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تجنح إلى الارتباط بها ارتباطا يقوم على الوقاية والتغذية.

وجل الثدييات اليوم، إن لم تكن كلها ، ذات أثداء وترضع صغارها . ولا يزال هناك حيوانان ثدييان يبيضان البيض وليس لها أثداء بالمعنى الصحيح . وإن غذيا صغارهما بإفراز معد يخرج من تحت جلدهما، وهما البلاتيب البطى للنقار والإخيدنا(١). والحيوان الأخير يبيض بيضا يشبه الجلد ، ثم يضعه فى كيس أسفل بطنه، وبذلك يحمله أينما ذهب وهو فى دفء وأمان حتى يفقس.

وكما أن الزائر العالم لليزوزوى ربما بحث أياما وأسابيع قبل العثور على طائر ، فربما اضطر أيضا إلى البحث عن آثار الحيوان الثديى دون جدوى، مالم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه . ولا شك أن كلا من الطيور والثدييات كانت تبدو فى العصر الميزوزوى مخلوقات غريبة الأطوار ثانوية الدرجة غير ذات أهمية.

ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثمانين مليون سنة ، فلو فرض أن كائنا أوتى ذكاء الإنسان وعقله ليرقب العالم طوال ذلك الأمد البعيد الذى لايكاد يتصوره عقل، فكم كانت الوفرة والخيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذاك أبدية راسخة القدم !! .. وكم كان ذلك الرغد الذى يتمرغ فيه الدينوصور وتلك الكثرة الوفيرة التى بلغتها المطايا الطائرة يبدوان مطمئنين إلى الأيام ! ثم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الخفية المتواترة والقوى المتجمعة فى العالم تقلب ظهر المجن لذلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أن الحظ أخذ يدير ظهره للحياة . ففى عصر بعد عصر وفى آماد من السنين بعد آماد ، مع فترات من التوقف لاجرم ، وفترات من النكوص والتدهور ، اتجه العالم صوب تغير حافل بالشدائد والتطرف ، فتبدل مستوى سطح الأرض تبدلا عظيما وتبدل توزيع الجبال والبحار تعديلا شاملا . وشاهد ذلك كله أنا نجد فى سجل الصخور أثناء فترة إدبار الزمن الميزوزوى الطويل الكثير الوفرة والنماء ، شيئا له مغزاه الواضح فى التغيرات المتواصلة للظروف ، هو حدوث تقلب عنيف فى أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المحدق بنوعها المهدد بإبادتها أقصى مالديها من قدرة على التغير والتكيف . فقواقع العمونى مثلا أنتجت فى هذه الصفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوى عدداً غفيراً من الأشكال العجيبة . والظروف المستقرة لاتدعو إلى مثل ذلك الاستحداث؛ فالمستحدثات

---

(١) الإخيدنا Echidna ويسمى الصلول وهو حيوان من الثدييات الملكية يسكن أستراليا.

لاتتطور فى ظلها ، بل تتوقف ؟ إذ أن أحسن الأنواع تكيفا يكون موجودا بالفعل . فإذا وافت ظروف جديدة فالطراز العادي هو الذى يقاسى ، والشىء المستحدث هو الذى ربما أتيحت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تجيء فترة انقطاع فى سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات . والواقع أن هناك ستاراً مسدلا يحجب كل شىء حتى معالم تاريخ الحياة نفسها : فإذا ارتفع ذلك الستار ثانية إذا بعصر الزواحف قد ولى ، وإذا بالدينصور والبلسيوصور والإكثيوصور والتيرودا كتيل ، وجميع أجناس العمونى وأنواعها التى لا يحصرها عد قد اختفت تماماً . لقد بادت جميعا — على أضربها اللادهشة الوفرة — ولم تخلف أى أثر بعدها . فقد قضى البرد عليها جميعا . ولم يغن عنها شيئا أقصى ما استحدثته بنفسها من تغييرات لعدم كفايته ؛ فهى لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر فى دور من المناخ المتطرف يتجاوز قوة احتمالها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة الميزوزوية ، وهنا نشهد أمامنا منظراً جديداً ، إذ استوت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأساً ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة .

وإنه لمشهد لايزال فيه أثر الزمهرير والجدب ذلك الذى يفتتح به هذا المجلد الجديد من سفر الحياة . فإن الحزازيات والمخروطيات(١) الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير أشجار تنفض أوراقها توقيا للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والثدييات تستولى على تراث كثرة عظيمة من الزواحف .

---

(١) المخروطيات : Conifers فصيلة من النبات من أمثال الصنوبر .

الفصل الثامن

عصر الثدييات

كان مطلع الزمن الكاينوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلاً بالارتفاعات فى القشرة الأرضية والنشاط البركانى الشديد . وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والهملايا ، كما رفعت سلاسل جبال روكى والأنديز التى يشبهونها بالعمود الفقرى ، وذلك أيضاً هو الأوان الذى ظهرت فيه للعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة ، وفى ذلك الأوان أيضاً تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه وتقدر المدة التى تفصل عصرنا وأوائل الزمن الكاينوزوى بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليوناً من السنين .

كان مناخ العالم صارماً قاسياً عند بداية الزمن الكاينوزوى ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل فى دور جديد من أدوار الوفرة والنماء الغزير ، ما لبث أن تحول بعده إلى دور جديد من الصبر والإمحال ؛ ومرت الأرض فى سلسلة من الدورات المفرطة البرودة ، هى العصور الجليدية التى يلوح أنها تخرج منه الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات الناخية ليست فى الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات فى الأحوال المناخية التى تخبئها لنا الغد وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضياء الشمس ، أو ننتكس نحو زمهرير عصر جليدى آخر ؛ وربما كان النشاط البركانى ورفع الكتل الجبلية آخذاً فى الزيادة وربما فى النقصان ، فلسنا ندرى عن ذلك شيئاً ، إذ يعوزنا القدر الكافى من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعها ، ويظهر المرعى فى العالم لأول مرة ، وباكتمال تطور النوع الثدبى الذى كان مغموراً فيما سلف ، يظهر عدد من

الحيوانات الشائقة الآكلة العشب، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة اللحوم التي تعيش على تلك.

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط — عن الزواحف الآكلة العشب والآكلة اللحوم التي ازدهرت قبل ذلك بعصور ودهور ثم بادت من الأرض. وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر الجديد الثاني من أعصر الدفء، والوفرة الذي شرع يبدأ آنئذ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول، مع قيام الثدييات الآكلة للعشب واللحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير، ومع حلول الطير محل التيرودا كتيل وهكذا. على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة. ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهي ولا يقف عند حد، فهو يتقدم تقدما أبديا، والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً، وليس هناك أية متماثلات تتطابق صورها بالضبط تماماً. والفروق بين صورتي الحياة في الزمن الميزوزوي وشقيقه الكاينوزوي أعمق كثيراً من أوجه التشابه.

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للفترتين. وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف، والزواحف — باستثناء القليل النادر منها — تترك بيضها يفقس وحده. فالزاحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة، وحياته العقلية — كما هو الواقع — تبدأ وتنتهي بخبراته الخاصة. وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره، ولكن ليس بينه وبينها أي اتصال، وهو لا يقلدها أبداً، ولا يتعلم منها أبداً، كما أنه غير قادر على القيام بأي جهد مشترك معها. فحياته حياة فرد منعزل. ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلها — وهما من مميزات السلالتين الجديدتين، الثدييات والطيور — حالة جديدة إمكان التعلم بالمحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأعمال الجمعية، والهيمنة والإرشاد المشترك. لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم.

والمخ عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوي لا يفوق في الحجم إلا قليلا مخ الدناصير الآكلة اللحوم والأكثر نشاطاً، ولكن كلما قلبنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث، وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ المخي (١) في كل قبيل وسلالة من

---

(١) سعة الفراغ هي حجم المخ ومدى اتساع الجمجمة من الداخل.

بلات الحيوانات الثديية . بمثال ذلك : أننا نلحظ في مرحلة مبكرة نسبيا وجود وحوش شبه الكركدن . فإنا نجد في أبكر عهود تلك الفترة حيوانا هو التيتانوثيروم ؛ ويراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن المصري في عادته وحاجاته ، ولكن فراغ . لم يصل إلى عشر ما لخلفه الحي .

ويحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفترق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار والكبار عظيمة جداً ، لذا لا نلبث أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان ورعلان وهي تلحظ بعضها بعضا ، وتقلد بعضها بعضا وتتلقى التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسماك قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مرد ذلك أنها فقست بكميات وعملت الظروف المتشابهة على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل تدعمه دافع داخلي . وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدفة في نفس الأماكن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضا ولذلك فهي تتواجد معا .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لا نستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . ولسنا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ؛ فدوافعنا موازنات ونتائج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تتصف بكبح للنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، وتجاوب اجتماعي: أي ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته فإنه شبيه بما نحن عليه . ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشيء العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأتت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة تفهمنا وتميزنا . وتميزها ، وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تستأنس وتتعلم

إن ذلك النمو غير الاعتيادي للمخ ، الذي هو أهم حقائق الزمن السكاينوزوي يستتبع وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتماد بعضهم على بعض . كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذي سنحدثك به من فورنا .

وكلما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن السكاينوزوي تزايدت درجة المشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الوينتاثيرات (Uintatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت ؛ وهي وحوش ضخمة قبيحة ليس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها . غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقي بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشعة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجمله وحصانه وفيلته وظبائه وكلابه وأسوده وببوره[1]. أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص في صفحات السجل الجيولوجي ، فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ في بكور الزمن السكاينوزوي بسلف صغير يشبه التابير[2] . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها في شيء من الضبط هي سلسلة اللاما والجمل .

---

(١) الببر وجمعه الببور Tiger : ضرب من الأسد مخطط وليس هو النمر كما تسميه العامة

(٢) التابير Tapir أحد الثدييات آكلة العشب يشبه الخنزير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية وجزائر الهند الشرقية .

الفصل التاسع

القرود والقردة العليا (١) وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويجعلون على رأس هذه رتب الثدييات العليا التي تحتوى على الليمور والقرود والقردة العليا والإنسان . والأصل في ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأى صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا فى السجل الجيولوجى . ذلك أنها فى الغالب حيوانات تقطن الغابة كالليمور (الهبار) أو القردة التى تقيم فى الأماكن الصخرية الجرداء كالبابون (الرباح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولكنا نعلم أنه حدث فى عهد مبكر من الزمن الكاينوزوى ، أى منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى ، وكانت أصغر مخاً وأدنى تخصصاً من أخلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمى العظيم الذى ساد الدنيا فى الزمن الكاينوزوى الأوسط . وكان مصيره مصير الصيفين العظيمين الآخرين فى تاريخ الحياة : صيف مستنقعات الفحم ، والصيف الهائل الذى هو عصر الزواحف وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدى . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تثلج مرة ثانية وكانت أفراس البحر ترتع فى الماضى الدفىء بين نباتات غضة شبه مدارية ، وكان ببر هائل له ناب مثل السيف هو الببر السيف ، يتصيد فرائسه فى المنطقة التى يذرعها

---

(١) القردة العليا هى أرقى أنواع القرود التى تشبه الإنسان ولا تزيل لها أو تكاد .

الصحفيون اليوم ذهاباً وجيئة فى شارع فليت بلندن (١) . ثم جاء عصر مكفهر قارس فصور أشد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غربلة (٢) كثير من الأنواع وإبادة كثير غيرها ، وظهر فى المشهد خرتيت صوفى مكيف للمناخ البارد ، كما ظهر الماموث وهو ابن عم ضخم للفيل ذو صوف غزير ، وظهر ثور المسك القطبى وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبى ، وأخذ شبح الموت الثلجى فى العصر الجليدى يزحف نحو الجنوب قرنا بعد قرن فامتد فى انجلترا حتى دانى منطقة التاميز ، ووصل فى أمريكا إلى نهر الأهيو : ثم جاءت آماد أكثر دفئاً ذرعها بضع آلاف من السنين ، ولكن أعقبتها ارتكاسات نحو البرد المرير .

ويطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدى الأول والثانى والثالث والرابع ، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور « بين الجليدية » . . . ونحن إنما نعيش اليوم فى عالم لا يزال يئن من آثار الجدب والجراح التى خلفها ذلك الشتاء الرهيب . والعصر الجليدى الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة ؛ على حين بلغ العصر الجليدى الرابع أقصى زمهريره المرير منذ خمسين ألف سنة تقريبا . وفى هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوى الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ، ذات خواص شبه إنسانية كثيرة فى الفك وعظام الساق ، ولكنا لا نعثر على أية آثار لمخلوقات نستطيع أن ننعتها بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر المنقبون فى أوربا ، فى رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام ، على ظرانات وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذى مهارة يدوية يريد أن يطرق أو يخدش أو يقاتل بالحد المشحوذ .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eoliths) . وليس فى

---

(١) حوحى الصحافة بالعاصمة البريطانية .
(٢) الغربلة ، التنقية وإزالة ما لا خير فيه .

آورها أية عظام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذى صنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب ، ومهما يكن قدر ما يخالجنا من يقين أو شك فى شأنه ، فلعله لم يكن إلا قرداً غير إنسانى تماماً ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل Trinil » بجزيرة جاوة ، وبين ركام تعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء مخى[1] أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتصب القامة (Pithecanthropus erectus) ، كما أن هذا المقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيالنا من العون حتى الآن فى تصوره لصناع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لا نعثر بعد ذلك فى السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما نبلغ رمالا يقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا فى مطالعة صفحات السجل . فهى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هى أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلا عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الذقن تجرداً تاماً ، وهى أثقل كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حقة ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجح معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك فى فمه بالنطق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشا ضخما كالإنسان تقريبا ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أشد الأشياء استثارة لرغبتنا فى الاستطلاع . وكأنى بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة معيبة ، والحصول بواسطتها

---

(١) الوعاء المخى (Brain Case) هو الجمجمة ، وتسمى فى علم الأحياء بالقحفة ، ويسمى اتساعها من الداخل بالفراغ المخى .

على لمحة واحدة مغشاة محيرة لذلك المخلوق ، وهو يدلف متثاقلا خلال البرية البارزة الوحشة ، ويتسلق المرتفعات ليتجنب النمر السيف ، ويرقب الكركدن الصوفى فى الغابات . وإذا بالوحش يختفى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نفحصه . ومع ذلك فإن تربة الأرض محلوءة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلى التى نحتها لينتفع بها .

وثمة بقايا أخرى أشد فتنة وغموضا ، وجدت فى « بلتداون » بمقاطعة ساسكس فى طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفا من السنين ، وإن جنح بعض الثقاة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيراً من جمجمة أية قردة عليا موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، وربما كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل المضرب ، تتجلى فيها العناية فى الصنع ، وقد ثقب فيها ثقب واضح لا شك فيه . وهناك أيضا عظمة فخذ الغزال عليها قطوع وحزوز كالتى توجد على قائم العد [1] . ثم لا شىء بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذى كان يجلس ويثقب العظام ؟ !

لقد سماه رجال العلم باسم إنسان الفجر (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن ذوى قرباه ، فهو مخلوق مختلف جداً عن المخلوق الهيدلبرجى ، وعن أى قرد راق آخر يعيش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحصباء والرواسب التى انقضى عليها مئة ألف سنة فصاعداً تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلات الظران وما شابهه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات حجرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار (الأركيولوجيون) أن يتبينوا فيها : الكاشط والمخارز ، والسكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية . . .

---

(١) قائم العد أو عصا الحساب : Tally ، قطعة من الخشب تخدش فيها خدوش للدلالة على الأرقام .

فنحن إنما ندنو كثيراً من الإنسان . وسنصف لك فى الفصل التالى أعجب هـــذه الأنواع المؤذنة بظهور البشر ، وهم النياندرتاليون ، القوم الذين كانوا تقريبا ـ وليسوا تماما ـ أناسا حقيقيين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر ههنا بمنتهى الوضوح ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هذين المخلوقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان الفجر ، هو السلف المباشر للانسان العصرى ، وإنما هما — مهما دنت قرابتهما — أشكال تمت إليه بالقربى .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالى والروديسى

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدى الرابع أوجه ، مخلوق بلغ من قوة مشابهته للانسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكمية ضخمة من الآلات الكبيرة التى كان يصنعها ويستعملها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلتجىء إلى الكهوف اتقاء للبرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزاً خشناً ثم يرتديها . كان يسراً يستعمل يمناه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تكن من الإنسان الحق فى شىء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك ثقيلة بارزة وجباه منخفضة جداً وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إبهامهم مما يتقابل والأصابع كإبهام الإنسان ، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولعلهم كانوا يمشون فى استرخاء ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الأمام . وعظام فكاكهم العديمة الذقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تخالف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأسنان البشرية بون بعيد . فإن أضراسهم أشد تعقيداً من أضراسنا ومن عجب أنها أشد تعقيداً من أسناننا وليست دونها فى التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسناخ الطويلة التى لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشباه الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التى للكائن الإنسانى العادى . على أن سعة جماجمهم إنسانية تماماً ، ولكن المخ أكبر فى المؤخرة وأخفض فى المقدم من المخ الإنسانى . وكان لمقدراتهم وملكاتهم العقلية ترتيب آخر مغاير . فهم ليسوا أسلافاً للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأرومة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجثمانية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال بوضع

أماكن أخرى ، ولذا أطلق على هـذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسم إنسان نياندرتال ولعله ظل يقطن أوربا مئات كثيرة بل آلافا من السنين .

وفى ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جداً عما هما عليه فى الزمن الحاضر . فكانت أوربا مثلا مغطاة بجليد يمتد جنوبا حتى نهر التاميز ، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزى (بحر المانش) يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما احتوت أجزاؤهما الأكثر انخفاضاً على مجموعة من البحيرات ، كما أن بحراً داخليا عظيما كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر الروسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد فعلا من أجزاء أوربا ـ تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ لبرادور ، ولم يكن الإنسـان ليجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقية الشمالية .

وكانت تنتقل عبر السهوب الباردة بأوربا الجنوبية بمـا حوت من نبات قطبى متناثر ، مخلوقات شديدة التحمل للبرد من أمثال الماموث الصوفى والخرتيت الصوفى والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتعقب النبات نحو الشمال فى الربيع ونحو الجنوب فى الخريف .

ذلك هو المشهد الذى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرانيه ، متلقفاً من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتيا فى معظم أمره يمضغ الساليج والجذور . ذلك أن أسنانه المسطحة المحكمة توحى بغذاء يغلب فيه النبات . ولـكنا نرى فى كهوفه أيضا عظاما نخاعية طويلة لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن البديهى أن أسلحته لم تـكن كبيرة الجدوى فى القتال مع الوحوش الضخمة وجها لوجه ؛ ولـكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراب عند المعابر الصعبة للأنهار ، بل حتى يحتفر لها الحفائر ليوقعها . ويحتمل أنه كان يتعقب القطعان ويفترس أى فرد منها يموت فى القتال ؛ ولعله قام بدور ابن آوى إزاء البير المسيف الذى كان لا يزال حيا فى أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح فى أثناء محن العصر الجليدى وشدائده المريرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات .

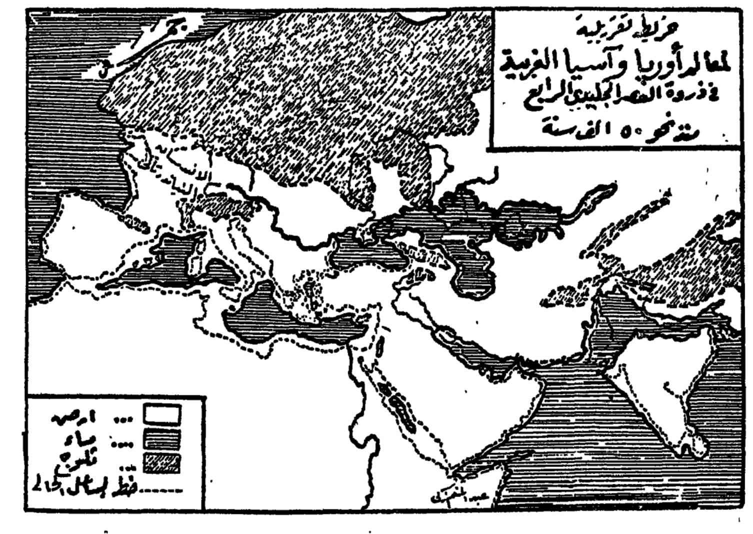
ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالى . وأكبر الظن أنه غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقا . بل إنا لفى شك من أنه كان يسير منتصب القامة . ولعله كان يستعجل يديه بالإضافة إلى قدميه لحمل جسمه . والراجح أنه كان يضرب فى الأرض بمفردة أو فى جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فكه على عدم قدرته على الكلام بالصورة التى نفهمها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ما شهدت القارة الأوربية من حيوان ؛ ثم حدث منذ حوالى ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلا أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تمت إليهم بالقربى ، ولكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفة ، ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض . فطردو الجنس النياندرتالى من كهوفه ومنتجعاته ، وتصيدوا نفس الطعام الذى كان يأكله ، ولعلهم قد قاتلوا سابقيهم هؤلاء البشعين وأعملوا فيهم الفناء . هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم فى الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس دمنا وجنسنا ، وهم الإنسان الاول الحق . وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أمخاخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم هى من الناحية التشريحية نفس ما لدينا . وقد عثر الباحثون فى كهف عند كرومانيون وفى آخر قرب جرعالدى على عدد من الهياكل العظمية ، هى أقدم ما نعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جنسنا فى سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية .

فى تلك الأيام أخـــذ العالم يصبح أشبه بعالمنا وإن بقى المناخ شديداً قاسيا . وقد أخذت ثلاجات العصر الجليدى فى التراجع بأوربا ؛ وسرعان ما أخلت غزلان الرنة بفرنسا وأسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الخيول كلما تكاثر الكلأ على السهوب ، وأخذ الماموث يزداد ندرة فى جنوب أوربا حتى تراجع فى النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقا ....

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيق أولا ، ولكن حدث فى صيف ١٩٢١ ، أن اكتشفت جمجمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمى قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية ، جمجمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان متوسط فى خواصه المميزة بين


خريطة تقريبية
لمعالم أوربا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الجليدي الرابع
منذ نحو ٥٠ الف سنة
ارض
ماء
ثلوج
خط الساحل الحالي

خريطة رقم (١)

النياندرتالى والكائن الإنسانى الحق ، ويدل الوعاء المخى على أن مخه أكبر فى المقدم وأصغر فى المؤخرة من مخ النياندرتالى ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقرى على شاكلة إنسانية تماما . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بحتة ، أما الوجه فالراجح أنه كان شبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الروديسى أوثق شبهاً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالى .

والراجح أن هذه الجمجمة الروديسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكتشفات قد تتكون منها فى النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض فى الفترة الزمنية الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدى وبين ظهور الإنسان الحق وريثها جميعاً ، ولعله أيضاً مبيدها جميعاً ، وربما لم تكن الجمجمة الروديسية نفسها مفرطة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسانى يعيش فى إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جداً .

الفصل الحادى عشر

الإنسان الحقيق الأول

إن أقدم مايعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لايتطرق الشك إلى قرابتهم لذوات أنفسنا ، عثر عليه فى أوربا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا . فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفوره ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور ، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر . وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهى أن مالدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من المنقبين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيفحصونها فى شىء من التفصيل . فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب يهتم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتياد ، وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول امتازت به أوربا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة .

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها اليوم البحر ، على رواسب تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عدداً وأقدم عهداً من أى شىء عثر عليه حتى يومنا هذا . إنى أتكلم عن آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يعثر فيها ــ عدا سن واحدة ــ على أى شىء يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أكانت من القردة العليا أو أشباه الإنسان أو النياندرتاليين ، أو الإنسان الأول الحقيق . ذلك أن هذا التطور الذى تناول الحياة ، يلوح أنه شىء اقتصر أمره على العالم القديم وحده تقريباً ، والظاهر أن الكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضى الذى يخترقه الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجرى القديم .

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التى نعرفها فى أوربا ، كانت تنتسب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماما أحدهما عن الآخر . وكان أحد هذين العنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير المخ . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها المخى فراغ مخ الرجل المتوسط فى هذه الأيام . كما أن أحد هياكل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولا . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمى هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون الذى وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق .

فأما العنصر الثانى الذى عثر على بقاياه فى غار جرعالدى ، فكان عنصرا ذا قسمات شبه زنجية (نجريدية)[1] لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا . ولعله مما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلا منذ ابتداء قصة الإنسان المعروفة إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؛ وقد يجمح المرء منا إلى أن يفترض بغير أساس علمى أن العنصر الأول كان على الأرجح أسمرا أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثانى كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلغ من اتصافهم بالسمات البشرية أنهم كانوا يثقبون الودع ليصنعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون التماثيل من الحجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف الملساء ، وعلى سطوح الصخور التى تعجبهم رسوماً للحيوان وماشابهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تنم فى الغالب عن مقدرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعا كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنعاً مما كان الرجل

---

(١) النجريدى Negroid هو العنصر الذى يشابه الزنج الشكل والقسمات وإن لم يكن زنجياً بحتاً . (المترجم)

النياندرتالي . وبمتاحفنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وتماثيلهم الصغيرة ، وماخلفوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء المتوحشين صيادين ، أهم مايتصيدونه الحصان البرى ، وهوالسيسى الصغير الملتحى الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتعقبونه فى مسيره ووراء المرعى وكذلك كانوا يتتبعون الجاموس البرى « البيزون » . وقد عرفوا الماموث ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لذلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقعونه فى الحبائل ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحراب وبالقذف بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنا لفى شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان كأنى بهما يمثلان حصاناً ملجماً ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الخيول الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلا ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . ومما نشك فيه ولا نرجحه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دمى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لاوجود له البتة . وما كانوايعرفون عن الزراعة شيئا ، ولا شيئا عن أى نوع من أنواع صنع السلال أو القماش المنسوج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء ، لجاز لنا أن نقول إنهم من المتوحشين العراة المنقوشى البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوربا المنبسطة دهراً لعله مئة قرن ، ثم أخذت تغيرات المناخ تفعل فيهم فعلها وتبدل من أحوالهم . فإن مناخ أوربا أخذ يتحول قرنا بعد قرن ، ويصبح أكثر اعتدالا ومطراً فتراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وحلت الغابات محل السهوب ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها تغير صحب هذا التغير فى استعمالاتها ، وبات الصيد من الأنهار

والبحيرات ذا أهمية كبرى للانسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة . يقول دى مورتليه : «إن الإبر العظمية فى هذا العصر أجود كثيراً من المتأخرة عنها فى الزمن، حتى ما كان منها فى الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلا إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب إسبانيا منذ حوالى خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جداً ، رسمها على سطوح الصخور المكشوفة . هذا الشعب هو الأزيليون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Mas d' Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرسمون رسوما مشرقة ، ولكنهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية — فالرجل مثلا يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أفقيين أو ثلاثة — وفى ذلك مافيه من تلويح ببزوغ فكرة الكتابة . وكثيراً ماتجد بإزاء رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالتى على قائم العد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان النحل من خليته بالدخان .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم الباليوليثيين أهل العصر الحجرى القديم لمجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ فى أوربا منذ عشرة آلاف أو اثنى عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لاأن ينحت الآلات الحجرية فحسب بل أن يصقلها ويشحذها ، كما أنه شرع فى الزراعة ، وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) .

وقد يشوق القارىء أن يعلم أنه كان هناك منذ أقل من قرن مضى فى صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تسمانيا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجثمانى والعقلى أخفض من أى من هذه الأجناس البشرية الأولى التى تركت آثارها فى أوربا . لقد قطع هــذا الشعب التسمانى عن بقية الجنس البشرى منذ آماد طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوامل التنبيه والتحسن . ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا ويرتقوا وعندما اكتشفهم المكتشفون الأوربيون ، وجدوهم يعيشون عيشا خفيضا مقتدين بالمحار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل مخيمات ، ولا شك أنهم رجال حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تعوزهم المهارة اليدوية والمواهب الفنية التى كان الإنسان العتيق الأول يتحلى بها .

الفصل الثانى عشر

الفكر البدائى

لنطلق الآن لأفكارنا العنان لتجول فى عالم الخيال بضع جولات ممتعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته فى تلك الأيام الأولى للمغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيم كانوا يفكرون فى تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن مضت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما فى إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التى لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، منوعة جداً . ففى العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسى قد ألقى قدراً عظيما من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية، بأسلوبه الذى يتفحص الطريقة التى بها تكف الدوافع الأنانية والعاطفية فى الطفل . أو تعدل أو تغطى بأشياء أخر ، حتى يتيسر تكييفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية (١) ؛ وثمة مصدر آخر للاستنتاج دانى القطوف ، هو دراسة فكرات وعادات المتوحشين الذين لا يزالون يعيشون فى هذا العالم . وهناك أيضا ضرب من التحفر والجمود (٢) العقلى نجده فى الفوكلور (الأدب الشعبى) وفى الخزعبلات والتحيزات غير المعقولة العميقة الرسوخ فى النفوس والتى لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتمدنة . ثم إن لنا فى تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها مما يكثر عددا ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقا له وجديراً بالتسجيل والتمثيل .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع كتاب: « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة المترجم إن شئت تفصيلا لنظريات التحليل النفسى .

(٢) التحفر : تحول الشىء إلى حفرية من الحفريات . وهو هنا بمعنى مجازى هو التجمد والتحجر العقلى وبقاء القديم على قدمه . (المترجم) .

والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات . فكان يستدعى إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء أو كانت الصور العقلية (١) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسبما تمليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيلة . وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة. بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقا في هذه الأيام نفسها وينظمونها فعلا ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة . وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضا أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضى أن تقيد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية . وكان لابد من بسط فكرتي «الخوف من الأب واحترام الأم» حتى تتغلغلا في حياة الكبار ، وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعي والحامي الفطري للصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التي تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون — وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك عالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتى عبقرية عظيمة هو «ج. ج. أتكنسون ، راح في كتابه «القانون البدائي» ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون العرفي لدى المتوحشين — (وهو تلك المحظورات «Tabue» التي هي حقيقة بارزة في الحياة القبلية) — إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان البشري البدائي وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور . وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة .——

ومن الكتاب الميالين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدوننا أن نعتقد بأن احترام

---

(١) الصور العقلية images : وهي الأخيلة (المترجم)

الرجل العجوز والخوف منه ، والانفعال العاطفي الذي يحسه المتوحش البدائي إزاء العجائز المسنات اللواتي يتولين حمايته ، (وهي وجدانات تزيدها الأحلام شدة، ويضاعفها عبث الأوهام والأخيلة) كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والربات . ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقا وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلا وهميا إلى منتأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه أكثر إشراقا وواقعية من أحلام الراشد العصري ، وما كان الرجل البدائي دائما إلا طفلا في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضا أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي له وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صغره طفلا واسع الخيال ليدرك من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مبهمة وذات مغزى خطر أو منذرة بالثبور أو مظهرة للمودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء، ما كان يصبح مقبولا ومصدقا عندما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتذكر وتعاد روايته . وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد . ولا يزال معظم واسعي الخيال من الأطفال يخترعون إلى يومنا هذا قصصا طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالي شبه إنساني ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك — مع اختصاصه بميل أقوى كثيراً إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثرثارة تماما . وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن النياندرتاليين ويمتازون عليهم فالنياندرتالي ربما كان حيوانا أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يزد بداهة عن مجموعة ضئيلة جداً من الأسماء ، وربما كان يصدر مقتضبا مصحوبا بالحركات والإشارات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلة والمعلول ، ولكن الرجل البدائي لم يكن نقادا في ربطه السبب بالنتيجة ؛ فما أسهل

ما كان يربط نتيجة بشيء بعيد تماما عن سببها . كان يقول : « أنت تفعل كذا وكذا فيحدث كيت وكيت » . فأنت تعطى ثمرة لأحد الأطفال فيموت . وأنت تأكل قلب عدو مغوار فتصبح قويا . هذان مثالان للربط بين السبب والنتيجة ، وأحدهما حقيقي والثاني باطل . ونحن نسمي طريقة ربط العلة بالمعلول في عقل المتوحشين باسم الفتيشة[1] ولكن الفتيشة إنما هي فقط علم المتوحشين وهي تختلف عن العلم العصري في كونها لا تقوم على أي أساس من التنظيم أو التمحيص ، فهي لذلك خاطئة في الأعم الأغلب .

ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالأثر ، بينما حدث في أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور الفكرات الخاطئة ، ولكن هناك مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظمى للرجل البدائي ، كان يلتمس فيها الأسباب بإصرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية ولا من الوضوح بحيث يستطيع استبانته . ولشد ما كان يهمه أن يكون الصيد وفيراً . والسمك كثيراً سهل الصيد ، ولاشك أنه طالما جرب آلافا من التعاويذ والرقى والنذور وآمن بها ليحصل على هذه النتائج المرغوبة ، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت . وكثيراً ما كانت العدوى تنتشر ، ويموت الناس بها أو تضعف أجسامهم دون سبب ظاهر . فهذا الأمر أيضا لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي للتسرع الانفعالي كثيراً من الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التخمينات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو الحيوان أو الشيء أو يلتمس منهم المعونة . كانت لديه قابلية الطفل للخوف والذعر .

ولابد أنه حدث في زمن مبكر جداً من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول الأكبر سنا والأثبت جنانا ، والتي كانت تسهم في المخاوف وتسهم في التخيلات ، ولكنها أقوى قليلا من العقول الأخر ، قد تصدرت للنصح ووصف الوصفات وإصدار الأوامر . فراحوا يصرحون أن هذا أمر مشؤوم وذاك شيء محتوم ، وأن هذا بشير بخير وذاك نذير بشر . وكان الخبير بالفتيشة ، وأعني به الطبيب الساحر هو الكاهن الأول . وهو الذي يقدم النصائح ويفسر الاحلام ، ويحذر ويقوم بالتمازيم الجوفاء التي تجلب الحظ وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هي طقوس وشعائر ، كما أن الكاهن الأول كان يملي على الناس ما هو في الحقيقة علم عملي تحكمي

(١) الفتيشة وهي اعتقاد المتوحش أن كل شيء مادي تسكنه روح تقوم لمالك الشيء بالخدمات . (المترجم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لايزال علمنا ببدايات الزراعة والاستقرار فى العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل فى هذا السبيل إبان الخمسين عاماً الأخيرة شىء كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل مايسعنا قوله فى شىء من اليقين فى الوقت الحاضر ، أنه حدث فى مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثنى عشر ألفاً ، بينما الشعب الآزيلى يقطن فى جنوب أسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تنتقل شمـــالا وشرقا ، أن كان هناك فى مكان ما بشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادى المتوسط الكبير الذى تغمره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا عصراً بعـد عصر يستكشفون ويتعلمون شيئين هامين أهمية حيوية كبرى : ذلك أنهم شرعوا فى الزراعة وأخذوا يستأنسون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضا يصنعون أدوات من الحجر المصقول بالإضافة إلى الآلات المنحوتة التى ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والمنسوجات الخشنة النسج المصنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخاراً بدائى الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ، هى العصر الحجرى الحديث (النيوليثى) تمييزاً له من العصر الحجرى القديم (الباليوليثى) عصر الكرومانيين والشعب الجريمالدى والآزيليين ومن إليهم[1] ومالبث هذا الشعب شعب العصر الحجرى الحديث أن انتشر رويداً رويداً فى أصقاع العالم الأكثر دفئاً كما أن الفنون التى حذقها ، والنباتات والحيوانات التى تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتملك ، ولـكن بصورة تـكاد تفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافت

---

(١) ربما لاحظنا أن كلمة « باليوليثى » تطلق على الآلات النياندرتالية بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths ، ويسمى عصر ما قبل الإنسان « الحجرى القديم الأول » أما عصر الإنسان الحق الذى استعمل أحجاراً غير صقيلة فهو « الحجرى القديم الثانى » .

سنة ١٠,٠٠٠ ق . م . كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجرى الحديث .

وعمليات حرث الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، ربما بدت للعقل العصرى خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر ؟ ... ولكن الرجل البدائى الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية ، واضحة لديه على الإطلاق . لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافعة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تفصيلات خيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفتة . كان القمح ينمو بريا فى مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يدق حبوبه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يبذرها بزمن مديد فكأنه جنى قبل أن يبذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقا أنه ما من صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائى قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شىء . ولا مراء أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشيئين تستهوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارىء الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروسا دراســـة وافية فى ذلك السفر الخالد الموسوم بالغصن الذهبى « Golden Bough » الذى ألفه السير ج. ج. فريزر . ويجمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائى الطفولى الحالم صانع الأساطير ، ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج المنطقى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثنى عشرة ألفا إلى عشرين ألفا من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجرى الحديث حلت معه تضحية بشرية . ولم تكن التضحية بأى شخص خسيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة منتقاة ، وإن كان فى الأغلب الأعم شابا يعامل معاملة تنطوى على الإجلال العميق ، بل حتى على

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يعد ضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال المسنون العارفون ، ويقرها عرف العصور الموروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون فى البداية صعوبة كبيرة فى تحديد أنسب اللحظات للبذر . والقربان فى موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شىء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التى يذكرها « الآباء » فى العهد القديم إنما هى أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلى تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمريا لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمرى باقيا إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حقا من أن الكنيسة المسيحية لاتحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه فى الموعد السنوى الصحيح بل فى مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك أن أحداً من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعها فى تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوبا أو شمالا ، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطوره ومعبوداً أمراً لامحيص منه تقريبا عند الرجل البدائى .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن تدرك مبلغ الأهمية التى بلغها فى بكور أيام العالم الحجرى الحديث ، رجل المعرفة والخبرة ، الرجل الذى كان يعلم علم قربان الدم والنجوم .

أما الخوف من النجس والتدنس ، والطرق المستصوبة الموصوفة للتطهر ، فحدث عنها ولا حرج ، كمصدر آخر من مصادر القوة لذوى العلم النزر من الرجال والنساء . وذلك لأن الأمر لم يخل أبداً من ساحرات عدا السحرة ، ومن كاهنات فضلا عن الكهنة .

والكاهن الأول ليس فى الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيق . فعله على الجملة تجريبى ، كما أنه فى الأغلب من صنف رديء ؛ وكان يحتفظ به سراً مصوناً ، ويغار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لايغير جوهر الأمر ، وهو أن وظيفته الأولى هى « المعرفة » وأن استخدامها الأساسى لديه كان استخداما عمليا .

ومنذ اثنى عشر ألفا أو خمسة عشر ألفا من السنين ، وفى جميع أجزاء العالم القديم الدفيئة والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التى تعيش عيش العصر الحجرى الحديث فى الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات وتقاليدهم ، وبما لها من حقول مزروعة ، وما حصلت من تطور فى القرى والمدن الصغيرة المسورة . وترادفت العصور عصراً بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سمث وريفرز اسم « الثقافة الهليوليثية » (الشمسية الحجرية) على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هليوليثى » هذا خير مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة ، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافينا رجال العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التى نشأت فى مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية ، ظلت تنتشر عصراً بعد عصر ، متجهة شرقا ومتنقلة من جزيرة إلى جزيرة عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل ، وامتزجت بطرائق العيش الشديدة البدائية لدى المهاجرين شبه المغول (Mongoloids) المنحدرين إليها من الشمال .

وحيثما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجرى الشمسى (الهليوليثية) ، أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والعادات الغريبة . ومنها فكرات يبلغ من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحى العقلية . فهم كانوا يقيمون الأهرام والربى الضخمة ، وينشئون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ؛ ولعل الغرض منها كان تسهيل الرصد الفلكى الذى ينهض به الكهان ؛ وعرفوا التحنيط ، واتخذوا

وكثير من الأجناس البولينيزية [1] وشعب الماووري ، إلا أقسام تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية . وأنواعها الغربية أشد بياضا من الشرقية . على أن جيلا من الناس يدعوه الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردى ، ويقيم فى غابات أوربا الوسطى والغربية ، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء .

وثمة تفريع آخر كان يحدث فى أقاليم آسيا الشمالية الشرقية المنبسطة الأكثر براحا انفصل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمراء واتجه إلى تكوين طراز لنفسه عيونه أكثر انحرافا ، وعظام وجناته ناتئة ، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب المغولية . وبقيت فى جنوب إفريقيا وأستراليا وفى جزائر مدارية كثيرة بجنوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه الزنجى (النجريدى) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفعل منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الملونة التى تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعاً أن تكون خليطا من شعوب الشمال السمراء ومن طبقة أساسية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعا أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية ، وأنها تفترق ، وتمتزج ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب فى السماء . والأجناس البشرية لا تتفرع كالشجر فروعا لا تلتقى بعد ذلك أبداً . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أمر ينبغى ألا يغيب عن بالنا البتة فإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية . والناس يجنحون إلى استعمال كلمة مثل « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنه ، ويبنون عليها أشد أنواع التعليمات مخالفة للعقل والمنطق . فهم يتحدثون عن جنس « بريطانى » أو عن جنس « أوربى » : ولكن الأمم الأوربية كلها تقريباً خلائط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قاتمة وبيضاء ومغولية .

وكانت حقبة التطور الإنسانى المسماة بالعصر الحجرى الحديث (النيوليثى) هى التى

---

(١) بولينزيا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادى الجنوبى حول خط طول ١٨٠ وأشهرها هواى وفيجى وساموان .

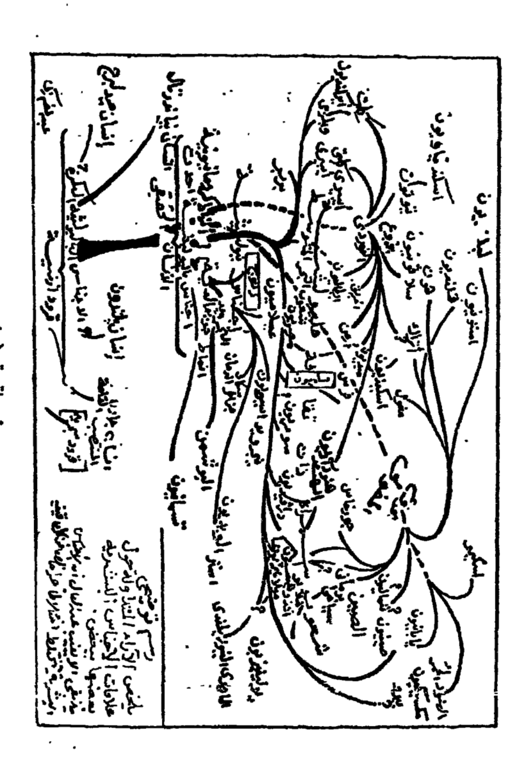
اتخذت فيها شعوب من الجنس المغولي طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريقة مضيق بهرنج ثم انتشروا جنوبا . فوجدوا في الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكي ، وفي الجنوب أسرابا كبيرة من الجاموس البرى (البيزون) . فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعيش بها حيوان الجليبتودون وهو نوع ضخم من الأرمادلو ، والميجاثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف [1] بشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل . والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثاني وكان عاجزاً قليل الحيلة على ضخامته.

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البتة عن مستوى حياة الصيد الترحلية للعصر الحجرى الحديث فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً ، وكان رأس ما في حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم . أما المكسيك ويوقطان وبيرو ، فكانت ظروفها توائم الزراعة المستقرة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق . م . مدنيات شائقة جداً ، تناظر مدنيات العالم القديم وإن خالفتها في الطراز . ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت ــ شأن الحضارة البدائية الأقدام منها كثيراً في العالم القديم ــ تطوراً عظيما في القرابين البشرية يتصل بعمليات موسم البذار والحصاد ؛ ولكن على حين أن هذه الفكرات الأساسية قد لطفت في النهاية بالعالم القديم كما سنرى وتعقدت ثم غطت عليها فكرات أخرى ، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة. وبديهى أن هذه الأقطار الأمريكية المتحضرة كانت بالضرورة أقطاراً متدينة يحكمها الكهنة ؛ وأن قادتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشريعة والتطير . . .

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فمعرفتهم بالسنين وحسابها كانت خيراً من معرفة البابليين الذين سنحدثك عنهم من فورنا . وكان لهم في يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة المايا Māya ، وهى من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأشدها إحكاما . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم المضبوطة المعقدة التي كانت الكهنة يبددون فيها ذكاءهم . وبلغ الفن في حضارة المايا ذروة مجده حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق.م.

---

(١) الرسيف Sloth : أحد أنواع كثيرة من الثدييات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة يوجد في غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضا حيوان الكسلان



خريطة رقم (٢)

وفن النحت عند هذا الشعب يذهل الشاهد المصرى بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحيره بغرابته المضحكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التى تخرج بالضرورة عن المجال الفكرى لذلك الشاهد .

وليس فى العالم القديم شىء يماثله تماما . وأدنى الأشياء شبهاً إليه ـ وهو شبه بعيد ـ يوجد فى الطراز القديم المهجور من النحاتات الهندية . فالريش يتنسج مع كل موضع منه ، والثعابين تنفتل فيه فى الداخل والخارج . وكثير من كتابات المايا تشبه صنفا معينا من الرسوم المتقنة التى يصنعها المجانين فى مستشفيات الأمراض العقلية بأوربا ، أكثر مما تشبه أى شىء آخر فى العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور فى اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلى للعالم القديم ، وكأنما تناول فكراته التواء مغاير وكأنه من ثم ليس البتة متزنا إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المنحرفة وبين القول بوجود الانحراف العقلى العام ، يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطاغير عادى . والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تريق الدماء أنهاراً ؛ فكانت تقدم فى كل عام آلافا من الضحايا البشرية . وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لايزال ينبض أهم مايشغل عقول وحياة هذه الكهانات الغريبة. فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب فى غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس فى هذه المجتمعات فهى قوية الشبه بالحياة العادية لأى مجتمع همجى آخر من الفلاحين . وقد برعوا فى صناعة الفخار والنسيج والأصباغ . ثم إن كتابة المايا لم تحفر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها. وتضم دور المتاحف فى أوربا وأمريكا كثيراً من المخطوطات المايوية المحيرة التى لم يحل من معمياتها فى الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشىء القليل . ونشأت فى بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بواسطة عقد تعقد فى الخيوط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالخيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أى قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوى على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنيات الأمريكية، وهى

« إمبراطورية » مدينة إريتش السومرية ، وهى أول ماذكر التاريخ من إمبراطوريات وكان إلهها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطانهما يمتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة فى البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويرى . كما أنها شىء سحيق إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجرى الحديث نفسه بأزمان سحيقة . والصور الأزيلية الصخرية التى أشرنا إليها آنفاتظهر بداية تلك العملة. فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية والأشكال الإنسانية فى معظمهامرسومةرسوما واضحة . على أن المصور لم يكن يهتم فى بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكتفى بتصوير الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو اثنين .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابةتقليديةمركزة بالصور . وما لبثت خدشات الحروف فى كتابة سومر التى كانت تكتب على الطين بعود أن أصبحت من البعد عما تمثله من صور بحيث لم يعد فى الإمكان تمييزها ، أما مصر التى كان الناس يكتبون فيها — على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردى(وهوأول ماعرف من أنواع الورق) . فقد بقيت فيهـا المشابهة بين الحروف وبين الصور التى نقلت عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسمارية أو الإسفينية أى المشابهة للمسمار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التى كانت تستعمل فى سومر، كانت تحدث خدوشا على شكل الوتد أو الإسفين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة . عندما استعملت الصور لاللدلالة على الشىء الذى تمثله بل على شىء مشابه له . ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم فى ألغاز أسماء الصور (Rebus[1]) ، وهى لعبة يحبها الاطفال . وإذا لترسم معسكراً بهخيام وجرس ، فيبتهج الأطفال حين يخمنون أن هذا يرمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell[2] كامبل) . واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراصة ، تكاد تماثل بعض لغات الهنود الحمر المعاصرة

---

(١) ألغاز أسمـاء الصور : تمثيل ملغز لأحـد الأسمـاء بصور فيها تورية تمثل أجزاء من الكلمة (المترجم) .

(٢) هنـا يجمع الأطفـال الإنجليز بين كلمتى خيم Camp وجرس Bell فتنتج لفظة : Campbell . (المترجم) .

وقد استجابت فى يسر لهذه الطريقة القطعية فى كتابة الكلمات المعبرة عن أفكار لا يستطاع نقلها بطريق الصور مباشرة . ومرت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيما بعد عندما تهيأ لشعوب أجنبية تتكون لغاتهـا من مقاطع بدرجة أقل ، أن يتعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها ـ أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التى تطورت فى النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر فى العالم بعد ذلك من أبجديات حقة ، مشتق من خليط من الكتابة السومرية المسمارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك فى الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها ، ولكن لم يحدث قط ببلاد الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية .

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً فى تطور الجماعات الإنسانية . فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهى التى هيأت السبيل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت فى الإمكان قيام وعى تاريخى متواصل . وبها أصبح فى إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خاتمهما أن يذهبا إلى أماكن بعيدة عن مجال بصره وصوته وأن يبقيا بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة فى بلاد سومر القديمة . وأن الملك أو النبيل أو التاجر ليتخذ خاتماً كثيراً ما يكون محفوراً حفراً فنيا جميلا ، وإنه ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصادق عليها . فكم اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ! ! ثم يجفف الطين بعد ذلك ويغدو مستديمـا . ذلك أن القارئ ينبغى له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان ما لا عديد له من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلى نسبيا . وإلى هـذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف المسترجعة من بطون الثرى .

ومنذ زمان سحيق جداً كان البرونز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة فى مصر وسومر جميعا ، فضلا عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة . ولسنا نشك البتة فى شدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القـــديم ظهوراً على مسرح التاريخ . عدا ما تفردتا به من وجود الحمير والماشية فى الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة بمدن المايا بأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم فى الرى والزراعة لا ينقطعون عنهما إلا أيام الحفلات الدينية . لم تكن لديهم نقود ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجاراتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضبانا من الذهب والفضة والأحجار الثمينة فى أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان المعبد متسلطا على حياة الناس ؛ والمعبد فى سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو فى مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفى سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأفخمها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق الكهنة ؛ وهو التجسيد الحى الممثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفى تلك الأيام لم تكن تحدث فى العالم إلا تغيرات قليلة ، فالناس يقضون أيامهم كادحين فى ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة . وقل أن هبط البلاد أجنبى أو غريب ، فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طعما ، وكان الكاهن يدبر شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم ، ويرصد النجوم ارتقابا لوقت البذار ويدرس النذر التى تتمخض عنها القرابين ويؤول ماتجىء به الأحلام من تحذيرات . وكان الناس يعملون ويعشقون ويموتون غير محرومين من أفاويق السعادة ، ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وغير عابئين بما يكنه لهم المستقبل . وكان الحاكم فى بعض الأحيان رحيما مترفقا . شأن ببى الثانى الذى ظل يحكم مصر تسعين عاما ، وكان طموحا فى أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنوداً ويرسلهم على دول المدن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا ، أو كان يسومهم العناء والكدح فى إقامة المبانى العظيمة . كذلك كان خوفو وخفرع ومنقرع الذين بنوا تلك النواويس الجبارة : أهرام الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدما ووزن ما به من حجر ٤٫٨٨٣٫٠٠٠ طن . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل فى الزوارق ، ودفعته إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشييده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمى .

الفصل السادس عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إبان القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق . م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادى النيل وحدهما ، ففيما أتيحت للناس إمكانيات الرى ومورد الطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتهما . وشرع شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن فى أعالى دجلة ؛ وكانت هناك فى وديان آسيا الصغرى وعلى شواطىء البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير فى طريقها إلى المدنية . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه فى الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الواقعة لها من بلاد الهند والصين . وكان فى أجزاء عديدة من أوربا كثرت بها البحيرات التى يعمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد فى مساكن بنيت على أعمدة فوق الماء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكنا فى مناطق العالم القديم التى تكبر عن هذه كثيراً منذ كانت البشرية (وأدواتها وعلمها على ما نعلم من نقص وعجز) لا تستطيع أن ترسى جذورها وتثبت أقدامها ، إذا كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت الغابات كثيفة ، أو كانت التربة حقة جدباء أو الفصول متقلبة عديمة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار فى ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تتهيأ هذه المستلزمات للانسان ، عاش جوالا متنقلا وقضى عمره صيادا يتبع صيده ، وراعياً يتعقب الكلأ الموسمى ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الراعى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (فى آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تعلموا أن يحجزوها فى بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الذئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراع البدائية تنمو بوجه خاص فى وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش مغايرة لهذه ، هى حياة الترحل ، وهى حياة تقضى فى حركة مستمرة ذهابا وجيئة من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف . وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأشجع فؤاداً من الزراع ؛ وهم أقل إنتاجاً للأولاد وأقل عددا ، ولم تكن لهم معابد مستديمة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لاينبغى للقارىء أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطوراً. فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة حياة أوفى وأ كمل من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أ كثر اعتمادا على نفسه؛ وأ كثر استقلالا . وكان القائد لديهم أ كثر أهمية منه فى المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يحتمل .

ولا شك أن نظرة المترحل إلى الحياة أرحب مجالا ، لتحركه فوق متسعات مترامية من الأرض . وهو لايفتأ يمس حدود هذه الأرض المستعمرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه الغريبة . ولم يكن له مفر من أن يدبر الخطط فى سبيل المرعى وأن يتفاهم فى شأنه مع القبائل المنافسة ومعرفته بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التى تقطن أرض الحراث ، وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية ويخترق المناطق الصخرية . ولعل علمه بالصناعات المعدنية كان أ كبر من علم الزراع . إذ يحتمل أن صهر البرونز بل والحديد أيضاً على أرجح التقديرات ــ كان من المكتشفات التى وصل إليها الرحل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامه قد وجدت فى أوربا الغربية على بعد عظيم من المدنيات الأولى .

وكان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وفخارهم كما أنهم كانوا يصنعون كثيراً من الأشياء المرغوبة . وبينما كان مذهبا الحياة هذان الزراعة والترحل يتمايزان أحدهما عن الآخر ، لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من النهب والاتجار . ولا شك أنه كان من الأمور المألوفة فى بلاد سومر بوجه خاص بما يكتنف جانبيها من صحراوات وأراض موسمية المناخ ، أن يخيم المترحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يتجروا ويسرقوا . وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم ، كما يفعل الأنجار (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأنجار ، لأن الدجاجة المنزلية ــ وهى فى الأصل دجاجة بأحراش هندية ــ لم يستأنسها الإنسان إلا حوالى ١٠٠٠ ق . م) . وأمم

ليجتلبون الزراع الأحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية . فإن كانوا بمبادلين جلبوا معهم الفراء . وإنهم ليحصلون مقابلها على الفخار والخرز والزجاج والثياب وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيقة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة. فهناك في الغابات النباتية بأوربا ، كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المكونة من قناصين ورعاة ، وهم جنس خسيس القدر . ولم تر الحضارات البدائية إلا النذر اليسير جداً من ذلك الجنس قبل ١٥٠٠ ق . م . وكانت تقيم في السهوب القصية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية منوعة ، هي الشعوب الهونية . وهي تستأنس الحصان ، وتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفاً وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات الروسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة ؛ ذلك أن قدراً عظيما من الروسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التي كان جدبها وجفافها آخذاً عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قاتم أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قطعانا من الغنم والمعز والحمير من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمة نيجريدية قوية وموطنهم جنوب إيران ، هم العيلاميون) — أول الرحل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متجرين ومغيرين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرأ جنانا ، أصبحوا غزاة فاتحين .

وفي قريب من ٢٧٥٠ ق . م ، كان قائد سامي عظيم هو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح سيداً للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان همجيا أميا وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية ، واتخذوا السومرية لغة للموظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد في قبضة العيلاميين ، جاء شعب سامي جديد ، هو العموريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . فاتخذوا من بابل عاصمة لهم — وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعالي النهر — وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى .

وقد رفع من شأنها وشد من تماسكها ملك عظيم اسمه حمورابي (حوالى ٢١٠٠ ق . م) وهو الذى سن أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

أما وادى النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة تعرضاً لغزوات الرحل ، ولكن حدث حوالى عهد حمورابي أن نجح الساميون فى غزو مصر وأقاموا أسرة جديدة من الفراعنة ، هم ملوك الهكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم قروناً عديدة . ولم يندمج هؤلاء الغزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب كان ينظر إليهم على الدوام نظرة العداء بوصف كونهم أجانب وبرابرة . وأخيراً طردتهم من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق . م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا فى بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجنسان بعضهما بعضا ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية فى لغتها وسماتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لابد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قربة منفوخة ، فى زمن لايقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلفط الفتحات يستخدم فى مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لاتزال تستخدم حتى الساعة فى إرلندة وويلز والاسكا ، حيث لاتبرح زوارق من جلد الفقمة تستخدم لعبور مضيق بهرنج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره فى تعاقب طبيعى .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة فى بناء السفن ، مثلما أن قصة الطوفان الذائعة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تمخر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسى منذ عام ٧٠٠٠ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملكا للصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلا سفناً للتجارة والقرصنة ـ ذلك أنا نفترض بغاية الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التى تغامر فيها هذه السفن الأولى بحاراً داخلية تهب عليها الريح فى اندفاعات فجائية ، أو تنقطع فى الغالب انقطاعا تاما أياما برمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافى ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدة الماخرة للمحيط إلا فى السنوات الأربعمئة الأخيرة ، وسفن العالم القديم إنما هى بالضرورة

سفن تجديف تلازم الشاطىء ، وتلوذ بالمرفأ عند أول بارقة للجو العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء للسفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب ، على صورة متجولين ورحل وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولا ثم البابلية الأولى . ونزعت هذه الشعوب نفسها فى الغرب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المرافىء على امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وصيداً ؛ فلم يأت عهد حمورابى فى بابل حتى كانوا قد انتشروا فى طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيرى ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطىء إفريقيا الشمالى . وسنزيدك — فيما بعد — بيانا عن قرطاجنة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آنفا سلسلة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

وينبغى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلا : ميسيناى ، وطروادة ؛ كما كان لهم فى كنوسوس بجزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية وتكشف لنا عن حضارتها إلا فى الخمسين سنة الأخيرة . وذلك أن آثار كنوسوس ارتبطت ارتباطاً بالفناء ، ومن يمن الطالع أنه لم تبن فى موضعها مدينة كانت من الكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فهي المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التي كاد النسيان يريم عليها .

وتاريخ كنوسوس يعادل في قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالي ٤٠٠٠ ق . م وبلغت الحضارة الكريتية أوج العظمة حوالي ٢٥٠٠ ق . م . أي بين عهدي سرجون الأول وحمورابي .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصراً عظيما للعاهل الكريتي وشعبه ، بل إنها لم تكن محصنة . فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين ، وعندما انحدر إليها في البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة ، هو الإغريق .

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس Minos ، شأن العاهل المصري الملقب بالفرعون ؛ وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجاري ، وبه الحمامات وما أشبهها من وسائل الترف التي لا نعرف لها ضريباً في أي طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك كان يقيم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابهة فريدة مصارعة الثيران التي لا تزال باقية في أسبانيا ؛ والمشابهة قائمة في الحالين في كل شيء حتى في ثياب مصارعي الثيران ؛ وثمة حفلات لألعاب الجمباز . أما ثياب النساء عندهم فهي عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فإنهن كن يرتدين المشدات والأثواب ذات الأهداب المدلاة . والكثير مما أنتجه هؤلاء الكريتيون من الفخار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والعاج والمعادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جمالا مدهشاً . وللقوم طريقة للكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هـــذه الحياة السعيدة المشرقة المدنة ما يقارب العشرين قرناً . فلو استعرضت كنوسوس وبابل حوالي ٢٠٠٠ ق . م لوجدتهما تعجان بأناس مثقفين ينعمون بوسائل الراحة ويعيشون في الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية ، ولديهم عبيد للمنازل الذين يقومون على خدمتهم والعبيد الصناع الذين يدرون عليهم الربح . فكم كانت الحياة في كنوسوس تبدو لعين هؤلاء الناس آمنة مطمئنة ، ومن فوقها الشمس بضيائها الباهر ومن حولها خليج البحر الزرقاء المترامية !! ومن

البديهى أن مصر كانت تبدو فى تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهى تحت حكم ملوكها الرعاة نصف الهمج ، وإذا كنا ممن يهتمون بالسياسة ، لم يفتنا أن نلحظ كم كانت الشعوب السامية تنتشر فى كل مكان : فهى تحكم مصر وتحكم بابل القصية ، وتبنى نينوى بأعالى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وتنشىء مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك أنه كان فى كنوسوس بعض العقول المفكرة المحبة للاستطلاع ، إذ تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريتى حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن ينشىء ضرباً ما من آلة الطيران لعلها طائرة شراعية ، ولكنها سقطت وهوت إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة فى كنوسوس والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أى سرى من الكريتيين يعيش فى ٢٥٠٠ ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفا أكثر منه نافعا — إذ لم يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد النيازك ، ولم يكن أحد قد استخلص الحديد بعد من خامه المعروف . وعندى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا العصرية التى يدخل الحديد فى كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان حيوانا أسطوريا تماما لدى سراة كريت ، فهو عندهم صنف من الحمار الراقى يعيش فى الأراضى الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وبديهى أن أهم موطن للحضارة لدى السرى الكريتى كان المنطقة الإيجية وآسيا الصغرى ، حيث كان الليديون والكاريون والطرواديون يعيشون عيشا كعيشة وربما يتكلمون لغات كلغته. وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون فى أسبانيا وشمال إفريقيا ، ولكن تلك الأقطار كانت تتراءى لعين خياله بلاداً سحيقة البعد . وكانت إيطاليا لا تزال أرضا موحشة تغطيها الغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإترسك (التوسكان) ذوو البشرة السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعله حدث ذات يوم أن هبط ذلك السرى الكريتى إلى الميناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شقرته وزرقة عينيه . ولعل هذا السرى حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطانة غير مفهومة . جاء هذا المخلوق من مكان ماوراء البحر الأسود ، وبدا كأنما هو متوحش منحط الثقافة . ولكنه كان فى الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من فورنا بالشىء الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة العجيبة التى تحدث بها هى التى قدر لها أن تتمايز فيما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية .ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هى كنوسوس فى أوج مجدها : ـ ذكية مغامرة مشرقة سعيدة . ولكن كارثة نزلت بها قرابة ١٤٠٠ ق ٠ م ، ولعلها ذهبت برغدها على حين بغتة ، فدمر قصر مينوس ولم تعمر أطلاله يد ولاأقام به أحد منذ تلك الساعة . ولسنا ندرى كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المحتفرين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبعثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار لزلزال عنيف مدمر . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هى التى دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق مابدأه الزلزال .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون البتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالى ١٦٠٠ ق . م، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي من البلاد. وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر، وهى فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التى لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً؛ وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل فى إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراعنة غزاة فاتحين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حصان القتال وعجلة القتال، التى جلبها الهكسوس معهم وسرعان ما بسطت مصر سلطانها فى آسيا حتى نهر الفرات فى عهد تحوتمس الثانى وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حضارتى النيل وأرض الجزيرة اللتين كانتا يوما منفصلتين إحداها عن الأخرى تماماً وكانت لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهى الأسر الثامنة عشرة التى من ملوكها تحوتمس الثانى وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هى حاتاسو، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثانى (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذى حكم سبعا وستين عاما، ــ رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء وفيما بين ذلك ألمت بمصر أدوار التدهور، إذ غزاها السوريون ثم غزاها الإثيوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهراً ، ثم ارتفع شأو الحيثيين بها فسورى دمشق إبان دور عزة قصير الأمد؛ وجاء أوان غزا فيه السوريون مصر، وترجح نجم الآشوريين فى نينوى بين الصعود والأفول؛ فتارة تكون المدينة مغزوة مهيضة؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل ويغيرون على مصر . والبراح الذى بين يدينا أضيق من

ان يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحات جيوش مصر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزدو بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن الحصان (الذى لم يكن يستخدم إلا فى الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدنيات القديمة .

ويظهر على المسرح فى النور الخافت المنبعث من ذلك الزمن السحيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشراتا ملك ميتانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية فى فى ذلك الأوان . فغزا تجلات بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسميه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضا من الشمال إلى بلاد الحضارة؛ إذ حصل عليه أولا الحيثيون أسلاف الأرمن وعنهم أخذه الآشوريون كما أن مغتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى سلح به جيوشه فكأن مملكة آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتدعنها لا لهزيمة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون. وتم لحفيد سنحريب للملك آشور بانيبال (الذى يعرف أيضا فى التاريخ باسمه الإغريقى ساردانابالوس) فتح مصر فعلا فى ٦٧٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطراً محتلا تحكمه أسرة إثيوبية . فكل الذى فعله ساردانابالوس هو أن أحل فاتحا محل آخر .

فلو أتيحت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ؛ الممتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتتقلص كما تتسل الأميبا تحت الميكروسكوب ، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين تجيء وتغدو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا لنجد فى غرب آسيا الصغرى دولا إيجية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها سارديس ومثل كاريا . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق ، هابطة من الشمال الشرقى والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية فى مناطق

تخومها الشمالية وتنزل بها النكبات . وكانوا جميعا يتكلمون ضروبا مختلفة من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ الميديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقي للبحر الأسود وبحر قزوين . وتخلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكيذيين (الأشقوذيين) والصرمانيين. ومن الشمال الشرقي أو الشمال الغربي انحدر الأرمنيون ، وجاء من شمال غربي ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكريون والفريجيون والقبائل الهللينية التي تسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للمدن ، سواء في ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعا شعوباً متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء نزعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا في الشرق إلا سكانا نازلين على التخوم وجيرانا مغيرين ، ولكنهم استولوا في الغرب على المدن وطردوا منها السكان الإيجيين المدنيين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم في مناطق تخرج عن منال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى في دلتا النيل لولا أن صدهم المصريون ؛ وبعضهم وهم الإترسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة في براري وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف في التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنزيدك في فصل تال بيانا عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الخشونة البالغة . وسنقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركات والهجرات التي حدثت في منطقة الحضارات القديمة ، والتي بدأت بدوامة التقدم التدريجي المتواصل لهؤلاء الآريين الهمج الهابطين من الغابات والبراري الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق . م .

وسنحدثك أيضا في فصل تال عن شعب سامي صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم في الظهور في قريب من نهاية هذه الفترة . ذلك أنهم أنتجوا « أدبا » أوتي أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من عصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهرى بأرض الجزيرة [العراق] ومصر إلا بعد ٦٠٠ ق . م . ولابد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق بل حتى تدمير كنوسوس ، قد بدا لكل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب نائية جداً . وكانت الأسر الحاكمة تذهب وتجيء فى هاتين الدولتين مهاد الحضارة ، على أن الحياة البشرية سارت فى مجراها الرئيسى ، وإن حلت بها ببطء على مر العصور زيادة طفيفة فى التهذيب والتعقيد . وأما مصر فكانت الآثار التى تكدست عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيراً بما أضيف إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص فى عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماما ! ويرجع معبدا الكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران المجنحة ذوات الرؤوس البشرية ، والحفر البارز الذى يمثل الملوك والعجلات وصيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق . م . ، كما أن هذه الفترة تشتمل أيضا على معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعا سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها نعلم أن حياة الموسرين وذوى النفوذ فى مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار فى أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة ؛ وكانت لهم أعياد وحفلات فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أكرمه بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رفيعو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكثرون من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيداً ، ولكن النزهة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفا فى كل من نهرى النيل والفرات . أما دابة الحمل

عندهم فهى الحمار؛ فى حين لم يستخدم الحصان إلا فى العربات الحربية والتأسيات الرسمية دون غيرها . وكان البغل لايزال شيئا جديداً ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل مصر بعد وإن عرفته أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبيعى أن الأوعية المصنوعة من الحديد كانت قليلة ؛ إذ أن النحاس والبرونز ظلا هما المعدنان المنتشران . وكانت الرقائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هى والصوف . ولكن لم يكن هناك حرير . وعرف الناس الزجاج وأضفوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت فى العادة صغيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم فى العدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالذهب وإن لم يضعوا النظارات فوق أنوفهم . .

وهناك فارق عجيب بين الحياة فى طيبة القديمة أو بابل وبينها فى العصور الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالمقايضة هى الأساس فى القـــدر الأعظم من الصفقات التجارية . وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة فى التبادل وجملا فى صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود بزمن مديد كان هناك أصحاب مصارف ، يدمغون أسماءهم والوزن على هذه الكتل من المعدن النفيس . وكان التاجر أو المسافر يحمل الأحجار الثمينة ليبيعها وينفق منها . وكان معظم الخدم والعمال عبيداً لايتناولون أجورهم نقداً بل عينا . ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائراً من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تاجا على مفرق العالم القديم ، لافتقد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا فإن الطاهى الفرنسى ما كان يجد مسرة كبيرة فى بابل . فإن هذين الصنفين وصلا من الشرق فى عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريبا .

وكذلك الديانة فقد ألم بها كـكل شىء آخر تهذيب عظيم . إذ اختفت القرابين البشرية مثلا منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستقراتهم فى إفريقيا ، اتهموا فيما بعد بالتضحية بالكائنات البشرية) . وجرت العادة كلما مات رئيس كبير فى الأيام الخالية أن يضحى بزوجاته وعبيده وأن تكسر الحراب والقسى عند قبره ، وذلك لكى لا يكون فى عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هى دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والخدم والماشية مع الميت ، وهى

نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حى لتلك الحياة الوادعة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت بالهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الكبيرة بهذين القطرين كليهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لايبدو أنها تقدمت أو ائتلفت ببلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا تزال بحاجة إلى علمائها لكى تضفى عليه الطابع العصرى وتنقيه من كثير مما يشوبه من أساطير . والراجح أن الصين كانت فى ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية فى الصين ، هى أسرة شانج ، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحلة الروابط من ملوك تابعين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين الموسمية . ولا تزال هناك إلى اليوم أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنعة مايجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغته إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

الفصل التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م، كانت أوربا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا الوسطى أدفأ مناخا على الأرجح، وأكثر مطراً وغابات مما هى الآن. وكانت تتجول فى هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من العنصر النوردى الأشقر الأزرق العيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد على مجرد فروع منوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين. ولعلهم لم يكونوا فى ذلك الوقت شعباً وفير العدد جداً، ولعل البابليين الذين كان حمورابى ينصحهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم. ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفا فى القدم والتثقيف، والتى كانت تذوق فى تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبى.

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاما جداً بالفعل فى تاريخ العالم. كانوا شعوب أحراش أو أراض قطعت منها الغابات؛ ولم يملكوا الحصان فى البداية وإن وجدت لديهم الماشية؛ فإذا هم تجولوا وضعوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران؛ وإذا استقروا زمنا ما فلعلهم كانوا يصنعون عشوشا من رفيع الغصون والطين. وإذا مات واحد من ذوى المكانة فيهم أحرقوا جثته؛ ولم يدفنوه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القاتمة تفعل. وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم فى أوان ثم ينشئون حولها رابية مستديرة. وهذه الروابى هى القبور المستديرة التى تنتشر فى جميع أرجاء أوربا الشمالية. ولم تكن الشعوب القاتمة السابقة لهم تحرق موتاها، بل تدفنها فى هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هى «القبور الطويلة Long barrows».

وكان الآريون يستنبتون القمح، ويحرثون الأرض بالثيران، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم؛ ذلك أنهم ما يكادون يحصدون حتى يرحلون. وقد ملكوا البرونز، ثم حصلوا على الحديد حوالى ١٥٠٠ ق. م. ولعلهم أول من اكتشفت صهر الحديد وما لبثوا فى زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن حصلوا

أيضاً على الحصان ـ الذى بدأوا باستخدامه فى أغراض الجر دون غيرها »، ولم تتمركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذى تمركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً . وكان كبارهم قادة فى ميدان الحرب أكثر منهم كهنة . ونظامهم الاجتماعى أرستقراطى وليس فيه ربوبية الملك ، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جداً فى تاريخهم يعترفون لعائلات بعينها بالزعامة والنبل .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن . وكانوا يعيشون فى تجوالهم البهيجة بما يقيمون من حفلات يسرفون فيها فى الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هم الشعراء بالغناء والتلاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشعراء سجل أدبهم الخالد ، وقد عاد استعمال اللغة للتلاوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيعة ممتازة ، كما لاشك أنه يعود إليه الفضل إلى حد ما ، فيما تلا ذلك من نمو اللغات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب آرى يبلور تاريخه الأسطورى فى تلاوات شعرية ، تختلف أسماؤها باختلاف الشعوب ، فهى تارة تسمى بالملاحم ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا .

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتمركز حول دور زعمائهم . فإن قاعة الرئيس التى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيراً ما كانت بناء خشبياً رحيباً جداً . ولاشك أنهم أعدوا بجوارها أكواخا للقطعان ومبانى ريفية فى مواضع منها متطرفة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هى المركز العام ، الذى إليه يذهب كل إنسان ليحضر الوليمة ، ويصغى إلى الشعراء ، ويشترك فى الألعاب والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل . وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فنومهم فى أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم « بالدوارات » الهندية . وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة فى كل شىء عدا الأسلحة والحلى والآلات ، وما أشبهها من الممتلكات الشخصية . وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها من أجل المصلحة العامة ؛ فى حين أن الغابات والأنهار هى والبرارى لا يسكنها أحد .

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح الكبيرة بأوربا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل

ذلك الشعب الذى نجـــده يضغط فى كل مكان على شعوب الحضارة الحجرية الشمسية (الهليوليثية) فى الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا ينحدرون إلى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا . ويتقدمون غرباً فى موجتين . وتسلح أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإرلنده بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذى صنع من قبل الآثار الحجرية العظيمة المسماة بكارناك فى بريتانى وستون هنج وآفبورى بانجلترا . وقد بلغوا إرلندة واسمهم الـكلت الجويدليون (Goidelic Celts) . أما الموجة الثانية لشعب وثيق القربى بهؤلاء ، ربمـا خالطته عناصر من أجناس أخرى ، فهى التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة الـكلت البريثونيين (Brithonic) وعنهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم .

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم بهؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب فى أسبانيا وتتصل لابشعب الباسك (الهليوليثى) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل وبالمستعمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضا . كما أن سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه هى الإيطاليون ، شرعت تتقدم فى شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى موحشة مكسوة بالغابات ، ولـكنها لم تمكن لهم الغلبة على طول الخط فإن روما تظهر فى التاريخ فى القرن الثامن ق . م ، مدينة تجارية على نهر التيبر يسكنها اللاتين الآريون ولـكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى ، وجدنا قبائل مماثلة تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب . فإن شعوبا آرية تتكلم السنسكريتية انحدرت من خلال الممرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م بزمن مديد . وهناك اتصلوا بحضارة بدائية سمراء ، هى الحضارة الدرافيدية ، وتعلموا منها الشيء الـكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق الـكتل الجبلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقا توغلا بعيداً عن المجال الحالى لمثل تلك الشعوب . ولا تزال بلاد التركستان الشرقية قبائل نوردية شقراء الشعور زرقاء العيون ، ولـكنها تتـكلم الآن بألسن مغولية .

وفيما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيثيين القدامى ،

وصبغوهم صبغة آرية قبل ١٠٠٠ ق . م ، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلا بوطأة أجناس همجية جديدة شديدة المراس فى القتال على التخوم الشمالية الشرقية ، وهى مجموعة من القبائل لاتبرح أسماء الإسكيذيين والميديين والفرس أبرز ما بقى من أسمائها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هى الممر الذى شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م . بعدة قرون على الانحدار جنوبا ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولا مجموعة من القبائل أبرزها الفرجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأيوليون والأيونيون والدوريون ، فما وافت ١٠٠٠ ق . م . حتى صارت الحضارة الإيجية القديمة فى خبر كان فى كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فمحيت من الوجود مدينتا « ميسيناى » و « تيرونز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يعفى على « كنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م . وذلك بعد أن استقروا فى جزيرتى كريت ورودس ، وشرعوا يؤسسون المستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على منوال المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فبينما كان « تجلات بلسر الثالث » و « سرجون الثانى » و « ساردانابالوس » يحكمون مملكة آشور ويقاتلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تتعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة فى إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م فما بعده بستة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب المغامرة ، وكيف ترامى بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره السامى منه والإيجى والمصرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذى نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمراً بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمن بعيد ، بل الحق إنه كفاح يستمر طيلة ما عقب ذلك من التاريخ ، بل لايزال مستعراً على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

وامبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث ، ومغتصب العرش سرجون الثانى . ولم يكن الإسم الأصلى لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذه لنفسه رغبة منه فى تملق البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للامبراطورية الأكادية ، الذى جاء قبل زمنه بألفى سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى فى الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة ربها الكبير « بعل مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة فى القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرقى كثيراً من تلك الأيام الهمجية التى كان فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف . وصار الفاتحون يحاولون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانبهم ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدية قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (ساردانا بالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن اضمحلت . فاستطاعت مصر طرد الغاصب بشىء من الجهد بزعامة فرعونها « أبسمتيك الأول » ، كما حاولت أن تشن حربا لفتح سوريا بقيادة « نخاو الثانى » وفى ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزاءهم إلا أضعف المقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو الكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين الهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفى ٦٠٦ ق. م. بالضبط (إذ أننا دخلنا الآن فى مرحلة التأريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور . وأنشئت فى الشمال إمبراطورية ميدية تحت حكم كيا كسارس

(سياخار) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقا إلى تخوم الهند . وإلى الجنوب من هذه ، وفى شكل هلال عظيم تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة ، هى الإمبراطورية البابلية الثانية ، التى ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم (وهو نبوخذنصر المذكور فى التوراة) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطوريتان فى سلام ردحا من الزمن ، وتزوج سياخار من ابنة نبوخذنصر .

وفى نفس الوقت كان نخاو الثانى يواصل فتوحاته فى سوريا دون مقاومة ، فهزم فى معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق . م يوشع ملك يهوذا وقتله . وهى قطر صغير سنحدثك عنه بالمزيد عما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا ليلتقى بمملكة آشورية منحلة ، بل بدولة بابلية ناهضة . وقد قاوم الكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذاً قويا . ودحر نخاو ورد على أعقابه إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق . م . مزدهرة ازدهاراً غير وطيد ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميدية الأقوى منها بأساً ، والأصلب عوداً فى الشمال . وفى غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار فى المدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً .

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكرى عظيم ، حتى وهى تحت حكم ملوك الآشوريين سيما ساردانابالوس ، وهذا الملك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماما فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التى كانت تستعمل فى الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية . وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه ، ولعلها أثمن ما فى العالم من الذخائر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل ، وهو نابونيداس ، ذوق أدبى أرهف أو يكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته ، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش ، خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش . بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوى على كثير من دلائل التفكك ، فحاول أن يبث فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة ، المحليين المختلفين ، وأقام بها المعابد لتلك الآلهة . وقد استعمل الرؤساء تلك


امبراطورية ليديا
كيليكيا
الاسكيذيون
الامبراطورية البابلية
كالديا
قبرص
خريطة
تبين العلاقة بين الامبراطورية
الميدية والامبراطورية البابلية
الثانية
في عهد الملك نبوخذ نصر العظيم

خريطة رقم (٣)

الطريقة بنجاح تام فيما تلى ذلك من الزمان ، ولكنها أثارت فى بابل غيرة كهنة بعل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر . فأخذوا يدبرون الخطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه فى شخص قورش الفارسى ، حاكم الإمبراطورية الميـــدية المجاورة . ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى فى شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلتها جنوده بلا قتال .

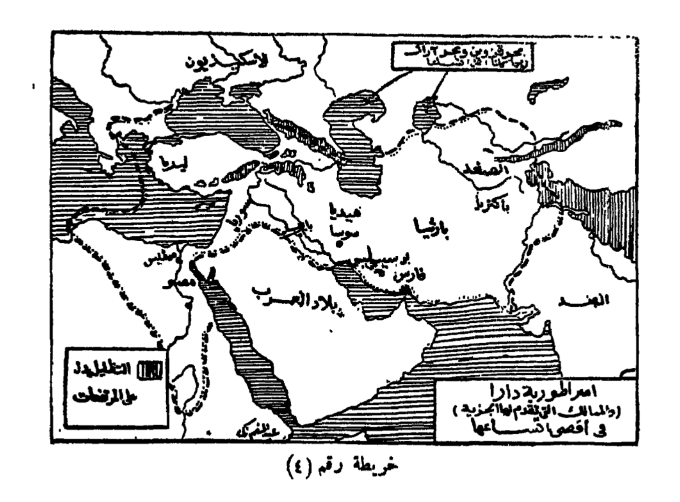
وتذكر التوراة أن ولى العهد بيلشاصر بن نابونيداس كان فى وليمة عندما ظهرت يد وكتبت هذه الـكلمات على الجدار بأحرف من نار : « منا ، منا ، تقيل ، وفرسين Mene, Mene' Tekel, Upharsin » ، وقد أولها النبي دانيال الذى استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن « منا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس [1] » . وربما كان كهنة بعل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط . وقتل بيلشاصر فى تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الامبراطورية البابلية والميدية . وأخضع قمبيز بن قورش مصر ، ثم جن قمبيز وقتل صدفة ، وخلفه على الفور دارا الميدى الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسبس أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة فى الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الامبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد فى بلاد الهند حتى نهر السند . وقد أصبح وجود مثل تلك الامبراطورية فى حيز الإمكان عند ذلك فى العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرصوف .

---

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .


امبراطورية دارا
(والممالك التي تقدم لها الجزية)
في أقصى اتساعها
ليديا
ميديا
بارثيا
باكتريا
الصغد
الهند
فارس
مصر
بلاد العرب

خريطة رقم (٤)

أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجمل (فى الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذى يحمل إذناً رسمياً بالسفر . وفضلا عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك فى استعمال النقود المسكوكة . التى سهلت التجارة والتعامل تسهيلا كبيراً . ولكن عاصمة تلك الامبراطورية الضخمة لم تعد بابل . وانقضت الأيام ولم يجن كهان بعل مردوخ من خيانتهم شيئاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقى لها شىء من أهميتها ، على حين صارت المدن الكبرى فى الإمبراطورية الجديدة هى برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هى العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالا بالية .

الفصل الحادي والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤتوا فى زمانهم من الأهميــة قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (چوديا Judea) قبل ١٠٠٠ ق . م . بزمن طويل ؛ وبعد ذلك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الـكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات المتغيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أنتجوا أدباً وتاريخاً عالميا ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير وكتب الحكمة والشعر والقصص والـكلم السياسية ،وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجح أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نخاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والـكلدان قتال حياة أو موت ؛ وبينا كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نخاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعند ما تمكن نبوخذنصر الـكبير الملك الـكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نخاو على عقبيه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك ضعاف يأتمرون بمشيئته فى أورشليم ولـكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أعمل الذبح فى موظفيه البابليين ، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت أمداً بعيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر فنهبت أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل (٥٣٨ ق ٠ م ٠) وعند ذلك جمعهم جميعا وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جـــديد وليعيدوا بناء أسوار أورشليم ومعبدها .

ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعبا متحضراً ولا متحداً . وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي مدنهم ووحدهم ، فعادوا إلى بلادهم شديدي اليقظة إلى أدبهم ، عادوا شعبا متأجج الوعي الذاتي مشربا بالنزعات السياسية .

ويلوح أن توراتهم لم تكن تحتوي في ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أي الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذي نعرفه جميعا . وفضلا عن ذلك كان لديهم فعلا ، وعلى صورة كتب منفصلة ، — كثير من الكتب الأخرى التي ألحقت منذ ذلك الحين هي وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلا أسفار التواريخ والمزامير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان ، التي تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لهـا نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودي بوجه أخص لا تبدأ حقا إلا بقصة إبراهيم فما تلاها .

وربما كان إبراهيم يعيش في نفس الوقت المبكر الذي عاش فيه حمورابي في بابل كان إبراهيم رجلا بدويا ساميا تعيش عشيرته على نظام الأبوة ، وعلى القارئ أن يرجع إلى سفر التكوين بحثا عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ وتقول رواية التوراة: إن رب أبراهام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن الغنية .

وبعد مقام طويل بمصر وبعد أربعين عاما من التجول في البرية بزعامة موسى ، يتزايد أبناء أبراهام فيصبحون شعبا مكونا من اثنى عشر سبطا ، ويغزون أرض كنعان من


بلاد العبرانيين
الطريق من فينيقية
إلى البحر الأحمر مخترقا فلسطين
صيدا
صور
يافا
أسدود
عسقلان
غزة
صحراء
ميل

خريطة رقم (٥)

الفيافى العربية فى الشرق . ولعلهم فعلوا ذلك فى زمن ما بين ١٦٠٠ ق . م . ١٣٠٠ ق . م . وليس فيما دونته مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلك القصة من غموض . ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحوا إلا منطقة التلول الداخلية فى أرض الميعاد ولم يزيدوا عليها شيئا . فإن الساحل فى ذلك الأوان لم يكن فى أيدى الكنعانيين ، بل فى أيدى قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استطاعت مدنهم غزة وجات وأشدود وعسقلان ويافا ، أن تصمد لهجوم العبرانيين ؛ وظل أسباط إبراهام أجيالا عديدة شعبا مغموراً يعيش فى منطقة التلال الخلفية مشغولا بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارىء فى سفر القضاة سجلا يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجده فى الأغلب سجلا من النكبات والإخفاقات التى دونت بصراحة .

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة — لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع — قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب ، ولكنهم عمدوا فى النهاية فى زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق . م . إلى انتخاب ملك هو شاءول ، ليكون لهم قائداً فى القتال ولكن قيادة شاءول لم تزد كثيراً على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين فى معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد ڤينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقا وفطانة . وبتولى داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهى تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التى يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوتى نصيباً كبيراً من الذكاء والقدرة على المغامرة . وكان يبغى أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقا آمنا عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل فى التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت فى ذلك الزمان فى حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية فى تلك الطريق ، ومهما يكن من شىء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها ، وفى مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسيم من التجارة

يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوتى سليمان من اليسار والأبهة ما لم يره شعبه من قبل . حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بتزويج ابنته منه .

بيد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فسليمان لم يكن وهو فى أوج مجده إلا ملكا صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التى توردها أسفار الملوك والأيام. وهم يقولون إن الكبرياء القومى لدى كتاب متأخرين هو الذى دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها . بيد أنك إذا أنعمت النظر فى قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التى تخيل إليك عند أول قراءة .

فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان ، لوجدنا أن فى الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحى ، وأما عرباته الألف والأربعمائة فإنها ستكف عن بعث الإكبار فى نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتنضم إلى الجيش الآشورى . وواضح مما تقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك فى المظاهر وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالى من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فمات حيرام ، وانقطع عون صور الذى كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى تعركهما على التوالى سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهى قصة نكبات وتحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية . هى قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج . حتى إذا وافت ٧٢١ ق . م محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما . وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها فى ٦٠٤ ق . م ماحل بإسرائيل كما أسلفنا . وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فما تلاها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة الصدق تتفق مع كل ماعلمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر وآشور وبابل إبان القرن المنصرم.

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بعضه إلى بعض وطور تقاليده ونماها. ذلك أن القوم الذين آبوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً يختلف اختلافاً عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسوراً. فإنهم تعلموا الحضارة.

وظهرت إبان تطورهم الخلقي الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دوراً عظيماً جداً في تاريخهم، وهي طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء، الذين ينبغي لنا الآن أن نوجه إليهم إهتمامنا. ويؤذن الأنبياء بظهور قوى جديدة جديرة بالملاحظة في التطور المطرد للجماعة البشرية .

الفصل الثانى والعشرون

كهان وأنبياء فى بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من النكبات التى كتب للشعوب السامية أن تقاسيها . ومن قبل ذلك كان العالم المتحضر بأكمله يلوح فى القرن السابع ق . م كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التى كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم فى أيدى الساميين . فإن صور وصيدا مدينتا الساحل الفينيقى الأصليتان الكبيرتان قد نثرتا المستعمرات التى كبرت فى النهاية حتى فاقت أمها حجما فى أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التى أسست قبل ٨٠٠ ق . م . تزايد عدد سكانها حتى أربى على المليون . وظلت أعظم مدن العالم ردحا من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسى . ولعلها بلغت جزائر ماديرا . وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً . وحدث فى زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال فى ذلك الحين غارقة فى الهمجية . لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يعيدون بناء مدنية جديدة على أنقاض تلك التى دمروها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » فى آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية . ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن فى ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستغدو فى كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتتة كل مشتت . ففى كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التى كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين لشعب سومر . بيد أن العرب البدو لم يغزهم البتة سادة آريون .

ولم يتماسك من جميع هؤلاء الساميين المتحضرين الذين هزموا وأخضعوا فى إبان تلك القرون الخمسة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتماسك منهم ولم يستمسك بتقاليده القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعنى به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسى ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أدبهم ذلك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم فى بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هى التى صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تنطوى دفتاها على فكرات بعينها ، تخالف فكرات من حولهم من الشعوب ، وهى فكرات شديدة التنبيه للأذهان شديدة الدعم والتثبيت للأنفس ، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون المحن والمغامرة والاضطهاد .

وأول هذه الفكرات اليهودية وأبرزها ، هى اعتقادهم بأن إلههم خفى مستتر وبعيد ، إله غير مرئى يعيش فى معبد لم تصنعه يد ، وهو رب الخير والبر فى أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش فى معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ، ولى ذلك الرب على الفور . ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش فى السماء ، ساميا متعاليا على الكهنة والقرابين . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله أبراهام ، قد اصطفاهم له شعبا مختارا ، ليسترجعوا أورشليم ويجعلوها حاضرة البر فى العالم . فهم إذن شعب ممابه إلى الملاشعوره بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذى ملأ جوانب نفوسهم جميعا يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر فى بابل .

أفعجيب إذن أن تهفو إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين ومن إليهم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ — وهم أقوام يتحدثون بلسان واحد تقريبا ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام فى عضويتها ووعدها ولاسيما بعد أن تمرغوا فى مهاوى الهزيمة والذلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وصيدا وقرطاجنة والمدن الفينيقية الأسبانية ؛ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم وبمثل تلك الطريقة الفجائية عينها لا فى أورشليم وحدها بل وفى أسبانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفى الشرق حيثما وضع الفينيقيون أقدامهم ، وكانت

الرابطة التي تربطهم جميعا هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الإسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك بزمن مديد ، عندما شرع السومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئا جديداً في هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعبا بلا ملك ، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد (إذ أن أورشليم نفسها ـ كما سنحدثك ـ قد قضى عليها في سنة ٧٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن يجمعهم — على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم — إلا قوة الكلام المسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سليمان لم يكن يتبدى على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعب صغيراً يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حصافة الكاهن وتقوده مطامع الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي عنه نتحدث ، وأعني به « النبي » كان موجوداً آنفا ، كما يستطيع القارىء أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تزاحم المصائب على رأس العبرانيين المتقسمين على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟ !

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فالنبي حزقيال مثلا كان من الكهنة ، وكان النبي عاموس يلبس رداء الرعاة المصنوع من جلد الماعز ، بيد أنهم يشتركون جميعا في شيء واحد : هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا لرب البر وأنهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرون دون ترخيص من ذوي السلطان ودون تكريس مقدس كالكهان . أما طريقة تعبيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : « الآن جاءتني كلمة الرب » . كانوا يخوضون في السياسية إلى أقصى حد . ولطالما حرضوا الناس على مصر ، « تلك القصبة المهشمة » على حد تعبيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نعوا على طبقة الكهان تراخيهم ، كما نددوا بآثام الملوك الصارخة . ووجه نفر منهم

عنايته إلى ماقد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعى » . فقالوا إن الأغنياء « يسحقون وجوه الفقراء سحقا » ، كما أن المترفين يستنفدون خبز الأطفال ؛ وأن الموسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم فى أبهتهم ورذائلهم ؛ وأن هــذا يغيض إلى « ياهواه » رب « أبراهام » الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التنديدات العنيفة تدون وتصان وتدرس . وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحا دينية جديدة . فباعدت بين الرجل العادى وبين الـكاهن والمعبد والبلاط والملك ، ووضعته وجها لوجه أمام حكم البر . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التى ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من روائع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد فى كتب الأنبياء الشىء الـكثير من البغضاء ، والشىء الـكثير من التحيز والتحامل ، والشىء الـكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى المؤلفات التى تسطرها الدعاية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى زمن الأسر البابلى هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية الحر ضد القرابين الخرافية (الفتيشية[1]) ومختلف أنواع الولاء الاستعبادى التى ظلت حتى ذلك الحين قيداً يغل جنسنا البشرى .

---

(١) الفتيشية : كل شىء ينظر إليه بتوقير لايقوم على منطق أو عقل . وهى فى الأصل الاعتقاد أن لـكل شىء روحا تنفع وتضر . [المترجم] .

الفصل الثالث والعشرون

الإغريق

فى نفس الوقت الذى كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا المنقسمتان على نفسيهما تكابدان التدمير ونقل السكان بعد عهد سليمان (الذى حكم على الأرجح حوالى ٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودى يطور تقاليده وينميها إبان الأسر البابلى ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر فى العقل الإنسانى ، هى التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون فى الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدى للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنسانى على المغامرة الفكرية بطريقة وروح جديدتين .

والقبائل الإغريقية ـ كما سبق أن ألمعنا ـ فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ، انحدر إلى المدن والجزائر الإيجية قبل ١٠٠٠ ق . م ببضعة قرون . والراجح أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذى راح فيه تحوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفرات الذى استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك فى تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود فى بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هى التى أحرقت كنوسوس ، ولكن ليس بين الأساطير الاغريقية ما يتغنى بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصا تتحدث عن مينوس ، وقصر « اللابيرانت » ، وعن مهارة بعض الصناع الكريتيين .

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد نقلوا عن أيام شعبهم الهمجية الأولى ملحمتين عظيمتين :

(١) الإلياذة : التى تحدثنا كيف أن عصبة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى ، واستولت عليها وانتهبتها .

(ب) والأوديسيا : وهى قصة مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان الملحمتان فى زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جداً . وكانتا تنسبان فيما سلف إلى شاعر ضرير اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هذا الشاعر حقا؟ وهل ألف هاتين الملحمتين أو اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ ..

الواقع أن هذا موضوع يلذ العلماء أن يعرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هذه المنازعات . وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا الملحمتين فى القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكا مشاعاً لهم جميعاً وصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتمنحهم شعوراً بالزمالة ضد البرابرة[1] . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولا ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم فى مثل عليا مشتركة من الشجاعة والسلوك .

والملاحم تظهر لنا الإغريق فى صورة الشعب الفطرى الذى لايعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذى لم يسكن المدن بعد ، ويلوح أنهم كانوا يسكنون فى البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال المدن الإيجية التى دمروها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنهم بالأسوار ، وينقلون فكرة المعابد عن الشعب الذى غزوه .

وقد ألمعنا آنفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

---

(١) البرابرة اصطلاحا هم من عدا اليونانيين من الشعوب [المترجم]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على العبد . كما أنهم شرعوا يتجرون وينشئون المستقرات بكل مكان . فما وافى القرن السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت فى أودية بلاد الإغريق وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيجية التى سبقتها ؛ ومن أهمها أثينا واسبارطة وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . وانتثرت المستعمرات الإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفى إيطاليا وصقلية . وكان (كعب) الحذاء الإيطالى ومقدمه يسميان ماجناجريكيا (بلاد اليونان الكبرى) . كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

والأقطار المكونة من سهول عظيمة أو التى تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كالفرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبى من إيطاليا (الماجناجريكيا) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع ينزع صوب التفرق لا الاتحاد . وعندما ظهر اليونان فى التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصغيرة التى لايبدو عليها أى أثر للائتلاف . وكانوا يتباينون فى كل شىء حتى فى الجنس . فمن تلك الدويلات ماتألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أوالدورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطاً من اليونان ومن سلالات جنس البحر المتوسط السابق لليونان ؛ ومنها مافيه مواطنون أحرار من اليونان الخلص يتسلطون عليها وعلى سكانها المقهورين المستعبدين شأن « الهيلوطيين » فى أسبارطة . ومنها ماصارت فيه العائلات الآرية القديمة المتزعمة ، طبقة أرستقراطية منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين ؛ بينما تولى الحكم ببعضها الآخر ملوك منتخبون بل حتى وراثيون ، على حين كان فى بعضها مغتصبون للعرش أو طغاة .

والظروف الجغرافية التى جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيما بينها ، هى التى عادت عليها أيضاً بصغر الحجم . فإن أعظم دولها حجماً أصغر من كثير

من المقاطعات الإنجليزية ، وإنا لفى ريب من أن سكان أى مدينة من مدنهم زاد فى يوم من الأيام عن ثلث المليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفا . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع المصلحة والتعاطف ولكن لم تنشأ ثمة أية وحدة وائتلاف . ولما تزايدت التجارة راحت المدن تنشىء بينها العصبيات وتعقد المحالفات ، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجعلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما الملاحم وعادة المساهمة كل أربع سنوات فى المباريات الرياضية التى كانت تقام فى أولمبيا ، على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والمنازعات ، وإن خفف شيئا مما تتسم به الحروب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما بمضى الوقت شعورهم بأن لهم إرثا مشتركا ، وتزايد عدد الدول المشتركة فى الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل سمح بدخولها لمتبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإبيروس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد أثناء القرنين السابع والسادس ق . م . وتختلف حياتهم الاجتماعية فى كثير من النواحى الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجة ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد فخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التى كانت موجودة فى مدن العالم القديم ، والتى كانت مستودع المعرفة كلها ، ومختزن الفكرات ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدسى يحيط به بلاط محكم التنظيم . والوقع أن نظامهم كان بالأحرى أرستقراطياً له عائلات متزعمة تقف إحداها للأخرى بالمرصاد وتلزمها الجادة . وحتى النظم التى يسمونها بالديموقراطيات لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية ولكل مواطن حر أن يشترك فى الشئون العامة بنصيب ، ومن حقه حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطيا ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطنا حراً .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتنا العصرية التى لكل إنسان فيها صوت . فإن كثيراً من تلك الديموقراطيات كانت تحتوى على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والمتقاء ومن إليهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشئون العامة .

وعلى وجه العموم كانت مقاليد الأمور ببلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملوكهم وطغاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحظيان فى ظلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها فى أى من المدنيات القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك « الشخصية الفردية » والمبادأة والابتكار الشخصى اللذين ينعم بهما المتجولون الرحل فى أراضى الأحراش الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينما هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف الشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من الكهنة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع ، أو تسلية الملوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والغطرسة . فإنا نجد فعلا فى القرن السادس ق . م (بينما كان أشعيا لا يزال يتنبأ فى بابل) رجالا مثل « طاليس » و « أنا كسماندر المليطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيسوس ، وهم قوم ممن نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التى لا تصدر عن إعمال فكر ، أو تنطوى على التملص . وسنزيدك عما قليل بيانا عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريقى إلى هذا الكون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، ويلفتون إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبى الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن ننوه بعظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد في تاريخ البشر . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وحدهم أول من جد في طلب الأفكار الخالصة النفاذة حول هــذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح « أشعيا » يسمو بالتنبؤ اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا — كما سنحدثك فيما بعد — كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كونفشيوس » ولاوتسى (لاهوتسى) ببلاد الصين . فكأن العقل الإنسانى من أثينا حتى المحيط المادى كان فى حركة ونشاط دائبين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الاغريق والفرس

بينما كان الإغريق فى المدن القائمة ببلادهم وجنوبى إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكرى الحر ، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين فى بابل وأورشليم يخلقون ضميراً حراً ، استولى شعبان-آريان مخاطران : الميديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعا فى تكوين إمبراطورية ضخمة هى الإمبراطورية الفارسية ، التى كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا فى عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقيين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع قمبيز مصر ، كما لم يلبث دارا الأول الميدى ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق . م) أن وجد نفسه عاهلا للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رسله يجوبون الطرق بمراسيمه على الخيل من الدردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان أوربا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بأسبانيا لم تستظل « السلم الفارسى »[1] ؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام ، ولم يجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب الروسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأشقوذيون (الإسكيذيون) الذين كانوا دائمى الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعا بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة القائمة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

---

(١) السلم الفارسى : السلم الذى تقوم بصيانته دولة فارس بالمناطق التى يرفرف عليها علمها . [المترجم]

فأما سائر السكان فكانوا على ماهم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة ، وكل ما جد فى الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة والمالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشأنهما فى الماضى الميناءان العظيمان على البحر المتوسط ، كما أن السفن السامية ظلت تمخر عباب البحار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركا يجتمع فيه مصلحتهم وتعاطفهم ، ويتمثل فى التقاليد والكتب المنزلة العبرانية . وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة فى تلك الإمبراطورية ، وهو الجنس الإغريق . وتلفت الساميون فاذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر ، فضلا عن أن ذكاءهم الفياض البعيد عن الهوى جعل منهم موظفين نافعين غير متحيزين .

وكان الإسكيذيون هم السبب الذى من أجله غزا دار الأول أوربا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب الروسيا موطن الفرسان الإسكيذيين . فعبر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر بجسر من الزوارق وأوغل شمالا . فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان فى معظم شأنه قوة راجلة من المشاة ، على حين راح الإسكيذيون — وهم من الخيالة — يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه ، فيقطعون عنه المدد ، ويهلكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه فى أية معركة فاصلة . واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مزريا شائنا .

عاد دارا بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشا فى تراقيا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لدارا . ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها الفتن ، وانجذب إغريق أوربا إلى حومة النزاع ، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوربا ولما كان الأسطول الفينيقى رهن إشارته تسنى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر فى ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسى على أثينا . وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من موانى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، وأنزلت الحملة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينا . وهناك لقيهم الأثينيون وهزموهم شر هزيمة .

وفى تلك اللحظة الحرجة حدث شىء خارق . فقد كانت إسبرطة ألد منافس لأثينا ببلاد الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة تلتمس العون ، فأرسلت إليها رسولا

عداء سريعا ، يتوسل إلى الإسبرطيين أن لا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا العداء (وهو النموذج التالى لنظرائه من عدائى ماراتون) أكثر من مئة ميل من أرض وعرة فى أقل من يومين . وهب الإسبرطيون لنصرة إخوانهم فى سرعة وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإسبرطية أثينا بعد ثلاثة أيام ، لم تجد شيئا تعمله إلا أن تشهد ساحة المعركة وجثث جنود دارا المندحرين . هذا إلى أن الأسطول الفارسى كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسى على بلاد الإغريق .

على أن ماحدث بعد ذلك كان أشدوأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره فى ماراتون بقليل ، وظل ابنه وخلفه أجزرسيس ، أربع سنوات يجهز جيشا عظيما ليسحق به الإغريق . وجمع الذعر كلمة الإغريق إلى حين . إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشا فى ضخامة جيش اجزرسيس . ولكنه كان جمعا هائلا مكونا من عناصر متنافرة. فعبر الدردنيل فى ٤٨٠ ق . م بجسر من الزوارق ؛ وكلما تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لايقل عنه تخلطا يحمل المؤن . وهناك عند مضيق « ترموبيلاى » وقفت قوة صغيرةمكونة من ١٤٠٠ رجلا بقيادةليونيداس الإسبرطى تقاوم هذا الجحفل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أبيدت بأكملها بعد قتال أبدت فيه ما ليس له نظير من البطولة ؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الخسائر التى أنزلوها بالفرس كانت فادحة ، وأطبق جيش اجزرسيس على طيبة[1] وأثينا كسير الروح . وخضعت طيبة وكتبت شروط التسليم . وتخلى الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت فى قبضة الفاتحين ، ولكن النصر عاد فحالفهم رغم كل الظروف المضادة ، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريقى أخذ يهاجم الأسطول الفارسى فى خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه. ووجد اجزرسيس أنه وجيشه العرمرم قد صارا محرومين من المؤن ، فخانته شجاعته ؛ وتراجع الى آسيا بنصف جيشه ، تاركا النصف الآخر لكى يهزم فى بلاتيا(٤٧٩ق.م). وفى نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسى ويدمرونها عند ميكالى بآسيا الصغرى .

---

(١) طيبة : مدينة إغريقية ــ نرجو أن لايخلط القارىء بينها وبين سميتها الطيبة بصعيد مصر [المترجم]

لقد زال كل خطر فارسى . وباتت معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعا بتفصيل عظيم وفى شىء كثير من الجمال الجذاب فى أول كتاب تاريخى مدون ، وهو تاريخ هيرودوت : ولد هيرودوت حوالى ٤٨٤ ق . م فى مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فجعل يزور بابل ومصر التماسا للتفاصيل المضبوطة وللشاهدات الصحيحة . وهوت فارس منذ معركة ميكالى فى بحر من الفوضى والخلاف على العرش : فاغتيل اجزرسيس فى ٤٦٥ ق . م ، وشبت الثورات فى مصر وسوريا وبلاد الميديين فقضت على النظام الذى استتب أمداً وجيزاً على يد تلك المملكة الجبارة ، وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب مما قد نسميه اليوم باسم الدعاية ــ فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت ليجعل من أرستاجوراس إحدى الشخصيات المذكورة فى كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا فى القتال ، وأنتم من جهة أخرى بلغتم اليوم أقصى المهارة فى الحرب .. وليس ثم شعب آخر فى العالم يملك مايملكون ؛ من ذهب وفضة وبرنز وثياب موشاة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقا .. »

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الاغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق فى صراع على السطوة والعزة استيأست فيه كل من أثينا واسبرطة ودويلات أخرى (وهى حرب البيلوبونيز ٤٣١ – ٤٠٤ ق ٠ م) وأنه حدث فى ٣٣٨ ق ٠ م أن أصبح المقدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن الفكر الإغريقى وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفن فيهم سمت فى تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظائم الأعمال نبراسا تستهدى به البشرية على كر التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس المفكر والمركز الأساسى لذلك النشاط العقلى . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ – ٤٢٨ ق ٠ م) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذى نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذى أنزله بها الفرس . والآثار الجميلة التى لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بناءها من الناحية الفكرية أيضا . فلم يكتف بركليس بأن يجمع حوله المعمارية والمثالين وحدهما ، بل حشد أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والمعلمين . وفى عهده جاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس (٤٣٨ ق ٠ م) كما جاء أناجزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف علمى للشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرفعة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهنية دفعة ظلت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام ببلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يلوح أن تلبد الأفق السياسى بالغيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان الناس لا تثبيطها .

وقبل عهد بركليس بزمن طويل كان جو الحرية العجيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يضفى أهمية كبرى على المهارة فى المناقشة والجدال. إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً للملك ولا كاهن، بل كان بيد جمعيات الشعب أو الزعماء. ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار فى الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة. ونشأت طبقة من المعلمين، هم السفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون. بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام. وكان من الطبيعى جداً أن يؤدى نشاط هؤلاء السفسطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل. وعندما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقد قدير للجدل الردىء — ولا تنسى أن الشيء الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلا من النوع الردىء. واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكياء. وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق.م)، فحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أثينا فى ذلك الزمان، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائما على الرغم من تنفيذ الحكم فيه. وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته.

وكان أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق.م) من أعظم هؤلاء الشبان، فشرع من فوره يعلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية. وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين:

(ا) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه

(ب) البحث فى النظم السياسية

وهو أول من كتب كتابا فى اليوتوبيا (الطوبى)، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه؛ وذلك أمر ينم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضريب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف المألوف ولا يكاد يقلب فيهما فكرا أو يحسهما بسؤال واحد. قال أفلاطون للانسانية بصريح العبارة:

« إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التى منها تقاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمتين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبحثاً وتكتشفوا بالدراسة كنهه . فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة . » ولاشك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة والمغامرة ، وأنه لم يتغلغل بعد بصورة عامة فى فطنة جنسنا البشرى ولابد لها من تشربه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » ، وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذى لم يتمه فهو كتاب « القوانين » ، وهو يرسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) مماثلة لتلك.

وجاء أرسطو الذى كان تلميذاً لأفلاطون فواصل بعد وفاة أستاذه تقدم مناهج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم فى الليسيوم . وفد أرسططاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً لبلاط العاهل المقدونى . وقضى أرسططاليس بعض الزمن معلما للاسكندر ابن الملك الذى قدر له أن ينجز أعمالا عظيمة جدا سنتكلم عنها قريبا . وقد أدت جهود أرسطو فى مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازما له مدة ألف وخمسمائة من السنين أو تزيد ، أى حتى عاد رجال العلم فى العصور الوسطى إلى تناول المسائل العتيقة من جديد . لم ينشىء أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) . ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى مصائره ؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لابد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحيحة المحققة أعظم كثيراً مما يملك. ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التى نسميها اليوم باسم « العلم » . فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق . وهو أبو التاريخ الطبيعى . وهو المؤسس لعلم السياسة . وقام تلاميذ فى الليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض . . .

فنحن نجد هنا وفى القرن الرابع ق . م قوماذوى تفكير عصرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيه بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشاكل الحياة بطريقة منظمة ونقادة ، وهنا أيضا يهمل تماما كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة ، كما تلغى جميع المحظورات (التابوهات) والمخاوف والقيود ، التى ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان . لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المنظم ، إن الذهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثا من الغابات الشمالية ، قد ألقى بنفسه فى صميم خفايا المعبد وسمح لضوء النهار بالنفاذ إلى غياباتها .

الفصل السادس والعشرون

إمبراطورية الاسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق.م وفى نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجياً ، وهى قطر يقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض صلات القربى والمشابهة . وكان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريقى ، وكثيرا ما اشترك المتبارون المقدونيون فى الألعاب الأولمبية . وفى ٣٥٩ ق.م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جداً هو فيليب المقدونى . وقد عاش فيليب شطراً من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رهينة؛ وتلقى تعليما إغريقياً بحتاً ، ولعله كان ملماً بآراء هيرودوت ، التى طورها ونماها الفيلسوف إيزوقراطيس ، والتى تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريق -إذا اتحدت كلمتها- بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه . فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت أثناءها العجلة التى تقوم بالهجوم ، هى العامل الحاسم فى المعارك ، وذلك عدا الجنود المشاة المتراصة فى القتال . وكان الفرسان يقاتلون أيضا ولكن بوصفهم سربا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون فى كتلة كثيفة متراصة تراصاً شديداً ، هى الفيلق المقدونى ، كما درب وجهاء قومه الراكبة (وهم الفرسان أو الرفاق) على القتال فى تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الخيالة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الخيالة أهم الحركات فى معظم معاركه ومعارك ابنه الإسكندر . فكان الفيلق المقدونى يصد مشاة العدو على حين كانت الخيالة تجتاح فرسان العدو فى الجناحين ثم تنثال على جانب مشاته ومؤخرتهم . وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقيه الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق . م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبذا أخذ حلم هيرودوت يؤتى ثماره فى آخر الأمر ، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الاغريقية فعين فيليب قائداً عاما لاتحاد مقدونى إغريقى ضد فارس؛ وفى ٣٣٦ ق . م عبرت فرقة الحرس الأمامى البحر إلى آسيا لتبدأ هـــذه المغامرة التى طال التفكير فيها ، ولـكن الملك لم يلحق البتة ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يعتقده بعضهم بتحريض من زوجته الملكة أوليمپياس أم الاسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالغيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

بيد أن فيليب عنى عناية فائقة بتربية ولده ، فلم يكتف بأن اتخذ من أرسططاليس أعظم فلاسفة عصره معلما للغلام الصغير ، بل أشرك الصبي أيضاً فى آرائه ودربه تدريبا عسكريا تاما ، فجعل الاسكندر قائداً للخيالة فى معركة خيرونيا آنفة الذكر وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره ، وبذا تسنى لذلك الشاب الذى لم يزد عمره على العشرين يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالمغامرة الفارسية بنجاح .

ولـكنه قضى سنتين كاملتين فى تثبيت أقدامه فى مقدونيا وبلاد الإغريق قضاها فى إخماد ما شب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا فى ٣٣٤ ق . م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً فى معركة جرانيكوس ، واستولى على عدد من المدن فى آسيا الصغرى ؛ لزم الاسكندر ساحل البحر ، وكان من الضرورى عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كلما تقـدم فى السير وأن يترك بها الحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبذا كانت لهم السيادة البحرية . فلو أنه ترك وراءه ميناء معاديا دون حامية تحرسه ، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجعته . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق . م) بجمع هائل مختلط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش الهائل — شأن جيش إجزرسيس الذى عبر الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف — جمعاً من المجندين غير متناسق ولا مترابط ، يبهظه حشد كبير من موظفى البلاط فضلا عن حريم دارا وكثير ممن يتعقبون للعسكرات التماساً للرزق ، وسلمت صيدا للاسكندر ، ولـكن صور قاومت بعناد ، وأخيراً فتحت تلك المدينة الـكبيرة عنوة وانتهبت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضا عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق . م دخل الفاتح مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتى الاسكندرونة بالشام والاسكندرية بمصر بموقعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصبحان غير قادرتين على التمرد عليه . وإلى هذين الرفأين تحولت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يختفى من التاريخ على حين بغتة فينيقيو الحوض الغربى للبحر المتوسط — وبنفس الطريقة الفجائية يظهر يهود الاسكندرية والمدن التجارية الأخرى التى شيدها الإسكندر .

وفى ٣٣١ ق. م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله تحتمس ورمسيس ونخاو . بيد أنه سار بطريق صور . وعند أربيلا (إربل) بالقرب من أنقاض نينوى التى كانت قد عفى عليها آنذاك النسيان ، التقى بدارا فى معركة حاسمة . وباءت هجمة العجلات الفارسية بالفشل ، وحمل الخيالة المقدونيون على ذلك الجيش العظيم المختلط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة الغير مرة أخرى ، بل فر شمالا إلى إقليم الميديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل ، وكانت لاتزال بلد ثريا هاما ، ثم إلى سوسا (سوس) وبرسيبوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيها الخمور ثم أمر فى أعقابه بحرق قصر دارا ملك الملوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميدانا عسكريا لعرض جيشه على الأنظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الامبراطورية الفارسية ، متجها بادىء الأمر نحو الشمال . وتعقب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يلفظ فى عربته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شعبه . وكان لايزال على قيد الحياة عندما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية .

وجاء الإسكندر فوجده قد مات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل فى جبال التركستان الغربية ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التى أسسها) وكابول وممر خيبر ، والتحم فى معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندى اسمه بوروس ، وهنا التقت الجنود المقدونية بالفيلة لأول مرة ودحرتها . وانتهى به الأمر أن ابتنى لنفسه سفناً انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاد سيراً على الأقدام بحذاء ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية فى ٣٢٤ ق . م بعد غيبة دامت ست سنوات . وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وشد ما بين أجزائها من روابط ، فحاول أن يفوز

بمحبة رعاياه الجدد ، بأن اتخذ ثياب العاهل الفارسى وتاجه ، فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقى منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات ؛ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب . » على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذى أعد عدته . إذ انتابته حمى بعد وليمة شراب أقامها فى بابل فمات فى ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض . وقبض سلوقوس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس؛ واستولى على مصر قائد آخر هو بطليوس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس. أما بقية الإمبراطورية فإنها ارزحت فى غمرات الفوضى وعــــدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدى مجموعة متعاقبة من المغامرين المحليين . وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تتسع مجالا وتزداد حدة. حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هى قوة الجمهورية الرومانية ، التى جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعا فى فى إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

الفصل السابع والعشرون

متحف الاسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنانين وموظفين وجنوداً مرتزقة ، ينتشرون في معظم الممتلكات الفارسية . وقد حدث أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفاة جزرسيس ، أن فئة من مرتزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندي لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون (زينوفون) ولهذا القائد كتاب أسماه «تقهقر العشرة الآلاف» وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد أثناء توليه القيادة — يصف عودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الأسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق ولغتهم وطرائقهم وثقافتهم في أرجاء العالم القديم فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع . وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقاً .

ظلت أثينا قرونا عديدة محتفظة بتفوقها كمركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أي أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط الفكري في العالم مالبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهي المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدوني بطليوس قد أصبح فرعونا على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لغته الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للاسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً في دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة واقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتابا عن حملات الإسكندر ، لم يعثر عليه لسوء الحظ .

وكان الاسكندر قد رصد مبالغ طائلة من المال للانفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليوس الأول كان أول من حبس على العلم منحاً وهبات مستديمة . فأقام بالاسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذي خصص بصفة رسمية لربات الفنون Muses وانقضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التي تجرى أثناءها بالاسكندرية

ممتازة الجودة . وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلماء الطليعة ، من ألمع نجومها إقليدس وإراتو ستنيز الذى قاس حجم الأرض ووصل فى تقدير قطرها إلى نتيجة تقل عن قطرها الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى ألف فى «القطاعات المخروطية» وهيبارخوس الذى رسم أول خريطة للسماء وصنف أقدم فهرس للنجوم، وهيرون مخترع أول آلة بخارية . وجاء أرشميدس من سيراقوزه إلى الإسكندرية ابتغاء الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالمتحف . وكان هيروفيلوس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم أثناءه بطليموس الأول والثانى ، وتأججت فيه للمعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضريباً حتى القرن السادس عشر الميلادى . بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تعمر طويلا . وربما اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهافى أن المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذى يعين جميع أساتذتها ومساعديهم ويدفع لهم أجورهم . ولم يك فى ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالمة تمصرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان كهنة مصر والتطورات الدينية المصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجرى من عمل ، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خنق روح البحث والتقصى خنقاً تاما . لذلك لم ينتج المتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة متوخيا فى ذلك روحا عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشىء مكتبة الاسكندرية لتكون داراً موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع للكتب ، بل كانت أيضاً مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب وبيعها . فقد جرد حشد كبير من النساخ للعمل المتواصل مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فاننا نجد فى هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المحددة للحركة

الفكرية التى نعيش فيها اليوم؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة. فإنشاء هذا المتحف وهذه المكتبة يعد إيذانا ببدء إحدى الحقب العظيمة فى تاريخ العالم. فهى البداية الحقة للتاريخ الحديث.

وكان يعترض طريق البحث العلمى ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة. منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التى تفصل الفيلسوف — وهو سيد مهذب — عن التاجر والصانع. كان صناع الزجاج والمعادن فى تلك الأيام كثيرى العدد، ولكن لم يكن بينهم وبين المفكرين أى اتصال عقلى. فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الخرز والقوارير وغيرها ألوانا، بيد أنه لم يصنع البتة قنينة فلورنسية ولا عدسة من العدسات. وليس يبدو أن الزجاج الصافى لقى منه اهتماما. وكان صناع المعادن يصنعون الأسلحة والجوهرات، ولكن أحدا منهم لم يصنع أبداً ميزانا كماويا. وفى نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل فى ترفع حول الذرات وطبيعة الأشياء، ولم تكن لهم خبرة عملية بالميناء ولا الأصباغ ولا أشربة توليد الحب إلى غير ذلك. لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية. ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم سنحت فرصتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء. ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية، فإنها لم تستعمل قط فى رفع الماء أو فى دفع قارب أو فى عمل أى شىء نافع. وقل أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا فى مضمار الطب، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفزه ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحدثه تلك التطبيقات من هزة فى النفوس. لذا لم يكن هناك شىء يدعو إلى الاستمرار فى العمل عندما ولى بطليموس الأول والثانى وزال أثر حبهما للاستطلاع. ولذلك أيضاً دونت مستكشفات المتحف فى مخطوطات خفية غامضة، ولم تصل قط إلى الناس كافة، حتى بعث حب الاستطلاع العلمى فى عصر النهضة.

ولم تنتج المكتبة — من ناحية أخرى — أية تحسينات فى صناعة الكتب. ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينة الخرق ورقا له حجوم معروفة. ذلك أن الورق اختراع صينى لم يصل إلى العالم الغربى إلا فى القرن التاسع الميلادى. وأما المواد الوحيدة المستعملة به فى صنع الكتب فهى الرق وملحقات (شقائق) قصب البردى الموصولة حروفها بعضها ببعض. وكانت هذه الشقائق تجعل فى صورة ملفات. من أعسر الأمور فتحها ولفها للاطلاع عليها، كما أنها متعبة جدا لكل باحث شاء الرجوع إليها.

تلك هى الموانع التى حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذى الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة فى العالم ، منذ زمن سحيق لعله العصر الحجرى القديم ؟ فقد وجدت الأختام فى بلاد سومر العتيقة ، بيد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تنطوى على تقدم لم يكن بد من أن يلق المقاومة من نقابات العمال رعاية لصالح النساخين المستخدمين فى صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتبا وفيرة ولكنها ليست بالرخيصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتا بين سكان العالم القديم إلا فى مستوى الطبقة الموسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكرى لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطليوس الأول والثانى . كان مثلها كمثل نور فى مصباح معتم يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشعلة فى الداخل وهاجة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فإنها سارت على طرائقها القديمة غير دارية أنه قد بذرت بذرة المعرفة العلمية التى ستحدث فيه انقلابا تاما فى يوم من الأيام . وسرعان ماغشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الدينى وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومرت على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذى غطى على البذرة التى بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تنبت . وما هى إلا بضع قرون حتى غدت تلك البذرة دوحة المعرفة الفارعة وسدرة الأفكار الخالصة التى تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الاسكندرية هى المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكرى فى القرن الثالث ق.م. فإن بين الحطام المتداعية المتخلفة عن إمبراطورية الاسكندر القصيرة الأمد ، مدنا أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلا مدينة سيراقوزه الاغريقية بصقلية ، التى ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى، التى كان لها هى أيضا مكتبة عظيمة . بيد أن هذا العالم الهلينى الوقاد الذكاء أصيب آنذاك بغارات أهل الشمال . فإن همجا نورديين جددا هم «الغاليون» ، كانوا يسيرون فى نفس الطرق التى اخترقها يوما ما أسلاف الإغريق والفرجيين والمقدونيين . كانوا يغيرون ويحطمون ويدمرون . وجاء فى أعقاب الغاليين شعب فاتح جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربى من مملكة دارا

والاسكندر المالية . كانوا قوما ذوى كفاءة واقتدار ، ولكنهم محرومون من نعمة الخيال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العلم والفن . وثمة غزاة جدد كانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربى وبلاد الهند من اتصال ، وكان هؤلاء هم الأشغانيون (البارثيون) ، وهم أرهاط من رماة القسى الراكبين ، فعاملوا إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإغريقية الفارسية فى القرن الثالث ق . م نفس المعاملة التى عاملها بها الميديون والفرس فى القرن السابع والسادس . وكان هنالك عندئذ أقوام آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقى ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا نورديين ولا ناطقين بالآرية ، بل كانوا ذوى جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة مغولية ، على أننا سنزيدك بهم بيانا فى فصل تال .

الفصل الثامن والعشرون

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحـــدثك عن معلم عظيم أوشك أن يحـدث انقلابا ثوريا فى فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينيـة . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا ، الذى كان يعلم تلاميذه فى بنارس بالهند فى نفس الوقت الذى كان أشعيا يتنبأ فيه بين اليهود فى بابل ، والذى كان هيراقليتوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون فى العالم فى وقت معا فى القرن السادس ق . م . دون أن يدرى أحد منهم بوجود الآخرين .

•

والحق إن هذا القرن السادس ق . م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة . ففى كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هـذه الحالة تفشت فى بلاد الصين أيضاً كما سندلى إليك فيما بعد . وفى كل مكان ، كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرابين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا ونفاذا . وكأنما الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضا جدا . ففى زمن ما لعله يقارب عام ٢٠٠٠ ق.م، هبط الهنـد من الشمال الغربى شعب ناطق بالآرية ، إما فى غزوة واحدة أو فى سلسلة متعاقبة من الغزوات ، ، فاستطاع أن ينشر لغته وتقاليده فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذى يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السنسكريتى . فوجدوا فى إقليم السند والكنج شعبا أسمر أرقى حضارة وأضعف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التى تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنـه بمعزل . حتى إذا مرت الأيام أصبح ماضى الهند مرئيا للمؤرخ على غشاوة تغشيه ، إذا بالمجتمع الهندى مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لاتؤاكل بعضها بعضا ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطا حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبقى إلى طوائف يستمر

أمد التاريخ كله . وهـذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والمغولية البسيطة السهلة التزاوج ، فهم فى الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيذاتا جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم مقاطعة صغيرة على منحدرات الهملايا . فتزوج وهو فى التاسعة عشرة من ابنة عم له جميـلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول فى عالمه المشمس المكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز المغمورة بالمياه وفيما هو ينعم بتلك الحياة حل به تذمر عظيم . كان ذلك هو شعور التعاسة الذى يحسه العقل الممتاز الذى يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التى يحياها لم تكن هى الحياة الحقة ، وأنه كان فى عطلة ــ دامت أكثر مما ينبغى .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والفناء ، وبأن جميع ألوان السعادة غير مأمونة وغير مرضيـة ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد المتجولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يتبعون فى عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطرا طويلا من وقتهم فى التأمل والحوار الدينى ، وكان المفروض أنهم يتغلغلون وراء أعمق مافى الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة فى احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفـكر فى هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بكر أبنائه . فقال جوتاما « وتلك رابطة أخرى لا مفر من فصمها » .

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالا بميلاد هذه الصلة الجديدة ، ولـكن جوتاما استيقظ فى موهن الليل والألم الروحى العظيم يلذع فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار فى منزله » فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التى لا هدف لها ، فتسلل إلى باب غرفة زوجته ، فرآها على نور قنديل زيت صغير وهى ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عناقا يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل ، ولـكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيراً ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع وامتطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار فى تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته، وترجل على ضفة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبة المتهدلة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيرة حتى التقى — الوقت — برجل فى أسمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية أصبح حراً فى متابعة بحثه وراء الحكمة . واتجه جنوبا إلى مثوى للنساك والمعلمين يقوم على طنف (١) بين التلال بجبال الهندهيا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء فى منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شفويا بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما ضليعاً بكل علوم ماوراء الطبيعة فى عصره . غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالحلول التى قدمت إليه .

والعقل الهندى ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هـذه الفكرات فى بوتقة الاختبار ، فانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات ، وطار صيته : « كرنين جرس عظيم معلق فى قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجتلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وجيئة ، محاولا أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظريه سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فألقى الرعب فى أفئدة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أية حقيقة هى العقل الجيد التغذية فى جسم سليم . وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر . فهجره تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس فى حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجول بمفرده ...

والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة ، فإنه يتقدم فى سبيل الفوز خطوة فى إثر خطوة ، دون أن يدرك إلا قليلا قدر المكاسب التى أحرز ، وإذا هو يدرك نصره

---

(١) الطنف : ما نتأ من الجبل .

ويحققه على حين بغتة مع إحساس بالاستنارة الفاجئة . وهذا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه فى ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به . فلاح له أنه يروى الحياة نقية واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليله فى تفكير عميق ؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد فى البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فشادوا لأنفسهم فى حديقة الغزلان الملكية ببنارس أكواخا وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية فى تعاليمه هى السؤال الذى وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس . وهو سؤال يختلف اختلافا كبيراً فى النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والموجه نحو العالم الخارجى — حب الاستطلاع الذى كان طاليس وهيراقليتوس يحاولان به تفهم مشاكل الكون ، كما يختلف كثيراً عما يعادل ذلك من نسيان الذات يتجلى فى صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أواخر الأنبياء يفرضونه فى العقل العبرانى فرضاً .

فالمعلم الهندى لم ينس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها . وعلم الناس أن كل مايقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . فحتى يخضع المرء تلهفاته الشخصية ، فحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلهف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشراهة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانيها الرغبة فى الخلود الشخصى والأنانى ، وثالثها التهافت على النجاح الشخصى وحب الدنيا والشح وما إليه . ولابد من التغلب على أنواع هـــذه الرغبات التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « النرفانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك أنه مذهب خفى جداً وميتافيزيقى ، وهو لا يكاد يدانى فى سهولة الفهم وصية الفلسفة الإغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الوصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان عملها يعلو - كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالا مباشراً . فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصى يزول حتى داخل المذهب الفساد والخلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يقم أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب . ولم تكد تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائماً قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مدهشة جداً .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت « النرفانا » أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بهـا من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئا من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمان » ، وهو الطريق الآرى أو النبيل فى الحياة . وهذا « الطريق » ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية على نسيان الذات .

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما ، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة ، أول التعاليم البسيطة القائلة بأن أعلى درجات الخير للانسان هي في إخضاع النفس ، — لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم . ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم .

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الاسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقاتل ملكها « بوروس » على ضفاف نهر السند . ويروى مؤرخو الاغريق أن شخصا اسمه شاندراجوبتا موريا وفد على معسكر الاسكندر حاول أن يقنعه بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا ، ولم يستطع الاسكندر أن يفعل ذلك لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول ، ثم تمكن شاندرا جوبتا فيما بعد (٣٢١ق.م) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الاغريق . فأسس إمبراطورية في شمال الهند ، وسرعان ما تسنى له في (٣٠٣ ق . م) أن يهاجم ممتلكات سلوقوس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الاغريقي ، وبسط ابنه رقعة هذه الامبراطورية الجديدة ، ووجد حفيده « آسوكا » — وهو العاهل الذى نتكلم عنه الآن — نفسه في ٢٦٤ ق . م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس .

وكان آسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده ، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية . فغزا كالينجا (٢٥٥ ق . م) ، وهى إقليم على ساحل مدراس الشرقي ، وأوتى النصر في عملياته الحربية ، ولكن بلغ من اشمئزازه من قساوة الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها ونبذها فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا . وزهدت فيها نفسه

تماما . وتبنى مذهب البوذية السلمى ، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا فى ميادين الدين .

وكان حكمه الذى دام ثمانية وعشرين عاما من أزهى فترات الهدوء الجميلة فى تاريخ البشرية المضطرب . فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند ، وزرع الأشجار للتظليل . وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربى فيها الأعشاب الطبية . وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاضعة . واتخذ العدة اللازمة لتعليم النساء . وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يبعثهم على نقد المؤلفات الدينية المتكدسة لديهم نقدا أحسن وأقوى أثراً . ذلك أن المفاسد والخزعبلات سرعان ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك المعلم الهندى العظيم . وانطلقت البعوث الدينية من لدن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والاسكندرية .

ذلكم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقا لعصره بزمن بعيد جداً . ومن أسف أنه لم يخلف من ورائه أميرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، فما تكد تنقضى مئة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبثت بها أيدى التمزق والانحلال ، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية ، وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة . فراحوا يقوضون على التدريج نفوذ البوذية فى البلاد . واستردت الآلهة القديمة البشعة سلطانها ، هى والعقائد الهندوكية التى لا اعداد لها . وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عدداً كبيراً من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيداً عن سلطان نظام الطوائف — حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ، وهى بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

الفصل الثلاثون

كونفوشيوس ولاهوتسى

بقى علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتسى (لاوتسى) ، اللذان كانا يعيشان فى ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية ، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن فى كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين فى عهودها الأولى . ولا يزال الغموض يغشى إلى اليوم ذلك التاريخ الباكر ، وإنا لنشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار ببلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأً جديداً راجين أن يعطوا الثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوربا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية فى وديان الأنهار العظيمة منذ زمن سحيق جداً متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (المليوليثية) الأولية . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اتسمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تتركز حول المعابد التى كان الكهنة والملوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية للوسمية . ولابد أن الحياة فى هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جدا بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فعلا قرابين إنسانية ، لقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ . كما أن ضربا من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م بعهد بعيد .

وكما أن الحضارات البدائية فى أوربا وآسيا الصغرى كانت فى كفاح مع مترحلة الصحراء ورحل الشمال ، فكذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المماثلة

لغة وطرائق عيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهون والمغول والترك والتتار كانوا يتغيرون وينقسمون ثم يعودون فيتحدون ، على نفس الشاكلة التى كانت الشعوب الآرية فى شمال أوربا ووسط آسيا ، تتغير بها وتختلف فى الاسم دون الجوهر. وقد ملكت هذه الشعوب المغولية المترحلة الحصان قبل الشعوب النوردية ، ولعلهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلطاى بعد ١٠٠٠ ق.م بزمن ما وكما حدث فى بلاد الغرب ، فإن هؤلاء المترحلين الشرقيين كان تتكون بينهم الفنية بعد الفنية ضرب من الوحدة السياسية ، ويصبحون غزاة وسادة ، وباعثين للحيوية فى هذا الإقليم المستقر المتحضر أو ذاك .

ومن المحتمل جداً أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأى حال ، شأنها فى ذلك شأن الحضارات فى أوربا وآسيا الغربية التى لم تكن نوردية ولا سامية . ومن الجائز جداً أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سمراء ، كما كانت مماثلة فى طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والدرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ مسجل للصين قد حدثت قبله فتوح كثيرة ، واختلاط بين الأجناس .

ومهما يكن الأمر فإنا نجد أنه لما وافت ١٧٥٠ ق.م ، كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء مفكك المرى ، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير محددة تقريباً ، لإمبراطور كاهن واحد : هو « ابن السماء الكاهن الأعظم » . وانتهى حكم أسرة « شانج » فى ١١٢٥ ق.م ، وخلفتها أسرة « تشاو » ، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر امتدت حتى عهد آسوكا بالهند ، والبطالمة بمصر وأخذت الصين تتمزق وتتحطم على التدريج أثناء حكم أسرة « تشاو » الطويل . وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات ؛ وقطع الحكام المحليون الجزية وأصبحوا مستقلين . ويقول أحد ثقات الصينيين إن البلاد كان بها فى القرن السادس ق.م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريبا . وهذا العصر هو الذى يسميه الصينيون فى سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

على أن عصر الفوضى كان ملآنا بالنشوء وشيء كثير من النشاط الفكرى ، ووجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المتحضر . وسنجد عندما نزداد علما بتاريخ الصين أن تلك البلاد كانت لها هى الأخرى مدن قامت بأدوار كالتى لعبتها ميليتوس (مليطة)

وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإنا سنلازم الإيجاز والغموض فى الوقت الحاضر فى حديثنا عن فترة الانقسام الصينى هذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفى لصوغ قصة متماسكة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نشأ فى اليهودية المحطمة المأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ فى الصين المختلة النظام الفلاسفة والمعلمون فى ذلك الأوان . وفى كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بعثت أحسن العقول إلى العمل الناشط . كان كونفوشيوس رجلا أرستقراطى الأصل تولى بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهنا ألمت به حالة شديدة المماثلة للنزعة العقلية الإغريقية ، فأقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحزنه كثيراً ما يغشى الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاختط لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بفكراته فى التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يعثر قط على ذلك الأمير ؛ أجل إنه وجد أميراً ، ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت فى النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليونانى أفلاطون كان يبحث هو أيضا عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان مستشاراً للطاغية ديونيسيوس الذى كان يحكم سيراقوزه بصقلية .

مات كونفوشيوس محطم الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذنى أستاذاً له ، وها قد حانت منيتى » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سنى شيخوخته وتحطم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم فى تكوين الشعب الصينى ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والضربان الآخران هما تعليما بوذا ولاهوتسى

ويتلخص مذهب كونفوشيوس فى طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطى ، فإنه شغل بسلوك الشخص انشغال جوتاما بالسلام الراجع إلى نسيان النفس ، وانشغال الإغريقى بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كان أعظم المعلمين الكبار اهتماما بالشئون العامة ؛ وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتعاساته ؛ لأنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه فى إيجاد عالم نبيل ؛ لذا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ؛ وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد المهذب الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى الذى وجده يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والغموض والتحايل من مذهب كونفوشيوس . وقد شغل لاهوتسى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية . والظاهر أنه كان يدعو دعوة الرواقيين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى ألغاز . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتغشتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجا على المألوف .

وحدث فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت فكرات السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستاراً سابلا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية (التى تنسب نفسها إلى حد كبير إلى لاهوتسى) ، كما نجدهما اليوم ببلاد الصين ، ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرابين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلا إن لم تكن كذلك فكراً وموضوعاً كديانات القرابين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهبا محدوداً وواضحا ومستقيم المنهج ، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشويهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يخترقه نهر هوانج هو كونفوشيا فى فكره وروحه ؛ وغدت الصين الجنوبية التى يخترقها نهر اليانج تسى كيانج ، تاوية المذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شجر بالصين بين هاتين النزعتين نزعة الشمال ونزعة الجنوب ، أى بين بيكين ونانكين (فيما عقب ذلك من أيام) ، بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموظفين ، وبين الجنوب المتشكك المائل إلى الفنون والتراخى والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها فى القرن السادس ق.م وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها التعس وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد فى تلك الأيام ثلاثة دول تدين بتبعية اسمية للامبراطور ، هى « تسى » و « تسئن » وهما دولتان شماليتان ، « تشوئو » التى كانت دولة عسكرية ميالة إلى العدوان فى وادى اليانج‌تسى . وأخيراً كونت تسى حلفا مع تسئن ، وأخضعتا تشو ئو وفرضتا فى البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسئن أن صارت هى الغالبة . وانتهى الأمر فى زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسئن على أوجبة القربان التى لإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية . ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج تى (الذى أصبح ملكا ٢٤٦ ق . م . وإمبراطوراً فى ٢٢٠ ق . م) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان شى هوانج‌تى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاما قضاها ملكا وإمبراطوراً . ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والاقتدار ببداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون المغيرين من الصحارى الشمالية أشد القتال ، كما أنه بدأ ذلك العمل الهائل ، وأعنى به سور الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم .

الفصل الحادي والثلاثون

ظهور روما

على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقاصى الهند. وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفيئة الخصيبة بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرابينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والكاهن والحاكم.

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائماً هم أولئك الشعوب السمراء الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها المترحلة من أقاليم الحشائش الموسمية والهجيرات الموسمية ، ففرضوا خصائصهم بل حق لغتهم أحياناً على الحضارة البدائية. وحدث التفاعل بين الطرفين . فإنهم أخضعوها ونبهوها ، وحفزتهم هى بدورها إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهناك شيئا آخر.

أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين ، وأخيراً النورديين من الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خمائر الحفز والتنبيه ؛ وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيها هم الحافز المنبه ، وكان الحافز الذى أنعش الهند هو أصحاب اللسان الآرى ؛ أما مصر فكان اندماج الغزاة فيها أضعف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان ؛ أما الصين فكان الهون يغزونها فتمتصهم ثم يعقبهم هون جدد . وصبغت الصين بالصبغة المغولية كما صبغت بلاد الإغريق وشمال الهند باللون الآرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان المترحلة يدمرون حيث يحلون تدميراً عظيما ، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلق . راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة. فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المعبد . وأقاموا ملوكا لم يكونوا كهنة ولا آلهة بل مجرد زعماء لقوادهم ورفاقهم .

وإنا لنجد فى كل مكان إبان القرون التى أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصيبت إصابة مميتة ، وأن روحا جديدة من البحث الخلق والذهنى قد استيقظت ، وهى روح لم يتيسر لأحد بعد ذلك أن يقمعها تماما فى خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيلا عاديا سهل المنال لدى الأقلية الحاكمة الموسرة ؛ ولم تعودا بعد ذلك سراً يحتفظ بها الكاهن فى حرص واستئثار. ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تهيأ للناس من خيل وطرق ممهدة . وظهرت العملة المسكوكة فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسننقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين فى أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر المتوسط . وهنا نجد لزاما علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب فى النهاية دوراً عظيما فى الشئون الإنسانية : ألا وهى مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن فى قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية فى شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدانا صغيرة ، كما أن طرفها الجنوبى كانت تنتثر عليه المستعمرات الإغريقية . ولا تزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايستم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشىء من الأبهة والجلال التى كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكرة . وكان شعب غير آرى ، لعله من ذوى قربى الشعوب الإيجية ، وأعنى به الإترسك وطد قدمه فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية منوعة . وعندما تظهر روما فى ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التيبر ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق . م بدءا لتأسيس روما ، أى بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر فى السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور أترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق . م .

وفى هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق . م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق . م) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان) .

ولولاها كانت تنطق به من لسان لاتيني ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلي بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عنيد قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب في الحكم . ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع . ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البلبيان) معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات ، وتساووا معهم مساواة واقعية . فقضوا على اعتزال البطارقة القديم وجعلوا من اليسور والقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً متزايداً من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت ردحاً من الزمان تكافح في الداخل ، على حين كانت تمد سلطانها في الخارج .

وشرع الرومان يبسطون سلطانهم في القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهي بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إترسكية ، هي قلعة فياى ، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها على أن الإترسك حلت بهم في ٤٧٤ ق م نكبة جائحة . إذ دمر إغريق سيراقوزه بصقلية أسطولهم .

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من الغيرين النورديين ، هي موجه الغالة . فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة . سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فياى . وتقدم الغالة إلى روما وانتهبوا المدينة (٣٩٠ ق . م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا الكابيتول . فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلي مباغت ، وانتهى الأمر بأن افتدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغالة إلى شمالي إيطاليا .

ويلوح أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وتمثلوهم ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلي . وقد بلغوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م ببضع سنوات وكانت فتوحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التي تم فيها نمو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر الهائلة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم المدن إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تناثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق المنشأة بماجناجريكيا ؛ وأعنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكعبها . وكان الغالة شعباً حربياً شديد المراس ، حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة . فأما المدن الإغريقية فى الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهى مدينة تارانتو الحديثة) وسيراقوزه ، فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم . وكانت تتلفت من حولها تلتمس ناصراً يعينها على هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء المغامرين أمير من ذوى قرابة الإسكندر اسمه بيروس ، وطد ملكه فى إبيروس ، وهى وراء البحر الإدرياتى قبالة كعب ايطاليا ، وكان يطمع أن يلعب من « الماجناجريكيا » دور فيليب المقدونى معها ، وأن يصبح حاميا وسيداً عاما لمدينة تارنتم وسيراقوزه وباقى ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد فى زمانه جيشا عصريا عظيم الكفاية ؛ كان لديه فيلق من المشاة وراكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارع فى كفايتها الخيالة المقدونية الأصلية ، ثم خمسة وعشرون فيلا مقاتلا ، فغزا إيطاليا وبدد شمل الرومان فى موقعتين عظيمتين إحداها معركة هراقليا (٢٨٠ ق . م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق . م) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

بيد أن هذا جلب عليه عدوا كان فى ذلك الحين أرهب جانبا من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية ا التى لعلها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ؛ إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قربا لا يستطيعون معه أن يرحبوا بتقدم إسكندر آخر جديد إليها ؛ كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذى حل بأمها صور قبل ذلك بنصف قرن . لذلك أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات بيروس فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويحطمون بعنف ساحق هجوما قام به على معسكرهم فى بنفنتم بين نابلى وروما .

وعلى حين بغتة وردت إليه أنباء اضطرته للعودة إلى إپيروس . فإن الغالة أخذوا يغيرون من الشمال إلى الجنوب كعادتهم . ولكنهم لم يكونوا يغيرون فى هذه المرة على بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسة، أمنع من أن يستطيعوا لها اختراقا : لذا كانوا يغيرون الآن جنوبا مخترقين إلليريا (وهى الآن ألبانيا وبلاد الصرب) إلى مقدونيا وإپيروس . وتخلى پيروس عن أطماعه فى الفتح وعاد إلى بلاد (٢٧٥ ق . م) بعد أن صده الرومان ، وأحدق به فى البحر خطر القرطاجنيين ، وهدد الغالة بلاده ، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب الصقلى من الضيق مدينة مسينا الإغريقية، وسرعان ماوقعت هذه البلدة فى قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة صقلية أو يكادون ، كما كانوا خلفاء لسيراقوزه ، فكان من الطبيعى أن ينهضوا للقضاء على القراصنة (٢٧٠ ق م) وأن يضعوا فى المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا التقت دولة قرطاجنة التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذا يتبادلان نظرات العداوة والبغضاء .

الفصل الثانى والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هى السنة التى ابتدأ فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذى يسمى باسم الحروب البونية . وفى تلك السنة كان آسوكا يستهل حكمه فى بهار ، وكان شى هوانج تى طفلا صغيراً ، وكان متحف الإسكندرية لايفتأ ينتج إنتاجا علميا لا بأس به ، كما كان الغالة البرابرة قد حلوا عند ذاك فى آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجامة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لاتزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لاسبيل إلى التغلب عليها ، ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة المقتضبة عن ذلك القتال الفتاك الذى دارت رحاه قرنا ونصفا فى أسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقية والبحر المتوسط الغربى ، ذلك القتال الذى نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها فى مسائل لاتزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والسامى كتب له أن يندرج فيما بعد تحت الكفاح الذى نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لاتزال عواقبها وتقاليدها المشوهة تحتفظ فى منازعات اليوم وخصوماته بثمالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب .

ابتدأت الحرب البونية الأولى فى ٢٦٤ ق . م بسبب قراصنة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عدا ممتلكات ملك سيراقوزه الإغريقى . وكان للقرطاجيين التفوق البحرى فى مبدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم

يسمع حيى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهى الخماسيات أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والكبش الضخم (١) . وكانت أعظم السفن فى معركة سلاميس ، قبل ذلك بقرنين من الزمان ، هى الثلاثات ، وليس لها إلا ثلاثة صفوف ولكن الرومان نصبوا أنفسهم بهمة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية ـ للتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون نجارة من الإغريق فى تسيير الأساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولكى يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق فى الملاحة ، اخترعوا طريقة إمساك سفن الأعداء بالكبابيش (بالكلابات) واعتلائها ، فإذا أقبل القرطاجيون لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها ، تعلقت كبابيش ضخمة من الحديد بسفنهم ، وتزاحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاجيون فى كل من ميلاى (٢٦٠ ق . م) وإيكونوماس (٢٥٦ ق . م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مئة وأربعة من الفيلة ـ وأخذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق الفوروم لم تر روما له من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فى معركة الجزائر الآيجاتية (٢٤١ ق . م) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . وتخلت للرومان عن صقلية بأكملها فيما عدا ممتلكات هيرون ملك سيراقوزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لكل منهما من المشاكل الداخلية ما يشغله . فإن الغالة انحدروا جنوبا فى إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما ـ (فحملها الهلع على تقديم القرابين البشرية للآلهة !) ـ ثم دحروا وبدد شملهم فى معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قدماً إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء ساحل البحر الإدرياتى حتى إلليريا ، وكابدت قرطاجنة الأهوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث فى قورسيقة وسردينية من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغته روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدوانى لا يطاق .

---

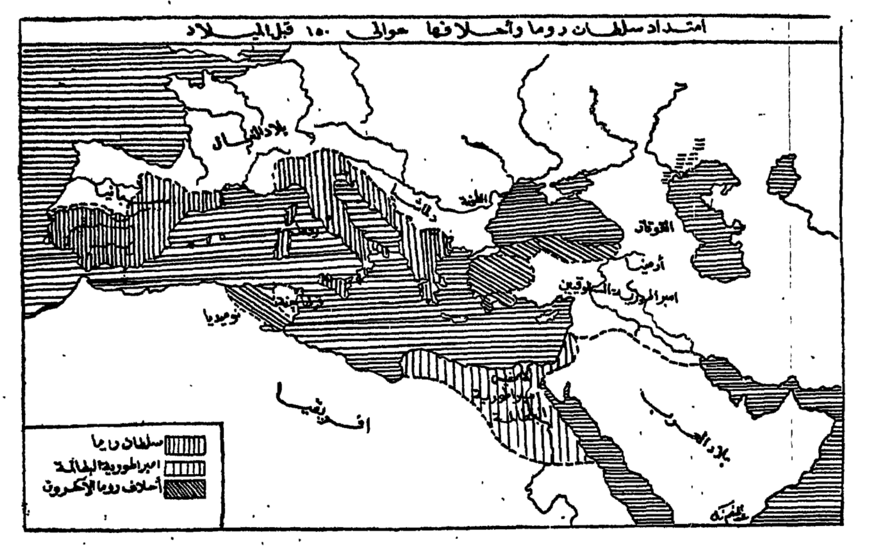
(١) الكبش نتوء برأس كبش كاشتر من سفينة لإتلاف سفن الأعداء .

وفى ذلك الأوان كانت أسبانيا حتى نهر إبرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم عليها الرومان تجاوز ذلك الحد . فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عملا حربيا معاديا للرومان . وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة فى ٢١٨ ق . م إزاء اعتداءات جديدة للرومان ، إلى عبور ذلك النهر فعلا بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال ، وهو قائد من ألمع القواد على مر التاريخ كله . فسير عليها جيشه مخترقا أسبانيا وعبر به جبال الألب إلى إيطاليا ، وهناك أثار الغالة على الرومان ، وواصل الحرب البونية الثانية فى إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما . وأنزل بالرومان هزائم فادحة فى معركتى بحيرة تراسيمين وكاناى ، ولم يستطع أى جيش رومانى طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تحيق به الهزيمة . غير أن الرومان أنزلوا عند مرسيليا جيشا قطع مواصلاته مع أسبانيا ، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته ، كما أنه لم يتمكن أبدا من الاستيلاء على روما . واضطر القرطاجيون آخر الأمور إزاء ثورة قام بها النوميديون فى أرض الوطن ، أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية ، وهنا عبر جيش رومانى البحر إلى إفريقية . ولقى هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة فى معركة زاما (٢٠٢ ق م) على يد سيبيون الإفريقى الأكبر .

وكانت معركة زاما هى خاتمة الحرب البونية الثانية ، واستسلمت قرطاجنة ؛ وتنازلت لروما عن أسبانيا وعن أسطولها الحربى ؛ ودفعت لها تعويضا هائلا ، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه ؛ لولا أن هانيبال نجا من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث تجرع السموم عندما أحس أنه موشك أن يقع فى قبضة أعدائه الغلاظ الأكباد .

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظلان أثناءها السلام . وراحت روما فى نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق المضطربة المنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى وتهزم أنطيوخوس الثالث الملك السلوقى عند مدينة ماغنيسيا فى ليديا . ثم جاء دور مصر ، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة ، كما جاء دور برجامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى ، فحولتها روما إلى حلفاء لها ، أو « دول محمية » كما قد نسميها اليوم .

وذلك فى حين كانت قرطاجنة الذليلة الضعيفة قد أخذت تسترد فى بطء شيئا من رخائها السالف ، فأثار ذلك عليها حقد الرومان ومخاوفهم ، فهاجموها (١٤٩ ق . م) لأسباب تافهة مفتعلة إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة


امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي ١٥٠ قبل الميلاد
بلاد الغال
القوقاز
أرمينيا
امبراطورية السلوقيين
نوميديا
افريقيا
بلاد العرب
سلطان روما
امبراطورية البطالمة
أحلاف روما الآخرون

خريطة رقم (٦)

وتحملت حصاراً طويلا ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق . م) . واستمر القتال — أو قل المذبحة — فى الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا دمويا بشعاً ، وعندما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالى قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفاً تقريبا ؛ فبيعوا بيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميراً تاما وسير المحراث فى أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهداً على محوها رسمياً .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة ، ولم يبق مستمتعا بالحرية من الدول والمدن السامية التى ازدهرت فى العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقى تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التى حررت نفسها قبل ذلك من أيدى السلوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين . وكانت التوراة قد تمت فى ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على يديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودى على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعى أن يلتمس القرطاجيون والفينيقيون وذوو قرباهم من الشعوب المبعثرة فى أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تتمثل فى ألسنتهم المتقاربة ، وفى هذا الأدب الذى يبعث فيهم الأمل ويملؤهم بالشجاعة . وكانوا لايزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامى لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم فى ٦٥ ق . م التى كانت على الدوام رمزاً لليهودية لامركزها ، وبعد أن تغلبت عليها تصاريف منوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها فى سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائى بعد ثورة أخرى شبت فى ١٣٢ م ، فأما أورشليم التى نعرفها اليوم فهى مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم فى مكان الهيكل معبد للرب الرومانى « جوبتر » وحرم على اليهود سكنى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الامبراطورية الرومانية

كانت هـذه الدولة الجديدة التي مازالت تعلو حتى تسلطت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف من كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم المتمدن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فاتح عظيم بعينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؛ فقد تسلطت أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الحليفة والتابعة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سيدة لقورسيقة وسردينية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم أسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشىء التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهداً ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعوباً ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وأسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي مجتازاً ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى المجر وجنوبي الروسيا ؛ ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبداً أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الادارية .

ومن ثم فقد كانت تضم حشوداً هائلة من شعوب نوردية جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريباً ، وكان اصطباغها بالصبغة الحامية والسامية أضعف كثيراً من أي إمبراطورية سالفة .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى فى مهاوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التى سرعان ماابتلعت فى جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية . وإنما كانت فى كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام البلديين والفرس كانوا يصطبغون تماما بالصباغ البابلى فى مدى جيل واحد تقريبا ، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملوك ويتقبلون معابد آلهته وكهاناتها ؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه فى نفس ذلك السهل طريق الطريق التمثل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التى كانت لنبوخذنصر ؛ وأصبح البطالمة فراعنة وتمصروا تمصرا تاما . فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين .

أما الرومان فإنهم كانوا يحكمون فى مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التى أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذى كان له عليهم تأثير ذهنى عظيم قبل القرن الثانى أو الثالث الميلادى هو أبناء قرابتهم الإغريق الذى يشبهونهم . لذا كانت الإمبراطورية الرومانية فى جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحتة تقريبا . كانت حتى ذلك الأوان طراز جديد لامثيل له فى التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة ، ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على فاتح فرد يحكم مدينة رئيسية نمت حول معبد لرب حصاد . كان للرومان — لاجرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آلهة من أشباه البشر الخالدين أو من النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضا يسفكون الدماء قربانا ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانا إذا ألمت بهم نازلة ، وهى أمور لعلهم تعلموها من أساتذتهم الإترسك السمر ؛ ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمن مديد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأى نشاط سياسى كبير فى تاريخ الرومان .

كانت الإمبراطورية الرومانية جسما نامياً ، كانت جسما نامياً جديداً لم ترسم لنموه خطة وتلفت الشعب الرومانى وإذا هو يعمل من غير وعى منه تقريباً فى تجربة إدارية هائلة ليس فى الإمكان أن تنعت بالتجربة الناجحة . إذ أن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام فى النهاية . كما أنها كانت تغير شكلها وأسلوبها تغيراً هائلا من قرن إلى قرن كان التغير الذى يحدث بها فى مئة عام أعظم مما كان يحصل فى البنغال أو أرض الجزيرة أو مصر فى ألف سنة . كانت دائمة التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال .

فشلت التجربة بمعنى ما كما أنها لاتزال — بمعنى ما — ناقصة غير مستكملة ، ولا تزال

أوربا وأمريكا فى يومنا هذا تحل ألغاز السياسة العالمية التى واجهها الشعب الرومانى لأول مرة .

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التى ألمت ، لا بالأمور السياسية وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التى استمرت طيلة فترة سيادة الرومان. وكثيراً ما يجنح بعض الناس إلى إظهار شىء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الرومانى كان شيئاً متقن التكوين وطيد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملا ونبيلا وحاسما. هذا كتاب ماكولى المسمى «أناشيد روما القديمة «Lays of Ancient Rome» S. P. Q. R. [1] ، لو اطلعت عليه لوجدت فيه كاتو الأسن ، وأفراد أسرة سبيون ويوليوس قيصر ودقلديانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والخطب ومصارعات المجالدين واستشهاد المسيحيين مختلطة بعض فى صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومهيباً .

ولابد لك من أن تحلل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت اعتباطا من مواضع مختلفة من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذى يفرق بين لندن فى عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة فى التيسير نقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ابتدأت المرحلة الأولى منها بنهب الغالة لروما فى (٣٩٠ ق . م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى فى (٢٤٠ ق . م) . وقد يجوز لنا أن نسمى هذه المرحلة باسم مرحلة الجمهورية المتمثلة [2]. ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الرومانى وأشدها تميزاً . ففى أثنائها كانت المنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامة تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإترسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم فى الثراء . فلا غنى فاحش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على المصلحة العامة .

كانت جمهورية ، كجمهورية البوير فى جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

---

(١) S. P. Q. R معناها مجلس شيوخ روما وشعبها .

(٢) المتمثلة : التمثل تحويل الشىء إلى مادة مماثلة كالطعام فى الجسم . والجمهورية هنا كانت تمثل غيرها من الشعوب والدول . [المترجم]

الشمالية فى الاتحاد الأمريكى بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هى جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما فى مستهل هذه المرحلة دويلة صغيرة لا تكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا . وكانت تقاتل ذوى قرباها من الدول القوية الشكيمة المحيطة بها وتحاول الائتلاف وإياها دون تدميرها. وتدرب شعبها أثناء قرون الفرقة الأهلية والشحناء على التراضى والتساهل. فإن بعض المدن المنهزمة أصبحت رومانية تماما لها نصيب من التصويت فى الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالاتجار فى روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحاميات المؤلفة من مواطنين يستمعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة ، كما أن المستعمرات المنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهرانى الشعوب المحتلة حديثاً . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صبغ إيطاليا السريع بالصباغ اللاتينى هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، ففى (٨٩ ق . م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسوطة الرقعة. وفى ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حر فى طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق فى أن يعطى صوته فى اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع فى بسط حقوق المواطنة على المدن السهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الرومانى . وهو الذى قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازى هو الذى يتمثل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة . ذلك أن صقلية مثلا عوملت معاملة فريسة مقهورة . فأعلنوها «مزرعة» للشعب الرومانى . واستغلت أرضها الخصبة وجهود شعبها المجد فى سبيل زيادة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العامة يحصلون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضاً فيضا متدفقا من الأرقاء. وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يشكلون فى معظم حالاتهم من مواطنين أحراراً من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذى يمتازون به وتبعتهم المسئولة منهم . وكانت الديون تتراكب مزارعهم حين ينخرطون فى الخدمة العسكرية العاملة، فانتشر

فى طول البلاد وعرضها نوع من الإنتاج الزراعى الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصولات التى أنتجها الرقيق بصقلية وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن . وتغيرت الأيام . وبدلت الجمهورية سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن صقلية أصبحت فى قبضة روما ؛ بل إن الرجل العادى أصبح فى قبضة الدئن الغنى والمنافس الغنى . بذلك دخلت روما فى مرحلتها الثانية، وهى جمهورية الأغنياء المغامرين .

وظل الجند الرومان المزارعون مئتى سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك فى حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مئة عام ينعمون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا غنموه .

وتبخرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت فى الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هى مجلس الشيوخ (السناتو) . وكان هذا المجلس فى الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات . وكان يدعوهم إلى جلساته فى البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، هم القناصل والرقباء [١] (Censors) . وإذا هو يصبح كمجلس اللوردات البريطانى جمعية تضم كبار أصحاب الأراضى والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم . كان أقرب إلى مجلس اللوردة البريطانى منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى . وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية ، وهو مركز الفكر الرومانى السياسى وقبلته . وكانت الهيئة الثانية هى الجمعية الشعبية ، التى كان مفروضا أن تضم مواطنى روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دويلة مساحتها عشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ماوراء حدودها ، فقد أصبحت هيئة عقيمة . وأخذت اجتماعاتها التى كان يعلن افتتاحها بالنفخ فى الأبواق من الكابيتول وأسوار المدينة ، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من المأجورين السياسيين ورعاع المدينة ومن قبل كانت الجمعية الشعبية فى القرن الرابع ق . م رادعا قويا يكبح مجلس الشيوخ ، وكانت خير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استحالت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاحول

---

(١) كان لروما رقيبان مهمتهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والمحافظة على الآداب العامة .

له لرقابة شعبية محطمة . فلم يبق هناك أى رادع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل فى الجمهورية الرومانية أى شىء من قبيل الحكومة التمثيلية النيابية . ولم يفكر أحد البتة فى انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جداً ينبغى للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ؛ ولكنها من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئاً يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى فى الإمبراطورية الرومانية كان فى حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته فى الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج المجزى ، كما لم يبق فى يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف . فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى كشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات ثورية غير مجددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث كفاحات ذلك العصر المعقدة ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتمزيق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإلغاء الديون جملة أو جزئيا . وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا فى ٧٣ ق. م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتا كوس . وكان لثورة رقيق إيطاليا شىء من الأثر ، إذ كان فيهم كبار المقاتلين فى حفلات المجالدين (١) . وظل اسبارتا كوس صامدا سنتين فى فوهة بركان فيزوف، الذى كان خامدا فى ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخمد العصيان بقسوة جنونية . فصلب ستة آلاف من أتباع اسبارتا كوس على جانبى الطريق الآبيانى ، وهو الطريق المعظم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق . م) .

---

(١) المجالدون (Gladiators) : المصارعون فى العهد الرومانى، وكانوا يقاتلون بالسلاح رجالا مثلهم أو وحوشا ضارية . وهى رياضة وحشية كانت تروق الرومان . ومكان هذه المصارعة كان يسمى بالمجتلد (Arena) [المترجم]

ولم يدر بخلد الرجل العادي قط أن يقاوم القوى التي كانت تخضعه وتحط من قدره بيد أن الأغنياء الكبار الذين تغلبوا عليه ، كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة يجهزون قوة جديدة في العالم الروماني ما لبثت أن تغلبت في النهاية عليهما جميعاً : هي قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند من المزارعين الأحرار الذين كانوا يسيرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع من القوات نافعا جداً في الحرب طالما كان ميدانها قريبا ولكنه ليس من نوع الجيوش التي تذهب إلى خارج البلاد وتتحمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجلد . وفضلا عن ذلك فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رقاع المزارع الكبرى ، أن تناقص عدد القائلة من الفلاحين الأباة الأحرار . ثم ظهر قائد شعبي هو ماريوس فكان له الفضل في إدخال عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أمسى بعد أن ذهبت ريح الحضارة القرطاجنية دولة شبه همجية ، هي مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرثا ملك تلك الدولة ، فكابدوا أهوالا كثيرة في التغلب عليه . حتى إذا ثار الشعب غضبا لكرامته اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلا للبلاد ، لينهي الحرب الشائنة . وتم له ذلك بجمعه الجند للأجورة وتدريبهم تدريبا شديداً .

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلا بالسلاسل (١٠٦ ق . م) ، فأما ماريوس فإنه تشبث بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمساكا غير شرعي تظاهره كتائبه للنشأة حديثا ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صده ومقاومته .

وبظهور ماريوس ابتدأ الدور الثالث في تطور الدولة الرومانية : وهي جمهورية القواد العسكريين ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب المأجورون يقاتلون في سبيل السيطرة على العالم الروماني . وثار على ماريوس قائد أرستقراطي هو سلا ، الذي كان يعمل تحت إمرته بإفريقية . وقام كل منهما بدوره يعمل السيف بشدة في خصومه السياسيين ، فكان الرجال يحرمون من حماية القانون ويعدمون بالألف ، كما تباع مزارعهم ، وبعد المنافسة الدموية التي اضطرمت بين هذين الرجلين وبعد الرعب الذي ملأ النفوس من جراء عصيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس وبومبي الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومتسلطين على مقاليد

الشئون . وقد هزم اسبارتاكوس على يد كراسوس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متمتعا بثراء عريض فى حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الأشغانيون) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم پومپى أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق . م) ثم قتل بمصر تاركاً يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الرومانى .

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارت فى الخيال الإنسانى هزة أضاعت كل أسباب التناسب بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزا ، وعندى أن أهميته تنحصر بوجه خاص فى كونه النذير الذى يؤذن بالانتقال من طور المغامرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الرومانى : وهى الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحلال الاجتماعى ؛ وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالى ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شىء من الانكماش أثناء فترات الشك والتخوف التى رانت على البلاد فى الحرب البونية كما كان هناك هبوط ظاهر فى الهمة فى المدة التى سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكانت ثورة اسبارتاكوس أمارة آذنت بدور ثالث ، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربى فى بلاد الغالة ، وهى تسمى الآن فرنسا وبلجيكا ، (كانت أهم القبائل التى تسكن ذلك القطر تنتمى إلى نفس الشعب السلتى الذى كان ينتمى إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ردحا من الزمن ، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطيين) صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عبر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ ، ٥٤ ق م) ، غير أن فتحه لتلك البلاد لم يدم طويلا . وفى نفس الوقت كان پومپى الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التى بلغت فى الشرق بحر قزوين .

وفى ذلك الوقت ، أى منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ الرومانى

لايزال هو المركز الإسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يعين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهيبة القوانين . بيد أن بواعث المواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بددا ؛ فقد استحالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عضهم الفقر بنابه حرموا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شىء يناصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحتشد من وراء القامرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسهم ويبغى إخضاعهم ، وكان كراسوس وپومپى وقيصر يتقاسمون فيما بينهم حكم الامبراطورية متخطين السناتو فى ذلك (وهم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشغانيون كراسوس بعيد ذلك بمنطقة كارهاى النائية ، دب الخلاف بين پومپى وقيصر ، فانتصر پومپى للمبادىء الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيصر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسيم مجلس الشوخ .

ولم يكن القانون يبيح لأى قائد أن يتجاوز بجنده دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيصر وبين إيطاليا هو نهر الروبيكون [بإقليم توسكانى] . وفى ٤٩ ق ، م عبر قيصر نهر الروبيكون قائلا : « الآن رميت القداح وسبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على پومپى وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تنتخب فى الفترات العسكرية العصيبة « دكتاتورا » له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيصر على پومپى عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى (٤٥ ق . م) . والواقع أنه جعل عاهلا للامبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية والملوك ، وهى كلمة بغضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيصر أن يكون ملكا ، بيد أنه اتخذ العرش والصولجان .

وكان قيصر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة پومپى ، وأخذ يطارح كليوبطرة

الغرام ، وهي آخر البطالة ، وملكة مصر الربة ، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فكرة « الملك المؤله » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم في أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إلى الإله الذي لايقهر » . ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لهيب احتجاج أخير ، وطعن قيصر بالخناجر حتى قضى نحبه في مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصروع بومبي الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة . وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من ليبدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر ، وهو ابن أخي يوليوس قيصر . وأخذ اوكتافيوس كمه الولايات الغربية الأشد فقراً والأقوى شكيمة . والتي كانت تجند منها أحسن الكتائب ، وتمكن في ٣١ ق . م من هزيمة مارك أنطونيو منافسه الخطر الوحيد في معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأوحد للعالم الروماني .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم يخامره أي حنين طائش أن يصبح إلها أو ملكا . ولم تكن له ملكة معشوقة يريد أن يبهرها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح دكتاتوراً . وغلب الشكر على السناتو فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من صورته الشكلية . أجل لم يلقبه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ونعته بـ « أوغسطوس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطوس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق . م إلى ١٤ م)

وخلفه تيبريوس قيصر (١٤ م — ٣٧ م) ، وأعقب هذا آخرون ، هم كاليجولا وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء تراجان (٩٨ م) ، وهادريان (١١٧ م) ، وانطونيوس بيوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) ، وهم جميعا أباطرة كتائب ، فالجند هم الذين نصبوهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تتقلص شيئا فشيئا وتتوارى من التاريخ الروماني ، بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد ترامت نحو الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمنت ترنسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسميت « داكيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث فى الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه — شأن شى هوانج تى — شيد الأسوار ليصد برابرة الشمال ؛ فبنى أحدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهرى الرين والدانوب ، وتخلى عن بعض ما استولى عليه تراجان .

فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثانى والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرقى مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدحامها بالسكان ورغدها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم . إذ أن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة النهوض والبعث .

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع البتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين — التى كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التى خلفت أسرة « تسأن » عند وفاة شى هوانج تى — فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق ممرات هضبة البامير الجبلية العالية . ولكنها بلغت هناك أيضا حدها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين فى ذلك الزمان أعظم نظام سياسى فى العالم وأحسنه تنظيما وأكثره تمدنا . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهى فى أوج مجدها ، من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظمتين قد أمكن أن تزدهرا فى عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداها بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل المواصلات فى كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكفيلة بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التفاعل تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا ، وكان تأثيرها عميقاً شديداً

فى مصير الأقاليم التى تقع بينهما وهى آسيا الوسطى والهند ؛ إذ أن قدراً بعينه من التجارة كان يترقرق فى تلك الأقاليم على ظهور الجمال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلاً ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر .

وفى ٦٦ ق . م زحفت الجنود الرومانية بقيادة پومپى مقتفية خطى الإسكندر الأكبر على الشواطىء الشرقية لبحر قزوين . وفى ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة پان تشاو ، وأرسلت مبعوثيها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تتهيأ للمعلومات المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين المتوازيين عالمى أوربا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تنبسط البرارى الهمجية المتبربرة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليما تكسو الغابات معظمه ؛ على حين كانت الغابات تتوغل قدما فى صميم الروسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأوروك) ، الذى يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تجىء بعد الغابات والأراضى المتجمدة . ويقع مثلث منشوريا العظيم فى المنبسط الواقع شرقى المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبى الروسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة المناخ إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا فى مدى بضعة قرون . فهى بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهى ممتلئة بالحشائش والكلأ الذى يقوت [1] السكان ، ثم تجىء فترة انخفاض فى الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقحط المهلك .

والجزء الغربى لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد من الغابات الألمانية إلى جنوب الروسيا والتركستان ومن جوتلنده [بالسويد] إلى جبال الألب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية واللسان الآرى . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هى منبت الشعوب الهونية أو المغولية أو التتارية أو التركية — ذلك أن كل هذه الشعوب

---

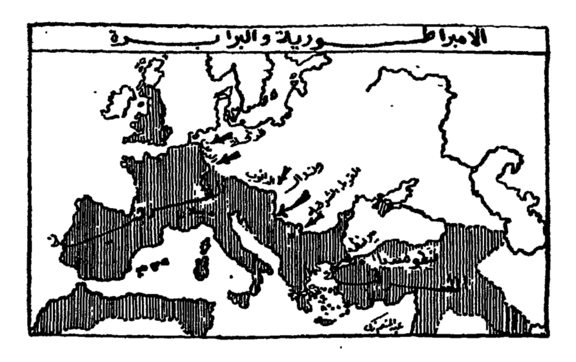
(١) يقوت السكان : يرزقهم ويعطيهم القوت ويعولهم من (قات يقوت قوتا) .

المتعددة كانت متماثلة فى اللغة والعنصر وطريقة الحياة . وكما أن الشعوب النوردية كانت تطغى دائما فيا يظهر على حدودها ، وتضغط جنوبا على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترحلين ومغيرين وفاتحين فى أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين . وكانت فترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تعنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص فى العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون الماشية ، لم يكن مفر من أن يؤدى ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع المقاتلين الأشداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه فى العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطورى إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطا قويا لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم وكان الفلاح الصينى ومعه المحراث والحصان يتقدم فى إثر حارس الحدود الإمبراطورى ، فيحرث منابت الكلأ ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على المستقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحد أمرين ، فإما الاستقرار فى حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإلا فالرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة ، وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلعته بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق الممرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غربا للخيالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكلما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التى هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الأشقانيون (البارثيون، وهم فيما يظهر شعب أشقوزى تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا بومبى الكبير فى غارته على بلاد الشرق وهزموا كراسوس وقتلوه ، وأزالوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،



خريطة رقم (٧)

وتبدلوا بهم ملوكا من الأشقانيين ، هى الأسرة الأرشكية[1]

ولكن جاء زمان كانت فيه أضعف مناطق المقاومة للرحل الجياع لاتقع فى الغرب ولا فى الشرق ، بل تسير فى آسيا الوسطى ، ثم تنحرف جنوباً بشرق عابرة ممر خيبر إلى بلاد الهند . فالهند هى القطر الذى تلقى حركة الانتقال المغولية إبان هــذه القرون التى قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . وانثالت موجات متكررة من الفاتحين والمغيرين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهباً وتخريباً ، فتمزقت إمبراطورية آسوكا ، وانحدر تاريخ الهند حينا من الدهر إلى غياهب الظلمات . . .

---

(١) الأسرة الأرشكية : أسرة بارثية ملكية مؤسسها أرشك الذى انتزع مملكته من دولة السلوقيين فى ٢٥٠ ق . م ، ودامت حتى قضى عليها فى ٢٢٦ ميلادية أردشير مؤسس الدولة الساسانية .

[المترجم]

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند باسطة عليها شيئا من النظام أسرة كوشانة بعينها أسستها قبائل « الهندواشقوذيين » Iudo-Scythians وهم جيل من الشعوب المغيرة . وتواصلت هذه الغزوات بضع قرون . ونكبت الهند دهرا طويلا من القرن الخامس الميلادى بالإفثاليين أو الهون البيض ، الذين كانوا يجبون الجزية من الأمراء الصغار ، ويوقعون الرعب فى أرجاء البلاد . وكلما أقبل الصيف رحل هؤلاء الإفثاليون إلى التركستان الغربية ليرعوا ماشيتهم ، فإذا جاء الخريف عادوا بطريق الممرات وقذفوا الرعب فى قلوب السكان الوادعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية فى القرن الميلادى الثانى نكبة عظيمة، لعلها أضعفت مقاومتهما جميعا لضغط البرابرة ، فإنهما أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له . ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة فى بلاد الصين أحد عشر عاما ، حتى أفسد النظام الاجتماعى أشد الفساد ، فسقطت أسرة هان ، وابتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والفوضى ، لم تستطع الصين أن تفيق منه تماما إلا فى القرن السابع الميلادى عند ظهور أسرة تانج العظيمة .

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوربا وأخذ الوباء ينتشر فى أرجاء الإمبراطورية من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيانها إلى حد خطير جدا . فإنا نسمع بعد ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالا ملحوظا فى قوة الحكومة وكفايتها . ومهما يكن الأمر فإنا نعلم للفور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها ، ونجدها تتداعى فى هذا المكان أولا ، وفى ذاك ثانيا .

وثمة شعب نوردى جديد هو القوط جاء أصلا من جوتلندة ببلاد السويد ، ثم هاجر عبر الروسيا إلى منطقة الفولجا وشواطىء البحر الأسود حيث جنح إلى البحر وإلى أعمال القرصنة . ولعلهم شرعوا عند نهاية القرن الثانى يشعرون بضغط هجوم الهون غربيا عليهم . وفى ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فعبروا نهر الطونة (الدانوب) وهزموا الإمبراطور ديكيوس وقتلوه فى معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد الصرب . وفى ٢٣٦ م اخترق الحدود عند نهر الرين الأدنى شعب جرمانى آخر هو

الفرنجة ، كما انهال الألمانى على إقليم الألزاس . وتمكنت الكتائب المعسكرة ببلاد الغال من صد المغيرين عليها ؛ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاختفت مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وثقتها بنفسها . وفى ٢٧٠ — ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادى
فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية فى مهاوى الفوضى وتمزقت إربا بعد أن تكونت فى القرنين السابقين للميلاد ، وازدهرت فى بحبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطوس قيصر مدة قرنين آخرين ، — يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعنى العامة أثناء عصر هـذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا فى تأريخنا الآن إلى حوالى ألف سنة من زماننا هذا ؛ كما أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون فى ظل كل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخـذت تقترب رويداً رويدا من حياة خلفائهم المتحضرين فى يومنا هذا .

وكان استخدام النقود المسكوكة شائعا آنذاك فى العالم الغربى ؛ وأصبح لـكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفى الدولة ولا الـكهان ؛ وبات الناس يمشون فى مناكب الأرض بحرية لم تتسن لهم من قبل أبدا ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لنزولهم ، فلو قارنت حياتهم بمـا كانت عليه فى الماضى أى قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاء ويسرا . وقبل ذلك التاريخ كان المتحضرون مقيدين بناحية أو إقليم ، مقيدين بالتقاليد ، يعيشون فى حـدود أفق ضيق جدا ؛ ولم يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل .

بيد أنه لا «السلام» الرومانى ولا « السلام » الصينى لدى أسرة هان كان يعنى أن الحضارة انتشرت انتشاراً منتظماً فى الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتهما . فالفوارق المحلية عظيمة جدا بين إقليم وآخر ، كما أن التناقضات وعدم المساواة فى الثقافة عظيمة أيضا بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم فى ظلال « السلام » البريطانى بالهند ، وكانت الحاميات والمستعمرات الرومانية تنتشر هنا وهناك فى أرجاء تلك المساحة العظيمة ، وهى تعبد آلهة الرومان وتتـكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن أو بلدان قبل مجىء الرومان

تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة ما على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية البتة فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق المهلن (١) عامة مذ كانت الإغريقية هى السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول يهوديا ومواطنا رومانيا؛ غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بهادون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية فى بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماما ، هو بلاط الاسرة الأشقانية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضاً اللغة القرطاجنية فى بعض أصقاع أسبانيا وشمال إفريقية زماناً طويلا ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كإشبيلية ، ذلك البلد الذى أوتى الغنى والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان بزمن بعيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الربة السامية وتنطق بلسانها السامى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستعمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهناك الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ — ٢١١) الذى كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلغة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخته لم تتعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم فى دارها بروما باللغة الفينيقية .

أما المناطق التى لم تسكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات داكيا (وهى الآن رومانيا على وجه التقريب) وبانونيا (وهى الآن بلاد المجر جنوبى الدانوب ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتينى . وهى التى مدنت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدنا كانت اللاتينية فيها هى اللسان الغالب منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تعبد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والأسبانية — وكلها مشتقة من اللاتينية — إلا تذكرة لنا بهذا الامتداد للسان والعرف اللاتينى . وأصبح شمال غربى إفريقية فى النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

---

(١) المهلن : Hellenized : المطبوع بالطابع الهلينى . [المترجم]

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقا فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتينى ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحا وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن انتشرت بروما نفسها ، فتعلمها المتعلمون بوصفها لغة علية القوم ، كما أن أدب اليونان وعلمهم كانا يفضلان على اللاتينى فى أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضا ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم المستقر . وقد أسلفنا عليك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمال الأرقاء محل المزارعين الأشداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقرى للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليونانى فكانت أساليب الزراعة فيه منوعة جداً ، منها الطريقة الأركادية ، التى كان كل مواطن حر يكدح بمقتضاها بيديه ، ومنها خطة أسبرطة ، التى كان من المهانة فيها أن يعمل المرء بيديه ، والتى كان العمل الزراعى فيها تقوم به طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت فى تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق ، فإن طريقة المزارع الكبيرة وفرق الأرقاء كانت قد انتشرت فى معظم أرجاء العالم الهلينى . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيداً بمولدهم ؛ لم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يفيدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام هم الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا البتة بحركة ثورية ناجحة . أما ثورة اسبارتا كوس التى اندلعت فى القرن الأول ق . م ، فهى ثورة للأرقاء الخصوصيين الذين كانوا يدربون لمصارعات المجالدين . وكان عمال الزراعة بإيطاليا فى أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات فيربطون بالسلاسل ليلا لمنعهم من الهرب أو تحلق نصف رؤوسهم ليصعب الفرار عليهم ولم تكن لهم زوجات ؛ ومن حق سادتهم انتهاك حرماتهم والتنكيل بهم أو قتلهم . وكان فى إمكان السيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش فى المجتلد فإذا قتل عبد سيده ، صلب القاتل وجميع من فى الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيبا إلى هذه الدرجة تماما ، بيد أنه كان مع

ذلك حظا بغيضا إلى نفوسهم . ولذا فالمغيرون والهمج الذين أخذوا يخترقون — للوقت — خط دفاع الكتائب ، لا يعدون فى نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محررين ومنقذين.

وقد انتشر نظام الرقيق فى معظم الصناعات وفى كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالمناجم وصناعات المعادن والتجديف فى السفن ورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم فى الأغلب الأعم على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار فقراء ، ورجال عتقاء يعملون فى المدن والمناطق الريفية ، إما لحساب أنفسهم أو مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع الماهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور نقداً وتنافس العمال الأرقاء ؛ على أننا نجهل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تبايناً بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات جمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلا ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهاراً ، وهناك العبد الذى وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل فى صنعته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً مرضياً ثمناً لحريته .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد انبعثت فى روما قبيل بداية الحروب البونية فى ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التى كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ؛ وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بحاشية من المجالدين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً فى المجتلد ، والذين كانوا عملهم الحقيقى هو أن يكونوا حرسه الخاص من (البلطجية) .

وكان هناك أيضا عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الراقية التمدن ببلاد الإغريق وشمال إفريقية وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعى العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أى فتى رومانى من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الغنى ليملك العبد الإغريقى ويتخذه خازنا لمكتبته ، كما يتخذ الأمناء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاعره مثلما يحتفظ بكلبه القادر على أداء الألاعيب اللطيفة . وفى هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد النقد

الأدنى والدراسات الأدبية العصرية متسمة بالتدقيق والتخوف والميل إلى الشحناء .
وثمة أقوام ميالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام الذكي ثم يعلمونه لكي يبيعوه عندما
يشب ، وكان العبدان يدربون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما
لا حصر له من المهن التي تستدعي المهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية أثناء السنوات الأربعمائة التي امتدت
بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأغنياء وبين أيام الاضمحلال التي أعقبت الوباء
العظيم . وتكاثر عدد أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطباع خشنة
وحشية ؛ ولم يكن للرقيق أية حقوق ، وما من امتهان أو انتهاك يدور بخلد القارئ
إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفعل إبان القرن
الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأسرى
قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمنا . فبدأ أصحاب الأرقاء
يدركون أن الربح والراحة اللذين يجدونهما على يد عبيدهم يزدادان إذا استمتع هؤلاء
بالاحترام الذاتي . هذا إلى أن الشعور الخلقي للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً بالعدالة
أخذ يؤتي ثماره فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين .
وضيق الخناق على القساوة ، فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش ،
ومنح العبد حقوق الملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ، وصار
الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم واستحثاثا على العمل ، واعترف القانون بنوع من
الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق
العمال ، أولا تحتاج إليها إلا في مواسم بعينها . فكان العبد في المناطق التي من هذا القبيل
ينقلب الوقت إلى رقيق أرض Serf [1] ، يدفع لمالكه جزءاً من محصوله أو يعمل
عنده في مواسم معينة .

ومتى أيقنا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين
الميلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد
في حياتها بشيء من الحرية أو الكبرياء ضئيلة العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء في

---

(١) رقيق الأرض أو مولى الأرض : عبد تابع لنبيل ويورث له أرضه ويباع ويشترى مع تلك
الأرض . [المترجم]

انحلالها وانهيارها . فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النذر اليسير ، أما العيش المعتدل والفكر والدراسة الناشطة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكانت المدارس والكليات قليلة ومتباعدة . وأنى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر في أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليد القانون والسلطان التي خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوبة وذكاء مكبوت ورغبات كسيحة ومنحرفة . وحتى الأقلية التي كانت تسودها فوق خضم الاستعباد المتلاطم ، ولجات القمع والسخرة ؛ كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة . وفي ذلك الجو القاتل اضمحل الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التي هي ثمار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى الشيء الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصناع الفنيين ، وتكاثر متحذلقة العبيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنتج في مدى أربعة قرون شيئا يمكن موازنته بالنشاط العقلى الجرىء النبيل ، الذي بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسبيا أثناء قرن عظمتها الوحيد ولم تصب أثينا في ظلال الصولجان الرومانى إلا الانحطاط والتدهور . واضمحل علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل في تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

فى ظلال الامبراطورية الرومانية

أصيبت روح الإنسان فى عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القساوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء يحتقرون تعساء ؛ بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز فى عـدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتلد المضرجة بالدماء حيث يصطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون . . . والمدرجات[1] هى أبرز عناصر الخرائب الرومانية . وتمضى الحياة على هذا النهج ؛ والقلق الذى يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق .

فمنذ اخترقت الحشود الآرية لأول مرة حدود المدنيات العتيقة ، لم يكن مفر من أن تلم التكيفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية فى المدنيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المتركزة حول المعبد .

وكانت رعاية المراسم ، والخوف من مخالفة القواعد المتبعة والتقاليد والقرابين والخفايا ، تطغى على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية فى نظر عقولنا

---

(١) المدرج (Amphitheatre) : مسرح دائرى فى الوسط منه المجتلد تحيط به المقاعد فى صفوف دائرية متصاعدة يعلو بعضها بعضا ، وتشرف على المجتلد . [المترجم]

المصرية ، وذلك لأننا ننتمى إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراق التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومر أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربات ، أو تغيير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء . فالتغيير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب ، فكأن الصور المرئية فى الحلم كانت تتغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق المشابهة فى روحهم بالسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعا يعرضها لانقلاب دينى . فظلت معابدها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صميمة فى ظلال حكم البطالمة والقياصرة على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل — على ما بين رب هـذا المعبد وهذا الإقليم ورب ذاك من تعارض . فإذا تشابه الربان فى خصائصهما جعلا شيئا واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا المزج والصهر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (الثيوكرازيا) ؛ والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى الألف السنة السابقة للميلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق مترامية كان يحل محلهم — أو بالحرى يبتلعهم — إله عام . حتى إذا ترامى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون فى بابل على الملأ أن للعالم ربا واحداً للصلاح والبر ، كانت عقول الناس مهيأة تماما لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيراً ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعداً من أن تسمح بمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها مماملتمسين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الربة الأنثى برب ذكر ، (والعالم الإيجى قبل مجىء الإغريق كان مولعا بالربات والأمهات) ، ومنها تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بشرا واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالثعبان أو النجم حلية أو رمزا . ومنها أن رب الشعب المقهور يصبح خصما شريراً يسىء لآلهة الشعب الغالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأمثال هذه التشكيلات لوضع الأرباب المحليين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبريرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قرباني كان المفروض أن فرعون هو الصورة الأرضية التي تجسده . ويمثل أوزيريس في صورة من يموت مراراً وتكراراً ثم يبعث حياً ؛ فكأنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول ، بل كان يتحول أيضا بتوسيع طبيعي للفكرة إلى وسيلة الخلود البشري . ومن رموزه الجعل (الجبران) الديد الأجنحة ، الذي يدفن بيضه ليبعث من جديد ، ومنها أيضا الشمس المتألقة التي تغرب لتشرق ثانية . ثم تقمص فيا بعد شخصية أبيس العجل المقدس . الذي ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهي أيضا هاتور ، وهي بقرة ربة ، وهي الهلال ونجمة البحر .. ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلا هو حوروس ، الذي يتمثل أيضا صقراً معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذي يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى وصور إيزيس تمثلها وهي تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حوروس وقد وقفت في وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشري استحدثها قبل تطور التفكير الجدي المنظم والتماسك بينها أشبه بتماسك أجزاء الأحلام . .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضا ، وهي آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذي له رأس كلب ، والليل الأسود وما ماثلهما ، وهي أرباب تلتهم وتغري وتعادي الإنسان والرب على السواء .

وغني عن البيان أن كل نظام ديني كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصري استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يبث فيها صادق عبادته ويلتمس فيها العزاء والسلوى . وكانت الرغبة في الخلود قوية جداً في العقل المصري ، حتى لقد جعلوها محوراً لحياتهم الدينية ، فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تتهيأ لأية ديانة أخرى في أي عصر من العصور . فلما خضعت مصر لفاتحيها الأجانب ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية عرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء في الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريقى ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية بل أصبحت فى الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهلينى كافة . فأقام بطلميوس الأول معبداً عظيماً هو معبد السرابيوم ، كان يعبد فيه نوع ما من ثالوث من الأرباب ، مكون من سيرابيس وإيزيس وحوروس . والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس . ولم يكن الناس يعدونها أرباباً منفصلة ، بل هيئات ثلاث لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى أن سيرابيس هو زيوس الإغريقى ، وأنه جوبيتر (أى المشترى) الرومانى وإله الشمس الفارسى ، وانتشرت هذه العبادة حيثما بسط النفوذ الهلينى ألويته ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين . ولا عجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود التوبة والسلوى ، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس العاديين فى تعس يحطم كل رجاء . وكان سيرابيس يسمى « مخلص النفوس » ، ولو تأملت تراتيل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نبرح بعد الموت فى ظلال عنايته الربانية . » أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيراً من الأنفس للتعبدة القانتة . وتماثيلها القائمة فى معابدها كانت تمثلها فى صورة ربة السماء وهى تحمل بين ذراعيها طفلها حوروس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم إليها ، على حين أن الكهان الحليقين الناذرين أنفسهم العزوبة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوربا الغربية لهذه العقيدة النامية . ومن ثم ترسمت معابد سيرابيس إيزيس ، وتراتيل الكهان والأمل فى حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلنده وهولنده . على أن منافسى ديانة سيرابيس إيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة المثراثية . وهى ديانة ذات أرومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها مثرا وهو يضحى بعجل مقدس محب للخير ، وكأنى هنا أرى شيئاً بدائياً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرابيس إيزيس المعقدة المبطنة . فنحن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسى الحجرى من الثقافة البشرية . والعجل المرسوم على الآثار الميثرائية ينزف دماً بغزارة من جرح فى جنبه ، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة . وكان من معتنق العقيدة مثرا يستحم فعلاً فى دم العجل الضحية . فإذا حل يوم انخراطه فى العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فعلا .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد الجديدة المماثلة التى كانت تنشد ولاء الأرقاء والمواطنين فى عهد أباطرة الرومان الأواء. وهى شخصية لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصى والخلود الشخصى . ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل فى الطراز القديم المعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو الدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا فى المحل الثانى . وكان تقديم القرابين وظيفة عامة لا خاصة . ذلك أنها تتصل بالحاجات العملية للجماعة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورائهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردى هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعة للدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة ، بيد أنها لم تحل محلها فعلا . والمدينة النموذجية فى عهد أباطرة الرومان الأول هى التى كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . فربما وجدت بها معبداً لجوبيتر [المشترى] الكابيتولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر للقيصر المتربع على العرش .

ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنة أن الألوهية شىء ممكن . وكانت تقام فى مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى فخمة المظهر ولكن لاروح فيها ، وهناك كان الناس يدلفون ليقدموا الذبائح ، ويحرقون شيئا من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر . ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة ، هو الذى تهفو إليه القلوب ، وتسعى أقدام كل فرد مفعم الفؤاد بالمتاعب ، ينشد النصيحة وتفريج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طباع شاذة . فإن مدينة إشبيليه ظلت زمنا مديداً تعبد « الزهرة » ربة القرطاجيين القديمة . وربما وجدت فى هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلا لمثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضا بيعة يجتمع فيها اليهود ليقرأوا توراتهم وليشدوا من اعتقادهم فى الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان ، وإنهم ليأبون أن يشتركوا فى القرابين العامة التى تقدم

لقيصر . وإنهم ليرفضون حتى أن يحيوا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .

وهناك فى بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمن مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية ، والتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف فى الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيراً من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة يمعن فى الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الخفية التى كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التنكيل بالنفس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية فى يهوذا والإسكندرية فى القرن الأول ق . م ، أيضاً . فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشفات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسينيين[١] . وانصرم القرنان الأول والثانى الميلاديان والعالم كله غارق أو يكاد فى نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، يمعن فى نشدانه العام « الخلاص » من محن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة فى القسيس والمعبد والقانون والعرف .

وفى هذا الجو الذى يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر والتهافت على إشباع الملذات ، كان ينتشر فى الناس هذا الوباء وباء الاشمئزاز الذاتى وعدم الاطمئنان العقلى ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلى عن الدنيا والمكابدة الإرادية للآلام . تلك هى الحال التى طالما ملأت السرابيوم بالنادمين والباكين واجتلبت المؤمنين إلى ظلمة الكهف ودمائه الدافقة .

---

(١) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بفلسطين قبل ظهور المسيحية ، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنات التى ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة فى السلع . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبلنى [المترجم] .

الفصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية فى يهوذا ، إبان حكم أوغسطوس قيصر أول قياصرة روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن نباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن شطراً عظيما من العالم المسيحى يعتقد أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذى كان اليهود أول من عرفه . والمؤرخ لايستطيع — إن هوشاء أن يحتفظ بصفته تلك — أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية المادية فى صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنسانا .

ظهر فى يهوذا أثناء حكم تيبريوس قيصر . كان نبيا ؛ يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسالته فذلك أمر نجهله جهلا تاما .

فليس لدينا مصدر مباشر للعلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد ، لايسع المرء منا إلا أن يقول : « لاشك أن بين أيدينا إنسانا ، وليس فى الإمكان أن يكون خبره هذا مفتعلا » .

ولكنك تكاد تحس أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس القرفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فكذلك شخصية يسوع النحيلة الدءوب المجهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لايمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه فى الفن المسيحى الحديث توقير خاطىء . كان يسوع معلما معدما ، يتجول فى أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشمس المحرقة ، ويعيش على مايتلقى

من هباث عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الفن يمثله على الدوام نظيفا ممشط الشعر وضاء المحيا نقى الثياب منتصب القامة ، وحوله جو هيولى ساكن لا يتحرك كأنما هو منزلق على أجنحة الأثير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئا خياليا غير حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمها إليها القانتون الجهلة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات الصبيرة ، بقينا وجها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جداً ، جاد جداً وعاطفى معرض للغضب السريع ، وهو يعلم الناس مبدأ جديداً بسيطاً عميقاً : — هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت السموات . وواضح أنه كان شخصا ذا جاذبية شخصية حادة — إن جازلنا أن نستعمل هذا التعبير العادى فإنه كان يجتذب إليه الأتباع ويملأ قلوبهم محبة وشجاعة . وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أغمى عليه عندما كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه وهبط أورشليم ، واتهم بمحاولة إقامة مملكة عجيبة فى يهوذا فحوكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بزمن طويل كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلاعجب إذن أن فات عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكص على عقبيه فزعا من أى فهم — مهما دق — لتحدياتها الهائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السموات كما يلوح أن يسوع كان يعلمه للناس ، لم يكن إلا طلباجريئا لاتسامح فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح . تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء .

وعلى القارىء أن يلجأ إلى الأناجيل التماسا للبقية الباقية من تلك الفكرة الهائلة؛ فكل مايهمنافى هذا المقام إنماهو الهزة التى أحدثها اصطدامها بالفكرات المستقرة القديمة.

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم أجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضاً بأنه رب تاجر ، أتم فى شأنهم صفقة مع أبيهم إبراهام ، صفقة رابحة جداً لصالحهم والحق يقال ، يتعهد بها أن يرتفع بهم فى النهاية إلى السيادة على الأرض !!؟. فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو يحطم أمامهم نفيس ضماناتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم ينالون الحظوة فى مملكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لايستطيع أن يحبو أحداً دون غيره بحظوة ، وأن الناس جميعا أخوة — كلهم خاطىء مذنب ، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهى ، وأن يسوع ليصب فى قصة السامرى الطيب جام سخريته على ذلك الميل الطبيعى الذى نخضع له جميعا ، وهو تمجيدنا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه فى قصة العمال ينبذ ظهريا ادعاء اليهود العنيد فى أن لهم على الله حقا معينا . وعلم الناس أن كل من أخذه الله فى الملكوت ، حباه برعاية واحدة لا تفريق فيها ، فالله لا يعرف تمييزاً فى معاملته لعباده ، إذ لاحد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصاراهم كما يتجلى ذلك فى أمثولة العملة المدفونة ، وكما نعززه حادثة فلس الارملة . وليس فى ملكوت السموات امتيازات ، ولا تخفيض مالى ولا معاذير :

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كما هو معلوم شعب ذو ولاء قبلى قوى — على حين راح يسوع يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة تنطوى على التحديد فى ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملكة السماء بأكلها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أن « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجين طالبين أن يكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال القائل له ، من هى أمى ومن هم إخوتى . ثم مد يده نحو تلاميذه وقال هاأمى وإخوتى ، لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى »[1]

---

(١) إنجيل متى ١٢ ، ٤٦ — ٥٠

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلى باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعاً ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتنتقص كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . ذلك أن الناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ، وأن ممتلكاتهم جميعاً تنتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرة للناس جميعاً ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أفئدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله ، أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً ليس أحداً صالحاً إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يامعلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شىء واحد ، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعالى اتبعنى حاملا الصليب . فاغتنم على الفور ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضاً وقال لهم : يا بنى ، ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله [1] » .

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من بر قائم على المساومات ، وذلك بسبب نبوءته الماثلة بذلك الملكوت الذى يشحذ فيه الناس جميعاً فى ذات الله . ثم إن شطراً عظيما مما سجل من أحاديثه موجه إلى المبالغة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزاً بأيد غير مغسولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسناً تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيداً ، وباطلا

(١) انجيل مرقس الإصحاح العاشر ١٧ — ٢٥ .

يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمور أخر كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسناً رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » . (١)

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجلاء أن تعاليمه كانت تنطوى على لمسة سياسية من أبسط الأنواع . حقاً إنه قال إن مملكته لاتنتمى إلى هذا العالم ، وأن مكانها فى قلوب الرجال وليس عرشا من العروش ؛ ولكن لايقل عن ذلك وضوحا أنه حيثما قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويلم به الانقلاب بنفس النسبة .

ومهما يكن مافات سامعيه من أقواله الأخرى بسبت عمايتهم أو صممهم ، فمن الجلى أنهم لم يفتهم تصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه للعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمحاكته وإعدامه ، تدل بأجلى بيان أن معاصريه كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل يرون أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها .

وإذا راعينا ماقاله صراحا ، لم تجد غرابة أن يشعر كل غنى وكل موفق رغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الغريبة ، وبحس أن عالمه يدور به بسبب هذه التعاليم !! ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة دينية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خلق رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوادعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يحتوى الضياء الوهاج لملكوته على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية ولم يكن هناك فى الواقع أى حافز ولا مثوبة إلا المحبة . أفعجيب إذن أن تنبهر عيون الناس وأن تنخطف أبصارهم وأن يتصايحوا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذه أنفسهم عندما لم يقبل أن يعفيهم من باهر الضياء ، أعجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فإما أن يهلك هو أو تهلك الكهانة ؟ أعجيب إذن أن

---

(١) إنجيل مرقس الإصحاح السابع ٥ — ٩ .

يلجأ الجند الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذى يحلق فى الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم — أقول يلجأون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا منه قيصراً هزوا ! ذلك أن أخذه مأخذ الجد كان معناه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلى عن مألوف العادة ، وضبط الغرائز والدوافع ، وتجربة ضرب من سعادة لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم نعثر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المباشرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاؤول ، وكان فى بادىء الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس . وأتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لحركات زمانه الدينية . فتراه على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تعتنقها الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة « ملكوت السموات . » ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إن موته كان تضحية — مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية — من أجل خلاص البشرية .

وعندما تزدهر الديانات إحداها إلى جوار الأخرى تنزع إلى التقاط طقوس بعضها بعضاً وغيرها من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذى للتاوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية ، كالقسيس الحليق وتقديم النذور والهياكل والشموع والترتيل والتماثيل

التى كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها فى عبادتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد الأقل أهمية ، وكانت كل واحدة منها تلتمس الأنصار ، ولابد أن المتقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالحظوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القيصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفتنة ، وذلك فضـــلا عن الروح الثورية التى تبثها ، تعاليم يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان رباً مات ليبعث حياً وليمنح الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحى كل ممزق ، والعقيدة بعد فى طور الانتشار ، فاستعرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبى البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع سابيليوس[1] أن يسوعا لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب فى الوقت نفسه ، مثلما يمكن أن يكون الرجل والداً وصانعاً فى نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة فى وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

وانقضى ردح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحى بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ فى أتم صورة فى عقيدة القديس اثناسيوس .

ولن ندلى هنا بأى تعقيب على هذه الخصومات ، فهى لا تؤثر فى التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح محققاً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد فى حياة جنسنا الخلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

---

(١) أسقف إفريقى عاش فى منتصف القرن الثالث الميلادى [المترجم]

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله.
أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر فى كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من
الوجهتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر فى العالم بمجىء المسيحية وانتشار تعاليم
يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان فى حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس
كان يعلم العبيد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين ، ولكن
يعدل ذلك فى صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل تناهض
إذلال الإنسان للإنسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة
الإنسانية الذى يحدث فى مثل مصارعات المجالدين[1] فى المجتلد .

انتشرت تعاليم الديانة المسيحية فى كل أرجاء الامبراطورية الرومانية إبان القرنين
اللذين عقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المتنصرين لايبرح
يزداد فى كل آن ، وتخلق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفكرات والإرادة . واختلف
موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عاداها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلت فى كل من القرنين
الأول والثانى محاولات للقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر فى ٣٠٣ وما عقبها من
أعوام أن أنزل بها الامبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيما ، فصودرت أملاك الكنيسة
الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت دماء المسيحيين
على أنهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت
السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت « عقائد
الكتب » هذه المسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يعتمد
إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة فكراتها الذهبية وتفهمها ، ولم تكن الديانات
الأقدم عهداً ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى إذا أقبلت عصور الفوضى
البربرية التى أخذت ظلماتها تغشى أوربا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هى الوسيلة
الفعالة فى المحافظة على التراث العلمى .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلا تاما فى القضاء على المجتمع المسيحى النامى ، وكان

---

(١) المجالدن Gladiaton : هو مصارع محترف بروما القديمة يتصارع مع الرجال أو الحيوانات
فى المجتلد ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمل ليصطرع فيه
الرجال. [المترجم]

عديم الأثر فى كثير من الولايات ، وذلك لأن كتلة السكان وكثيراً من الموظفين كانوا من المسيحيين . ثم صدر فى ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك[1] . وفى ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الرومانى ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عمد وهو على فراش موته . فتخلى عن كل مدعياته فى الألوهية . ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تمض بضع سنوات حتى توطدت قدم المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للامبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت فى غيرها بسرعة خارقة ، وفى ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال جوبيتر سرابيس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد فى الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادى فصاعداً .

(١) أشركه معه دقلديانوس فى الحكم فى ٣٠٥ ، وجعله قيصرا على اليريا Illyricum والأقاليم الدانوبية . وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية فى ٣٠٥ عند تنازل دقلديانوس [المترجم]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الامبراطورية

إلى شطرين : شرقى وغربى

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادى ، وهى تضمحل اجتماعياً وتنحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تتنقل حسبما تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية فى ميلانو آناً ، وآناً آخر فيما يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تكون بنيقوميديا[1] إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة فى منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لاتصلح أن تكون قصبة ملائمة للامبراطورية ، ولذا أخذ الاضمحلال يدب إليها .

أجل لم يبرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنقلون فى ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما انفكوا يزدادون استبداداً بقية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم فى كل آن شبهاً بدولة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجا ملكياً وارتدى ثياباً شرقية .

وفى إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهرى الرين والدنواب بوجه التقريب . فإن

---

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطىء بحر مرمره ومكانها ازميت الحصرية . [المترجم]

الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية قد تقدموا حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد المجر ؛ بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التى هى رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب الروسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من ورائهم الألن (Alans) بإقليم الفولجا ، وليت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب المغولية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوربا . وكان الهون يفرضون الجزية وتشتد على الألن والقوط الشرقيين ويدفعونهما غربا .

أما فى آسيا فإن التخوم الرومانية أخذت تتصدع وتتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التى أقام دعائمها ملوك بنى ساسان ، أن تصبح منافساً قوياً مجبواً بالنجاح فى جملة الأمر ، وخصماً لدوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القارىء ألقى نظرة على خريطة أوربا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لايتجاوز مائتى ميل من البحر الادرياتى بالمنطقة التى يسمونها اليوم باسم أقاليم الصرب والبوسنه . وهناك ينحرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منعكسة.

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلخة الضيقة من الأرض التى لاتتجاوز المائتى ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطر إمبراطوريتهم الغربى الناطق باللاتينية والشرقى الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم مايكون فى تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمراً لامفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لزحفت أماما واستردت مقاطعة « داكيا » ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكيمة القوية .

ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كان عاهلا شديد الإخلاص والذكاء ، فصد غارة للقوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة

العسكرية مايتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلى وإصلاح عيوبها . فلجأ إلى ما للمسيحية من قوة تماسك وروح معنوية راجيا أن يبتعث بهما روح الإمبراطورية المتداعية ، كما قرر أن ينشىء لها عاصمة جديدة دائمة مقرها بيزنطة على مضيق البوسفور . وراح يعيد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسما جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت فى آخر أيام هذا العاهل صفقة عجيبة ، فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، فمنحوا بعض الأراضى فى بانونيا ، التى هى اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم فى مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور إسميا . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما فى هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط الغربيون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يبلغوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور فالنز عند أدرنه ، ثم عقدوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحالية مثلما استقر الوندال فى بانونيا . وبهذه التسوية صاروا رعايا للامبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم فى الواقع غزاة فاتحون .

وفى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩ — ٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متماسكة من الناحية الشكلية . وكانت جيوش إيطاليا وبانونيا تحت قيادة استيليكو الوندالى ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألاريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فناصرا ألاريك أحدهما وهو (أركاديوس) بالقسطنطينية ، وظاهر استيليكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا ، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ألاريك ومنافسه استيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين ألعوبة فى أيديهما ، وفى غضون ذلك الكفاح ، زحف ألاريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين براثن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يعسر علينا تصور صورة حقة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فالمدن العظيمة التى ازدهرت فى ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وأسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذاك ، ولكن الفقر عضها بنابه وهجرها سكانها وعدت عليها عوادى الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منحطة مفعمة بعدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لاشك أن الموظفين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتى من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذى أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم فى العادة من الأميين . وقل القراء والقراءة وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتماثيل والصور وما ماثلها من إنتاج فنى لم تبرح موجودة فى كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون .

دب الانحلال أيضاً فى حياة الريف . فزايل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الرومانى . فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر . وعاث اللصوص فى الطرق والغابات فساداً . وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهى على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤساءهم حكاما عليها ، وأطلقوا عليهم فى كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجهات التى يفتحونها شروطاً معقولة ، فيمتلكون المدن ، ويختلطون بأهلها ويتزوجون منهم ويتعلمون اللسان اللاتينى ينطقونه بنبرة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوباً زراعيين ، لاحاجة بهم إلى المدن ، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التى أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن المحال علينا أن نترسم فى هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهى تروح وتغدو فى هذه الإمبراطورية المختلة النظام بحثاً عن الأسلاب والغنائم والتماساً لموطن جميل تستقر فيه . على أننا سنتخذ من

الوندال مثالا نسوقه إليك . فإنهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية ، واستقروا كما أسلفنا فى بانونيا . ومنها انتقلوا إلى أسبانيا حوالى ٤٢٥ م مخترقين الولايات التى تقع فى طريقهم . فوجدوا بأسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب الروسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها الملوك والأدواق .

وأبحر الوندال من أسبانيا إلى شمال إفريقية (٤٢٩) بقيادة جنسريك . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشأوا أسطولا ، ومالبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما وانتهبوها (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كبوتها تماماً بعد الذى أصابها من عدوان ونهب على يد ألاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يبسطون سيادتهم على قورسقية وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربى . الواقع أنهم أنشأوا دولة بحرية شديدة المماثلة فى سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعمائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالى ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالى حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريباً إبان نهضة مؤقتة فى عهد جستنيان الأول .

وليست قصة الوندال إلا مثالا واحداً من المغامرات المماثلة . ولكن هاقد أقبلت إلى العالم الأوربى جحافل أبعد ما تكون شبها بهؤلاء العابثين وأبث للرعب فى القلوب : الهون المغوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر ملىء بالنشاط والاقتدار ، بصورة لم يلتق العالم الغربى بمثلها قبل ذلك أبداً .

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الامبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولى فى أوربا مؤذنا ببدء مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية . ذلك أن الصلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ماقبل الحقبة المسيحية بحوالى قرن من الزمان . أجل إنه حدث فى الأراضى المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات ، أن اللابيين (أهل لابلنده) وهم شعب مغولى ـ انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلنده) ، ولكنهم لم يلعبوا أى دور فى مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا للتفاعلات الآخذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية السمراء دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى فى أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الأثيوبيين لمصر .

والراجح أن حركة هؤلاء المغول الراحل المتجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها أثناء الرخاء الذى أظل البلاد فى عهد أسرة هان . وثانيهما حدوث شىء من التغيرات فى المناخ ؛ لعله قلة فى المطر جففت المستنقعات وربما أزالت الغابات ، أو لعله زيادة فى الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، أو لعل هاتين العمليتين جميعاً تعاورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليهما على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إليه ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية التعسة فى الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص فى عدد السكان . وذلك أن الأغنياء فى الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومن ورائهم جباة الضرائب للأباطرة العسكريين ، امتصوا كل ما فيها من حيوية . ولعل القارىء قد تجلت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا بإيجاز ، هى أن الضغط ظهر فى الشرق وقد نخر الفساد فى الغرب وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادى ، ولكن ذلك الشعب الذى كانت الفروسية أعظم مظاهر حياته لم يتبوأ منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزقة كانوا يقبضون أعطياتهم من استيليكو الوندالى صاحب السيادة على هونوريوس . ولم ينقض طويل زمن حتى وقعت فى قبضتهم بانونيا عش الوندال الخالى .

ونشأ بين الهون فى الربع الثانى من القرن الخامس زعيم حربى عظيم هو أتيلا . ومن أسف أن كل مالدينا من علم بدولته لا يتجاوز اللمحات المبهمة التى لا تشفى غليلا . ومهما تكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليطا من القبائل الجرمانية المتأخرة ؛ وامتدت دولته عبر السهول المترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين . وجعل مقر قيادته ومعسكره الرئيسى بسهل المجر شرقى نهر الدانوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس ، الذى يقص علينا وصفا لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك المغول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكانهم . فالعامة يعيشون فى الأكواخ والخيام ؛ على حين كان الرؤساء يعيشون فى قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات . وكانوا يقيمون الولائم ويحتسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بعث أبطال الملاحم الهومرية ؛ بل حتى رفقاء الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم فى قاعدة أتيلا العسكرية بقدر من الإلف وعدم الكلفة يفوق فى الراجح ما قد يحسونه فى بلاط راق متدهور كبلاط الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى ابن أركاديوس ، الذى كان يحكم آنذاك فى القسطنطينية .

ومرحين من الدهر زعم الناس أثناءه أن الرحل بقيادة الهون وأتيلا ، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الذى لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يعيد نفسه فى نطاق أوسع . ولكن الهون كانوا أكثر تعلقا بحياة الترحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن عدهم مربين للماشية ميالين للهجرة أكثر منهم مترحلين . وراح الهون يغيرون وينهبون دون أن يستقروا فى مكان .

وظل أتيلا بضع سنوات يضغط على ثيودوسيوس ويبعث فى قلبه الرعب ما شاء له

هواه ؛ وذلك فى نفس الوقت الذى انطلقت جيوشه فيه تعيث فى البلاد فسادا وتعمل النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيبون عدد ما دمره من المدن فى شبه جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر ثودوسيوس أن يشترى رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين سريين لاغتياله . ثم عاد أتيلا فوجه التفاته فى ٤٥١ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية فغزا بلاد الغالة . فلم تنج مدينة واحدة تقريباً فى شمال غالة من النهب والسلب . عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند تروبس Troys فى معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غفير من الرجال يتراوح عدده بين مئة وخمسين ألفاً وثلثمائة ألف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت تقدمه ببلاد الغالة ، بيد أنها لم تنل كثيراً من موارده العسكرية الهائلة . فإنه دخل إيطاليا فى السنة التالية عن طريق ڤينيشيا[1] (منطقة البندقية) وأحرق أكويليا وپادوا وانتهب ميلانو .

وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية وبخاصة پادوا فلاذت بجزائر بالمستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإدرياتى، وهناك وضعوا أول حجر فى دولة مدينة البندقية ، التى كتب لها أن تغدو من أهم المراكز التجارية فى العصور الوسطى .

مات أتيلا فى ٤٥٣ موت الفجاءة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجا بزواجه من حسناء صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى الهون الحقيقيون من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويفوقونهم عدداً . على أن هذه الغارات الهونية الضخمة أتت تقريباً على الدولة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين فى مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما فى ٤٥٥ ؛ وانتهى الأمر فى ٤٧٦ ، بأن قضى أودوا كر كبير الجند البرابرة على شخص يانونى تولى مهام

---

(١) ڤينيشيا : قسم إقليمى قديم بإيطاليا ينقسم الى : (أ) ڤنيتو (البندقية الأصلية). (ب) وڤنيتو تريدنتينا . (ج) وڤينتوجوليا . [المترجم].

الإمبراطورية تحت اسم مهيب هو رومولوس أوغسطولوس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور فى الغرب . وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير الكريمة . ثم أصبح ثيودوريك القوطى ملكا على روما فى ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكمون عند ذلك جميع أقطار أوربا الغربية والوسطى متخذين ألقاب الملوك والدوقات ، ومستقلين فى الواقع وإن اعترفوا فى معظم الحالات بشىء من الولاء الرمزى للامبراطور . كان هناك مئات بل آلاف فى مثل هؤلاء الحكام المتصبين المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لا تزال منتشرة ببلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وداكيا فى صور ولهجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت فى بوهيمياً لغة صقلبية هى التشكية ، — وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من المتعلمين قراءة اللاتينية وكتابتها وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من واق إلا قوة الساعد . فتكاثرت القلاع وساءت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عشر انقسام وفرقة ران فيه الظلام الفكرى على العالم الغربى بأجمعه . فلولا أن قيض الله للعلم اللاتينى رهبان المسيحية ومبشريها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا نمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها نمت لأن فكرة المواطنية شدت فى البداية بنيانها وربطت بين أجزائها . إذ بقى فيها فى أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد غفير من رجال أقوياء الوعى بالمواطنية الرومانية ، يرون فى تلك المواطنية امتيازاً لهم وواجباً والتزاما عليهم ، ويطمئنون إلى حقوقهم فى ظل القانون الرومانى ، ويبذلون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر وذاع صيت روما وأصبح رمزاً للعدالة والعظمة والمحافظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالمواطنية أخذ ينخر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نمو الثروة والاسترقاق . أجل إن المواطنية نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوى عليه من فكرة .

ومهما يكن من شىء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تكن إلا دولة بدائية جداً ، لإنها لم تقم بتعليم الناس ، ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجماهير مواطنيها الغفيرة

المتزايدة العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذه من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التي تكفل إيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة ، ولانهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشدية ودعم النشاط الجماعي . فالمغامرون الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولا لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليدلى رأيه فى شئون الدولة . لقد مات روح الواطنية جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هى نتاج نهائى للتفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها فى العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن الدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها فى القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئاً آخر تكون فى أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيبتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكى على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر فى أوربا وتمد عليها ألويتها الشاملة : حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم فى عقر دارهم ، ألم يحل بطريق روما دون زحف أتيلا على المدينة عندما تسامع الناس بانتوائه ذلك ، وبذا فعل ما لا تستطع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة المعنوية البحتة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكلها ، حتى إذا ولت الامبراطورية ، ولم يعد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومدعيات مما كان لأولئك الأباطرة ، فانتحل لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرابين الأكبر فى الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التى كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادى والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لابأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً ما بدأ فى النصف الغربى . وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها ، وهو القرن الذى تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية . أجل أرهب أتيلا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ يغير على ممتلكاته ويعيث فيها نهبا وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتيلا شيئاً . وكذلك انحدر النوبيون فى النيل وانتهبوا مصر العليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك فى قدر لا بأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذى خيمت أثناءه على الغرب دياجير الظلام ، فقد شهد فى دول الروم انتعاشاً جسيماً . فإن جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) كان حاكما عالى الهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لاتقل عنه كفاية ، وهى امرأة بدأت حياتها ممثلة . فاسترد جستنيان شمال إفريقية من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب أسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على المشروعات العسكرية والبحرية ؛ بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى . ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى ما يقارب الألف سنة من الزمان .

ظلت دولة آل ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادى . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى وسوريا

ومصر . وكانت تلك الأقطار لا تزال ترفل فى القرن الأول الميلادى فى بحبوحة الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان ، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة الذابح والنهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم تزل بها حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهدمة تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينج من عملية الإفقار والفوضى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التى ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم. كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

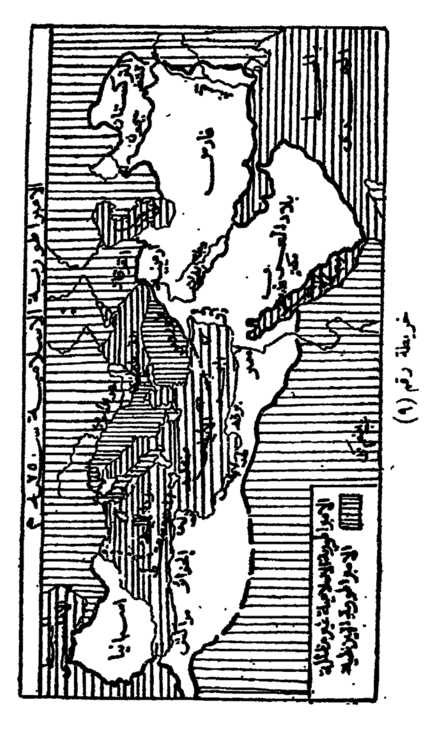
وفى غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا نحبهما وزايلا هاتين الإمبراطوريتين المتناحرتين المضمحلتين. ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد الموروث عن الماضى العظيم ويحوطونها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تعوزه تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة المهذبين الأحرار الذين تعودوا فى التفكير عادات الجرأة والاستقلال فى الرأى ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح والبحث الحر التى تسنها تلك المؤلفات العتيقة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هى المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مرد ما انتاب الذكاء الإنسانى من العقم والانتكاس أثناء ذلك العصر. فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحى النشاط الحر للعقل الإنسانى .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات فى العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتمركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إلها ، وجعل القياصرة أرباباً بحيث أقيمت لهم الهياكل والمعابد . وجعل تقديم البخور امتحانا وشاهدا على الولاء لدولة الرومان. على أن هذه الديانات الغابرة كانت فى جوهرها ديانة عمل وواقع . فهى لم تكن لتغزو العقول . فإذا تقدم إنسان بقربانه وانحنى أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد، فهو لا يترك فقط ليفكر فى الله على أية شاكلة يهواها ، بل ليقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذى ظهر عندئذ فى العالم ، وخاصة المسيحية ، فإنها تتجه

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تكتفي بالمطالبة بمسايرة الرجل لمن حوله في الإيمان بل تنشد الاعتقاد الواعي . ومن الطبيعي أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هـــذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجه تصميم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأي خاطيء ، فضلا عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر عيباً ذهنيا بل خطأً خلقياً قـــد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويقضي عليـــها بالدمار السرمدي .

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذي أسس الأسرة الساسانية في القرن الثالث الميلادي ، وقسطنطين الأكبر الذي أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتمساً عونها ، وذلك لأنهما وجدا في تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع ديني . أما في فارس ، فإن أردشير وجد في عقيدة زرادشت الفارسية العتيقة بكل ما حوت من كهنة ومعابد ونار مقدسة تتقد دواماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة الدولة . فلم تـكد نهـاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن ماني مؤسس « المانوية » وهي عقيدة جـــديدة ، صلب في ٢٧٧ وسلخ جلده . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد في مقاومة الزندقات المسيحية . ذلك أن فكرات العقيدة المانوية أثرت في المسيحية ولم يكن بد من محاربتها بأفظع الطرق ؛ وحدث في مقابل ذلك أن تأثرت المبادىء الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبهذا أصبحت جميع الأفكار متهمة مريبة . فليس عجيباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأفول التام طوال فترة التعصب هذه ، والعلم يستلزم قبل كل شيء عقلا حراً في عمله غير مضطرب في تفكيره .



خريطة رقم (٩)

عاد سيرته الأول فى ثنايا تلك النهضة المدهشة التى نهضها العالم السامى . فالآن دبت الحياة فى بذرتى أرسطو ومتحف الاسكندرية ، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان فى الإثمار . لقد تم للعرب فى حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم . فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التى نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجم الغول والدبران والعواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب فى أطباق السماء وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أصحاب الصنعة » Aldhemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الهمجية من حيث احتفاظهم بطرائقهم ونتائجها فى طى الكتمان ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب منها على الحياة البشرية عواقب بعيد الأثر . ولا شك أنهم وفقوا إلى مستنبطات فى المعادن والتطبيق الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا ينشدونهما عبثاً ، أما أول الغرضين « حجر الفلاسفة » الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب ، أما الغرض الثانى فهو إكسير الحياة . وهو ترياق يعيد الشباب ويطيل العمر إلى ما لا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المحفوفة بالمشقة والصبر ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصبح جهود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويداً رويداً وبالتدريج البطىء للغاية فإنهم شعروا بالفائدة التى تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطىء غير المحسوس .

كان قدماء أهل الصنعة ينشدون حجر الفلاسفة الذى يراد له أن يحيل المعادن الدنيئة إلى ذهب ، كما يطلبون إكسيراً الخلود ؛ ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبى الذى يوشك فى خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لا حد له على العالم كله بل وعلى مصائره هو نفسه .

الفصل الخامس والأربعون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هـذا العالم فى القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطا . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هى صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شىء ، تحت حكم الآريين إلا الممتلـكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت أسبانيا كلها تقريبا . وقد انـكمش العالم الهلينى العظيم حتى أصبح بضع ممتلـكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شىء يخلد ذكرى العالم الرومانى سوى اللسان اللاتينى الذى ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى النقيض القوى لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الذلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفذها الأيام تماماً . فإنهم وإن حصروا آنئذ فى منطقة أوربا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً فى حمأة أفـكارهم الاجتماعية والسياسية ، قد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دائبـة نظاما اجتماعياً جديداً ويعدون العدة ، بغير وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيرا مما استمتعوا به فى الماضى .

وقد أسلفنا عليك كيف أنه حدث فى بداية القرن السادس أن أوربا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحـكام المحليين الذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاقته . وفى ذلك ما فيه من الاضطراب الذى لا يبشر بأى دوام لتلك الحالة ؛ لذا نجم بين ظهرانى تلك الفوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعى الذى بقيت آثاره فى الحياة الأوربية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعى ضربا من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن الرجل الفرد أحس فى كل

مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقايضة شيء من حريته بشيء من المعونة والحماية . فالتمس لنفسه رجلا أقوى منه شوكة ليكون سيداً له وحاميا ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع المكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ماله من ممتلكات وكذلك الشأن مع سيده الذى كان يحس الأمان فى الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت المدن كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط مماثلة لهذه . ومن البديهى أن الولاء كان يطالب فى كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائيا ؛ فكأن النظام كان ينمو إلى أسفل مثلما كان ينمو من أسفل إلى أعلى . وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمى يختلف اختلافا بعيداً بمختلف المناطق ، ويسمح فى البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام ، نحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تعلو حتى أصبح بعضها ملكيات واضحة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضى المنخفضة (بلجيكا وهولندة) ، وسرعان ما ظهرت أيضا ممالك قوطية غربية ولومباردية وقوطية.

وعندما عبر المسلمون جبال البرانس فى ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقعى » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سلالة كلوفيس ، وهناك عند بواتييه (٧٣٢) لقوا على يديه هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا فى الواقع السيد المتحكم فى أوربا فى رقعة تمتد شمال جبال الألب ، من جبال البرانس حتى بلاد المجر . وكان يسيطر على العدد الجم من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وباللغتين الجرمانيتين العليا والسفلى [١] . وما لبث ابنه ببين أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على مملكتهم وتاجهم . ووجد حفيده شرلمان الذى بدأ حكمه فى ٧٦٨ نفسه حاكما على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يعيد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) ويتلقب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

---

(١) الجرمانية العليا : هى لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبيها — والجرمانية السفلى هى لغة السهول الشمالية المنخفضة [المترجم]

وعندى أن فى مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوربا استعراض التاريخ العالمى الرحيب الأفق ، أقول فى مستطاعنا أن نتبين أكثر من أى مؤرخ قومى بحت ، الأثر الأليم المعوق الذى جلبه على أوربا إحياء ذلك اللقب الرومانى الإمبراطورى . إذ أن أوربا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقبها مدة تزيد على ألف سنة ، استنفد أثناءها كل طاقاتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرأيتها تتأجج فى عقول الأوربيين تأجج الوسواس[1] فى عقل مخبول به مس من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح كبار الحكام ، الذين يمثلهم شرلمان (ومعناها شارل الأكبر) — إلى التلقب بلقب قيصر . وكانت مملكة شرلمان تتكون من مجموعة معقدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح فى قوة طابعها البربرى . وقد تعلمت معظم هاته الشعوب الجرمانية فى غرب نهر الرين أن تنطق بلهجات تلونت باللون اللاتينى ولم تلبث فى النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية المماثلة فى جنسها لتلك التى فى غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى . لذا لم يعد التواصل سهلا بين طائفتى هؤلاء الغزاة البرابرة ، وسرعان ماحدث الصدع بينهما . وزاد فى تيسير الصدع أن عرف الفرنجة جعل من الطبيعى تقسيم إمبراطورية شرلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة فى تاريخ أوربا منذ أيام شرلمان فما بعدها ، أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك ، وهم يكافحون فى سبيل رياسة مقلقلة على من عاصرهم فى أوربا من ملوك وأمراء وأدواق وأساقفة ومدن ، فى حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية — يزداد عمقا فى طوايا تلك الخصومة . وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لكل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتمنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الوقع السيىء وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى فى الإضطراب السياسى بأوربا فهو تصميم الكنيسة بروما ألا تسمح لأى أمير علمانى إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقعياً . وقد سبق للبابا

---

(١) الوسواس: (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائما تتلون عادة بلون عاطفى قوى ، وغالبا ما تنطوى على دافع إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية وتسمى فى علم النفس باسم الحواز أو الانحصار . [المترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الدواعى العملية البحتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة المتداعية المتدهورة ؛ ولئن أعوزته الجيوش لقد كان يملك على الأقل مؤسسة ضخمة للدعاية لسانها قساوسته المنتشرون فى كل أصقاع العالم اللاتينى؛ولئن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، لقد ملكت يمينه فيما تتصور أخيلتهم مفاتح الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التى ترتسم أمامنا عن العصور الوسطى بأكملها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للمساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيراً ، ـ كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعاً لسلطانه بوصفه السيد الأعلى للنصرانية ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا وبإعمال المكر والدهاء تارة أو بخسة وضعف أخرى (وذلك لأن البابوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ الذين لم يزد حكم أحدهم عن سنتين فقط) .

بيد أن هذه الخصومات الناشبة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوربا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يتكلم الرومية ويطالب أوربا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شرلمان أن يبتعث الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من ابتعاث القسم اللاتينى منها . فكان من الطبيعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالمنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين مثيلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان . وبديهى أن لا ينظر إمبرطوار القسطنطينية ولا بطريقها بعين الرضا إلى هذا الادعاء ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة فى موضوع الثالوث المقدس فكان نقطة الانفجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عداوة . وينبغى أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها من الخصومات التى ذكرناها فى تعدادنا للمنازعات التى بددت قوى عالم النصرانيه اللاتينية فى العصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحى المتفرق الكلمة ، انهالت الضربات من قبضة



خريطة رقم (١٠)

مجموعات ثلاث من الخصوم . فإن منطقة بحر البلطيق والبحار الشمالية ظلت مقيمة بها مجموعة من القبائل النوردية لم تعتنق المسيحية إلا ببطء شديد وبغاية النفور والتمنع ؛ وهى قبائل النورمان (أهل الشمال) جنحت تلك القبائل إلى البحار واحترفت القرصنة، وأخذت تغير على شواطىء عالم النصرانية جميعاً حتى أسبانيا . وقد تقدموا قبل ذلك إلى المناطق العليا من الأنهار الروسية حتى بلغوا المناطق القاحلة الوسطى ، ثم نقلوا سفنهم إلى الأنهار المتجهة صوب الجنوب . وظهروا كقراصنة على صفحة بحر قزوين والبحر الأسود وأقاموا الإمارات بالروسيا ؛ وهم أول شعب سمى باسم الروس . وأوشك هؤلاء النورمان الروسيون على الاستيلاء على القسطنطينية يوما ما . وكانت انجلترا فى مستهل القرن التاسع قطراً متنصراً يسكنه قوم من الأرومة الألمانية السفلى تحت ملك هو إجبرت ، وهو تلميذ لشرلمان ينضوى تحت حمايته ولكن النورمان اغتصبوا نصف المملكة من خلفه ألفريد الكبير (٨٨٦) ، ثم جعلوا من أنفسهم فى عهد كانوت (١٠١٦) سادة على البلاد . وجاءت ثلة أخرى من النورمان بقيادة رودلف العداء (٩١٢) ففتحت شمال فرنسا التى أصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم نورمانديا .

وامتد سلطان كانوت فلم يقتصر على انجلترا وحدها بل شمل بلاد النرويج والدانيمرك أيضاً ، ولكن إمبراطوريته القصيرة الأجل تمزقت عند موته إرباً ، بسبب نقطة الضعف

السياسى للشعوب البربرية جمعاء ، وهى انقسام أبناء الحاكم والرئيس على أنفسهم. ولعله مما يثير اهتمامك أن تتأمل النتائج التى كانت تترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذى قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوتى جرأة مدهشة وهمة نادرة . تقدموا بمراكبهم فى البحر طويلا حتى لقد بلغوا إيسلنده وجرينلنده . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوربيين . وقد حدث فيما يلى ذلك من عهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستهوى ألبابنا تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التى كانت نواتها مملكة كانوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى الروسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوربيين المصطبغين بالصبغة اللاتينية كان يترل خليط من القبائل السلافية (الصقلبية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجريون (المنغاريون) الذين ظلوا يتقدمون غربا طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدهم شرلمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته فى بلادهم الحالية ؛ وأخذوا يغيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوربا المستقرة على جارى عادة الهون أسلافهم المشابهين لهم. وقد اخترقوا ألمانيا كلها فى ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا فى تلك البلاد سرقة وتحريقا وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التى نزلت بأوربا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فمدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير؛ ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان الغرب .

حتى إذا أحاطت هـذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عواهل طامحين إلى العلا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لايفقهون لها معنى وأخطار لايستطيعون لها تقديراً ، راحوا يضطلعون بمسرحية غير ذات غناء، هى إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخامر الحياة السياسية لأوربا الغربية منذ عهد شرلمـان مخامرة حالات الهوس ، على حين كان النصف اليونانى من الدولة الرومانية يضمحل فى الشرق ويذوى حتى لم يبق منه فى النهاية شىء خلا مدينة تجارية فاسدة متدهورة هى القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضى المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوربا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد العقيمة غير المثمرة مدة ألف سنة بعد أيام شرلمان .



خريطة رقم (١١)

إن اسم شرلمان يتبدى عظيما ضخما على صفحات التاريخ الأوربى ، ولكن قلما رأى أحد شخصيته جلية واضحة للعالم . كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، ولكن إكباره العلم كان جسيما ؛ وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات أثناء تناوله الطعام ، كما كان شديد الولع بالمجادلات اللاهوتية ؛ وكان كلما ذهب إلى مشتاه فى إكس لاشابيل أو مايتز جمع حوله طائفة من العلماء ليلتقط الشىء الكثير مما يدور بينهم من حديث . فإذا خل الصيف انطلق لقتال العرب الأندلسيين مرة ، أو الصقالبة والمجريين أخرى ، أو السكسون وغيرهم من قبائل الجرمان التى لم تبرح على الوثنية . فهل راودته فكرة تولى القيصرية بعد رومولوس أوغسطولوس قبل استيلائه على شمال إيطاليا ، أم ترى أوحاها إليه البابا ليو الثالث ، الذى كان يتوق إلى فصل الكنيسة اللاتينية عن القسطنطينية ؟ — ذلك ما لاسبيل إلى الوصول إلى رأى حاسم فيه .

لقد جرت فى روما مناورات ومداورات من أعجب ما يكون . فالبابا يريد أن يظهر

على الملأ أنه هو الذى منح التاج الإمبراطورى للامبراطور المنتظر الذى لم يكن يريد ذلك الظهور. ونجح البابا فى تتويج ضيفه الغازى على غرة منه بكنيسة القديس بطرس فى يوم ، عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شرلمان ونادى به قيصرا وأوغسطوس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شرلمان بأى حال عن الطريقة التى تم بها الأمر ، الذى ظلت ذكراه تجرح كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ؛ كما أنه ترك لابنه أدق التعليمات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتتويجه ؛ وأن يتناول التاج بيديه ويضعه بنفسه فوق رأسه . وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل المديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدنيوية . على أن لويس الورع أبن شرلمان أغفل تعليمات أبيه وخضع للبابا خضوعاً تاماً .

وتمزقت إمبراطورية شرلمان شر ممزق بموت ولده لويس الورع ، واتسعت شقة الصدع بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذى تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى الصياد ، وهو الذى انتخبته ملكا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم فى ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا فى ٩٦٢ . وانقرضت هذه الأسرة السكسونية فى أوائل القرن الحادى عشر وحل محلها حكام آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع المقيمين فى الغرب والناطقين بلهجات فرنسية منوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعنى أحفاد شرلمان ، كما لم يحدث قط أن جزءاً من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صغار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت مملكة فرنسا فى ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى يد هيوكابت ، الذى كان أحفاده يحكمون فرنسا فى القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيوكابت إلا منطقة صغيرة نسبيا تحيط بمدينة باريس .

وفى ١٠٦٦ هوجمت انجلترا من جهتين فى وقت واحد تقريبا ، فغزاها نورمان

النرويج بقيادة هارولد هارد رادا ، كما هاجمها من الجنوب النورمان ذوو الطابع اللاتينى بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك انجلترا فهزم الغازى النرويجى فى معركة جسر ستامفورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عنـد هاستنجز . وفتح النورمانديون انجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندناوية التيوتونية والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من منازعات . وظل الإنجليز مشتبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك المـدة الضخمة يبدون قواهم فى ميادين القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يثير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلمان تبادل الرسائل مع الخليفة هرون الرشيد ، وهو نفس هرون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هرون أرسل السفراء من بغداد ـ التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق ـ يحملون الهدايا والألطاف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحد الفيلة ومفاتيح الناووس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبير أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين فى أورشليم ولمن منهما حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه فى نفس الوقت الذى كانت أوربا تصلى فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب ومايصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوربا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لايزالان عندهم محتفظين بنشاطهما القوى ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان فى إمكان العقل البشرى أن يتنقل فى أبراج التفكير دون أن تعتاقه مخاوف أو خزعبلات. وكذلك اشتدت قوة الحياة الفكرية فى أسبانيا وشمال إفريقية التى أخذت فيها الفوضى السياسية تدب فى أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون فى آرائه إبان تلك العصور التى رانت فيها الظلمات على أوربا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التى طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقى من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتخذت الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناشطين فكرياً فى الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية أثناء القرن العاشر

وذلك بينما دب دبيب الانقسام والاضمحلال فى دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بعلاقة الميديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرنا ، وحدث فى القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك السلجوقيون زحفت على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكما بالإسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم وأسيرا فى أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك ينزلون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء فى ١٠٧١ فى معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاح الأتراك البلاد قدما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا . ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية ، وأخذوا يعدون العدة للاجهاز على المدينة نفسها .

دب الرعب فى قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكا فى حرب ضروس مع ثلة من المغامرين النورمان استولت على مدينة دورازو ؛ ومع شعب تركى شديد الشراسة هو البشناق (البتشنج) ، الذين كانوا يغيرون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو فى محنته أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن يجدها ، ومما يجدر ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور الغرب بل التمس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للنصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثا بإربان الثانى .

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن ، والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكراها قوية الإشراق فى عقول الناس ، ولا شك أن هذه الكارثة التى أصابت بيزنطة قد تبدت لعين البابا فرصة ثمينة يعيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف . وفضلا عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعالجة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتينى أيما إزعاج ، وأول الأمرين هو « عادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث الفوضى فى الحياة الاجتماعية ، وثانيهما هى طاقة القتال الفياضة التى يتسم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المتنصرون ولاسيما الفرنجة منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تشن على الترك مغتصبى بيت المقدس كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥)

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الكفرة .
وراح رجل يدعى بطرس الناسك يجوب الآفاق ويبث دعايته فى الجماهير بكل من فرنسا وألمانيا ، وكان يتجول فى البلاد فى ثوب خشن حافى القدمين وممتطيا حماراً ؛ وهو يحمل صليباً ضخما ويخطب الناس فى الشوارع والأسواق والكنائس . وكان ينعى على الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويذكر الناس بالعار الذى يعود عليهم من بقاء الناووس المقدس فى أيد غير مسيحية ، وعند ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية فى استجابة الناس لها . فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربى ، وعند ذلك اكتشفت النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التى صدرت آنذاك عن عامة الشعب تحمساً لفكرة واحدة ، شيئاً جديداً لم يعهد له مثيل فى تاريخ البشر . هى شىء ليس له من ضريب فى سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت فى نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودى بعد تحرره من الأسر البابلى ، كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدى مماثلة لهذه . ومن المحقق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التى ظهرت فى هذا العالم مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعلمين والمبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وعيسى والحواريين ومانى ومحمدا ، كانوا جميعاً معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا يواجهون ضمير الشخص بالله رأساً . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى الفتيشة والحزعبلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير البشرى ، وكان النوع القديم من الدين يدور حول المعبد ، والكاهن المتدرج فى أسرار العقيدة والقرابين الرمزية ، كما كان يحكم الرجل العادى بالخوف حتى لكأنه العبد الرقيق . أما ذلك النوع الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنسانا .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة فى التاريخ الأوربى ، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديموقراطية الحديثة ، وإن لم يخالجنا شك فى أن الديموقراطية الحديثة تحركت فعلا فى ذلك الزمان ، وسنجدها

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسأل أسئلة اجتماعية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك أن هذه الحركة الأولى الديموقراطية انتهت بنهاية أليمة فاجعة . فإن حشود ضخمة من العامة ، هى فى الواقع جماهير محتشدة أكثر منها جيوش ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوربا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها أو معدات تتزود بها ، وهى تريد إنقاذ القبر المقدس . وتلك هى « الحملة الصليبية الشعبية » . وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر — الذين دخلوا عندئذ فى المسيحية وشيكا — كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض الفظائع وهب المجريون فأعملوا فيهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلطت عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكره كسابقيه ، فزحف شرقاً بعد أن أعمل الذبح بشدة فى يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور ، حيث هزمهما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحوهما ذبحا ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوربية ، بوصفها حركة شعبية .

وفى السنة التالية (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات المقاتلة الحقة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية فى الروح والقيادة ففتحوا نيقيه عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريبا نفس الطريق الذى سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرنا . وقد عطلهم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاصرة بيت المقدس فى يونية ١٠٩٩ ، وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت المذبحة التى دارت بها رهيبة فظيعة فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذى سال فى الشوارع أنهارا ، وما أرخى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سبيلهم قتالا إلى كنيسة القبر المقدس وتغلبوا على كل مقاومة فى المدينة ؛ وهناك جثوا للصلاة ملطخين بالدماء ، متعبين مكدودين يبكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريق القدس الرومى (الأرثوذكسى) نفسه وهو فى ظل اللاتين المنتصرين فى موقف أسوأ من موقفه فى ظل الأتراك ،

واكتشف الصليبيون أنهم وقعوا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاتلون الطرفين جميعا . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة(١) بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا فى أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، فى سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها .

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت فى أيدى المسلمين فى ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت فى استخلاص الرها من أيدى العرب ولكنها أنقذت أنطاكية من الوقوع فى نفس المصير .

وفى عام ١١٦٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية مغامر كردى اسمه صلاح الدين جعل من نفسه حاكما على مصر . فدعا إلى حرب دينية ضد النصارى ، واسترد بيت المقدس فى ١١٨٧ ، وبذا استفز أوربا القيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت فى استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداءها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأتراك تماما ولم يجردوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة فى ١٢٠٤ . وكانت زعيمة هذه المغامرة هى مدينة البندقية الثغر التجارى الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية . ونصب فى القسطنطينية إمبراطور لاتينى هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمة البابوية ، مثلما كان الحادى عشر عصر تفوق الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان . وفى هذا

---

(١) الدولة الحاجزة (Buffer State): دولة محايدة تقع بين دولتين متعاديتين ويؤدى وجودها إلى التقليل من خطر الحروب بينهما [المترجم]

العصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد فى عالم المسيحية تحت حكم البابا وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه فى أى وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفى إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار فى مناطق كبيرة من أوربا . أجل إن روما نفسها دارت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريمة ؛ فقلما جرؤ كاتب على النهوض لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر أثناء القرن العاشر — فإنهما كانا من الكائنات الكريهة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة فى روحها ومعناها ؛ وفى ظلالها قضت الأغلبية العظمى من القساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها فى حياة مثالية رائدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التى أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى — جريجورى الأكبر ، وهو جريجورى الأول (٥٩٠ — ٦٠٤ م) وليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦ م) ، الذى دعا شرلمان ليكون قيصرا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل دين عظيم ذو سياسة وتدبير هو « هلدبراند » ، الذى تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) ، وهو البابا الذى أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل فى قيام هذه الفترة التى عظم فيها شأن الباباوية والتى تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت للبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقا إلى إرلنده غربا ومن النرويج شمالا إلى صقلية وبيت المقدس جنوبا . وجريجورى السابع هو الذى أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخوص إليه تائبا متيبا بكانوسا وانتظار العفو منه ثلاثة أيام بلياليها واقفا فى ساحة القلعة ، فى ثوب من الخيش وهو حافى القدمين على الثلج . وفى ١١٧٦ ركع الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك بربروسا على ركبتيه بين يدى البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم يمين الولاء .

لاجدال أن المصدر الأول للقوة الكبرى التى استمتعت بها الكنيسة فى القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضمائرهم . على أنها أخفقت فى الاحتفاظ بالمكانة الأدبية التى قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا استهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذى قضى على ثقة العوام الساذجة فى عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستجيبون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟

إن أول مصدر لمتاعب الكنيسة هو فى التحقيق تكديسها للثروة وامتكارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثيرا ماجنح من لاعقب لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن المذنبين التائبين كانوا ينصحون بفعل ذلك ، لذا أصبح مايقارب ربع الأراضى من ممتلكات الكنيسة فى كثير من أقطار أوربا . ومن البديهيات التى لاجدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسامع الناس وتناقلوا فى كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد البابوية الأجنبية ، فإن أراضيهم التى كان ينبغى أن تعول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكرى للملك أو الأمير ، كانت تعول الأديرة والرهبان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضى كانت فى الواقع الذى لاشك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة « التعيينات » أعنى من هو صاحب الحق فى تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجورى السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضمائر رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق فى الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما ، وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق فى جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلمانى فوق الضرائب التى كان يدفعها لأميره .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادى عشر ، وأعنى بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعيينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا فى ذلك الكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه فى حل من واجب الولاء والطاعة له ، وعلى الاعتراف بشخص آخر يخلفه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها ، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة ؛ وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية ولا أداء مراسم الزواج ولا دفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثانى عشر من كبح

جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدهم مراساً ، ومن بث الرعب فى أشد الشعوب جموحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لا يجوز استعمالها إلا فى الظروف الاستثنائية البحتة . ولكن البابوات راحوا يستعملونهما فى النهاية بكثرة فلت مضاءهما وأزالت تأثيرهما . ففى الثلاثين السنة الأخيرة من القرن الثانى عشر ، تحرم إنكلترة وفرنسا وانجلترة على التوالى . كما أن البابوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون — حتى تناهى الأمر إلى أن خمدت روح كل شيء صليبى .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعنيت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تحرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين فى صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ؛ وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ؛ بل كانوا والحق يقال شطراً من الشعب ، ولكن جريجورى السابع حتم عليهم العزوبة ؛ وبذلك قطع الرابطة القوية التى كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين قاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بعجلة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخدوداً عميقاً .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة . فهى تحتفظ لنفسها بالحق فى نظر القضايا التى يكون القساوسة طرفاً فيها بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام وكل من لامعين له ، كما تحتفظ لمحاكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والأنكحة والأيمانات وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف ، وكان على العلمانى أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله فى حين أن التزامات السلم وأعباء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجيباً إذن أن تنمو فى النفوس العداوة والحسد لرجال الدين فى كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضمائر الناس ، فكانت تحارب الحماسة الدينية التى كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك البرىء وعلى المارق صاحب الأمر الخف فى الرأى دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل فى الشئون الخفية ،

كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون المذهبية ، وعندما أخذ والدو يبشر فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجنده بقمعهم بالنار والسيف وهتك الأعراض وبأشد أنواع القساوات بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ — ١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وشتتوا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسيليا وهم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التى أسسها القديس دومينيك (١١٧٠ — ١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المذهبى كانت موضع التعضيد القوى من إنوسنت الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشىء هيئة ، هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بدعياتها المسرفة ، وامتيازاتها الآثمة ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكمة وعقل ، — تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو اطلعت على قصة تدهورها لم تحدثك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الانحلال الذى ينخر فيها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أعظم نقط الضعف فى الكنيسة الكاثوليكية أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحى بأكمله .

فلئن أريد للبابوية أن تفوز حقاً بأطماعها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً فى كل أرجاء العالم المسيحى ، لكان من الواجب الضرورى أن تكون قيادتها فى أيد قوية حازمة وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التى سنحت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب الباباوية إلا رجل كفء قادر فى عنفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتناقش وإياه فى سياسة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بينه ، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لطعن . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق فى التصويت فى انتخاب البابا ، ولا ما إذا كان للامبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت فى الأمر ، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسى المحنك (وهو البابا جريجورى السابع ١٠٧٣ — ١٠٨٥) ، جهداً كبيراً فى تنظيم الانتخاب .

فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحته إياها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أى عدة لتعيين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدى منازعات الكرادلة إلى ترك كرسى الباباوية شاغراً ، الأمر الذى حدث فى بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شىء تتجلى فى تاريخ الباباوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبد جو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جداً ، وكثيرا ما أعلن رجلان أو أكثر أن كلا منهم هو البابا الشرعى ، وهنالك تتعرض الكنيسه لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أى حكم خارجى ليقضى برأيه فى النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهى بخاتمة تثير التساؤل . وقد تترك الكنيسة بعد موته بغير

وثينس ، وتصبح عاجزة عديمة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محله منافس عجوز كل همه أن يقضى على جهوده وينتقصها . وقد يخلفه شيخ ضعيف يترنح على حافة القبر .

لم يكن مفر من أن يدعو هذا الضعف الخاص فى نظام البابابوية إلى تدخل الأمراء الألمان وملك فرنسا والملوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترة ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير فى الانتخابات ، وأن يكون لهم فى قصر اللاتيران بروما بابا يهتم بمصالحهم ويرعاها ، وكلما زاد البابا قوة وعلا شأنا فى الشئون الأوربية ، زادت الضرورة إلى تلك التغيرات ، فليس عجيباً فى مثل تلك الظروف ، أن يكون كثير من البابابوات ضعافاً لاغناء فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالا شجعانا أكفاء .

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستثارة لاهتمامنا ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) ، الذى كان من حسن حظه أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين . وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تكاد تبزهم إمتاعا وأهمية ، هى شخصية الإمبراطور فردريك الثانى ؛ الذى كان ينعت « أدهوشة العالم » ، وكفاح هذا العاهل ضد روما يعد نقطة تحول فى التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ؛ بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيبتهما جريحة جراحا بلغ من خطورتها أن نغرت[1] فى النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للامبراطور هنرى السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى . ورث هذه المملكة فى ١١٩٨ عندما كان طفلا فى الرابعة وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية فى ذلك الحين حديثة العهد بالغزو النورمانى ؛ وكان بلاط الملك شرقياً أو يكاد حافلا بعلماء العرب الواسعى الاطلاع ؛ وقد أسهم بعض هؤلاء فى تعليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم لقوا بعض العناء فى توضيح آرائهم له فكون فى المسيحية رأيا إسلامياً ، كما كون فى الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التربية المزدوجة ، خرج الملك بنتيجة تعسة تعد شيئاً شاذاً فى عصر الإيمان ذاك هى أن جميع الديانات دجل ، وطالما تكلم بملء حريته فى ذلك الموضوع ؛ ويسجل لنا التاريخ كفره (هرطقاته) وتجديفاته .

---

(١) نغر : يقال نغر بمعنى فسد كالجرح إذا سال منه الدم والصديد . [المترجم]

ولما أن شب الفتى ألفى نفسه فى نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان يغلو فيما يطلبه من الفتى القاصر ، فلما آن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشترطاً بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على ما بألمانيا من كفر وزندقة ، وذلك فضلا عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه ولم يقدر البابا على كبحه ، وعدا ذلك طالب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضمر البر بوعده بأى حال . وفى تلك الأثناء حمل البابا العاهل الفرنسى على شن الحرب على رعاياه بفرنسا ، وهى الحملة الصليبية القاسية الدامية التى شنت على اتباع والدو ؛ وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة فى ألمانيا ، ولكن لما كان فردريك أشد كفراً وزندقة من أى « ورعى »[1] بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهى أنه كان يعوزه التحمس لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعندما حرضه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد فى المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل فى التباطؤ فى التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثانى الحصول على التاج الإمبراطورى أقام بصقلية ، التى كان يؤثر الإقامة فيها على المقام فى ألمانيا ، ولم يفعل شيئاً للبر بأى وعد من وعوده لإنوسنت الثالث ، الذى مات فى ١٢١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذى خلف إنوسنت ، أن يكون أحسن حظا مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جرجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وقد صمم تصميماً واضحاً على تسوية الحساب مع ذلك الفتى مهما يكن الثمن . فأصدر قراراً بحرمانه . وحيل بين فردريك الثانى وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل العزاء والسلوى . ومن العجب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصقلى نصف العربى إلا أقل المضايقة . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضاً خطاباً مفتوحاً يسرد رذائله « التى لا يستطيع إنسان إنكارها » ، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام . فما كان من فردريك إلا أن

---

(١) الورعيون : (Pietists) هم أتباع والدو كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أنفسهم بالورع الشديد فى أبسط صور المسيحية الأولى . [المترجم]

أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تنم عن مقدرة شيطانية . وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوربا ، كما أنها أول بيان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها أنحى بالطعن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوربا بأ كملها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاغتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ماتستمتع به الكنيسة من ثراء .

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البر بوعده الذى تأخر انجازه اثنتى عشرة سنة بالخروج فى حملة صليبية . وتلك هى الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨). كانت كحملة صليبية تعد مهزلة . فإن فردريك الثانى ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه فى الأمور ! راح هذان السيدان — وكلاهما ممن انطوت نفسه على التشكك — يتبادلان آراء متجانسة ، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تنتقل بيت المقدس إلى يد فردريك . ولا شك أن ذلك كان ضرباً جديداً من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والمواثيق . وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على القائم رشاش ، ولاحدث « بكاء من فرط السرور » . ولما كان ذلك الصليبى المدهش رجلا محروماً بأمر الكنيسة . فإنه اضطر أن يقنع بتتويج علمانى محض كملك لبيت المقدس ، متناولا التاج من المذبح بيده — وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يجتنبوه . ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التى غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان. تلك هى الشاكلة التى استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، فى القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبى للانتقام له ، فإن تلك الأيام قد ولت ! ! .

ثم عاد جرجورى التاسع فاستأنف فى ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العلنى ، التى سبق للبابوية أن لاقت منها شراً مستطيراً ، على أن الخصومة تجددت بعد وفاة جرجورى التاسع ، عندما تولى كرسى البابوية إنوسنت الرابع ؛ ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطاباً مدمراً من ذلك النوع الذى يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كبرياء رجال الدين وقلة تدينهم ، ونسب كل مفاسد

الزمان لكبريائهم وثرائهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة بصورة عامة — لمصلحة الكنيسة نفسها ، وهو اقتراح لم يغادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبداً .

وسنكف عن الاسترسال فى تتبع أخباره فى أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام . ومن الممكن أن نجمع لك شذرات عن حياة بلاطه فى صقلية . كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مغرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحى . ولكن من الواضح أنه كان رجلا أوتى درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة فى البحث النافع . وقد جمع فى بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لغمر العقل الإيطالى وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربى إلى الطلاب المسيحيين، ومن الفلاسفة الكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذى ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو والتعقيبات التى دونها عليها الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد القرطبى . وفى ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولى، كما وسع المدرسة الطبية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغدق عليها المال . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتاباً فى الصيد بواسطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظته لطبائع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالى ولد فى بلاطه . وقديماً أطلق عليه أحد كبار الكتاب ، اسم « أول العصريين » ، والعبارة تعبر فى كفاية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

وثمه بادرة أخرى أكثر استرعاء للأنظار تدل على تضاؤل حيوية البابوية وانهيار الأركان الداعمة لها . ظهرت تلك البادرة عندما اشتبك البابوات فور ذلك فى نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية . فإن ألمانيا تردت فى مهاوى التمزق أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثانى ، كما شرع الملك الفرنسى فى أن يلعب دور حامى البابا وظهيره ومنافسه وهو الدور الذى كان حق آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من البابوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتى صقلية ونابولى ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولى الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألمانى التى أعقبت وفاة فردريك الثانى ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما فى التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما فى الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية فى (١٢٦١) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكنسى الكاثوليكى تماما ، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط الممالك اللاتينية فى آسيا ، انتهت عظمة البابا فى ربوع الشرق .

وفى ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش البابوية . وكان إيطاليا معاديا للفرنسيين ، قوى الشعور بعظيم تقاليد روما ورسالتها . فظل زمانا يدير الأمور بيد مستأثرة . وقد أقام حفلات اليوبيل فى ١٣٠٠ ، وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج . « وبلغ من عظم مسيل الذهب إلى خزانة البابوية ، أن عين مساعدان اثنان بالجواريف لجمع الهدايا التى وضعت على قبر القديس بطرس . »[1] بيد أن هذا الاحتفال كان نصراً خداعا . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا فى ١٣٠٢ ، وفى ١٣٠٣ أعد البابا العدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك ، ولكن غليوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله فى قصر أسلافه نفسه ببلدة أناجينى . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا المذعور — إذ أنه وجده راقداً فى فراشه وبيده الصليب — وانهال عليه بالتهديد والإهانة . وهب أهل المدينة لإنقاذ البابا بعد يوم أو يومين ، فعاد إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسينى وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقض بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوماً وقد زالت عن عينيه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجينى للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجينى كانت بلد البابا ومسقط رأسه . وأهم ما يستلفت النظر هنا ،

---

(١) ج . هـ . روبنسون .

هو أن الملك الفرنسى ، كان فى هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية يعمل مستمتعاً بكامل استحسان شعبه ؛ فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم (النبلاء والكنيسة والعامة) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات المتطرفة. ولم يتحرك أحد فى إيطاليا ولا ألمانيا ولا انجلتره ، ولم يند من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجرىء الحادش لكرامة رأس المسيحية المتربع آنذاك على عرش الحبر الأعظم. ذلك أن الفكرة القائلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » اضمحلت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تفعل البابابوية شيئاً لاسترداد سلطانها الأدبى . وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ،وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون ، التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت فى الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان فى روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جمعاء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى،وقد تأصلت فى أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر فى ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس ، أعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا لمنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع . ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم . على أن الباباوات الأصلاء ظلوا فى روما ، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيس موالية لهم ،كالإمبراطور وملك انجلترة وبلاد المجر وبولندة وشمال أوربا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا فى أفينيون يظاهرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان مختلفين . وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويلعنهم (١٣٧٨ — ١٤١٧) .

أعجيب إذن أن شرع كل إنسان فى كل أرجاء أوربا يفكر فى شئون دينه بنفسه ؟

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسسكانيين ولا الدومينيكيين إلا عاملين من بين العوامل الكبيرة الجديدة التى شرعت تنشأ فى المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة أو تمزيقها — وهما

أمران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة . وقد تبنت هاتين الجمعيتين فعلا واستفادت بخدماتهما ، وإن استخدمت فى البداية شيئا من العنف مع الجماعة الأولى . بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح فى إظهار العصيان والانتقاد . فقد ظهر ويكليف (١٣٢٠ — ١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف . كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأكسفورد . فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لفاسد رجال الدين وقلة حكمتهم . ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون ، لنشر آرائه فى كافة أرجاء انجلترة ؛ ولكى يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه مات حراً طليقاً لم تمس حريته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التى كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تطق ترك عظامه هادئة فى قبرها . إذ صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنبش عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج فى ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للحرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد ؛ بل كان عملا رسمياً صدر عن الكنيسة .

الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول

ولكن فى أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا الكفاح العجيب غير المثمر فى سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتواصل أحداثه فى أوربا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطرا قائمة على ساق فى مسرح آسيا الأفسح مجالا . فإن شعباً تتريا من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسنم فجأة غارب السيادة فى الشئون العالمية ، وأحرز طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها فى التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو المغول . كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبيلة من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم الهون تقريبا ، فيغتذون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس ، ويعيشون فى خيام من اللباد . ولقد نفضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى فى اتحاد عسكرى معهم . كان معسكرهم المركزى على نهر الأونون بسيبيريا .

وكانت الصين فى ذلك الأوان فى حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد اضمحل فى القرن العاشر الميلادى ، ثم هوت الصين فى هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها فى النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هى إمبراطورية كن (Kin) فى الشمال وعاصمتها بكين . وإمبراطورية صنج فى الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) فى الوسط . وفى ١٢١٤ شن جانكيزخان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على بيكين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غربا وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل فى الهند حتى لاهور ، وفى جنوب الروسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات جانكيزخان وقد صار سيدا على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيبر .

وأسس خلفه أوجداى خان عاصمة دائمة له فى قره قورم بمنغوليا وواصل سيرة ذلك الفتح المدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جدا من الكفاية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صينى جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه فى مدافع ميدان صغيرة .



خريطة رقم (١٢)

أتم أوجداى فتح إمبراطورية كن ، ثم دفع بجيوشه قدما عبر آسيا إلى الروسيا (١٢٣٥)، وهو زحف عظيم يبعث على أعظم الدهشة . فدمرت كيف فى ١٢٤٠ ، وأصبحت الروسيا كلها تقريباً تابعة للمغول . وعاث المغول فى بولنده نهبا وتدميراً ، ثم أبادوا جيشا مختلطا من البولنديين والألمان فى معركة لجنيتز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١ . والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يبذل أى جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل المغولى المنهمر .

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب جيبون المسمى اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها : « إن المؤرخين الأوربيين لم يبدأوا إلا فى الآونة الاخيرة فى إدراك أن الانتصارات التى أحرزها الجيش المغولى باجتياحه بولندة واحتلاله بلاد المجر فى ربيع ١٢٤١ ، إنما اكتسبت بالأعمال الحربية المتقنة ، ولا ترجع إلى مجرد التفوق العددى الجارف . بيد أن هذه الحقيقة لم تصبح بعد أمراً معلوما للجميع ، إذ لا يزال منتشرا بين الناس الرأى الشائع الذى يمثل التتار فى صورة الجيش الوحشى الذى يجترف كل شىء أمامه بقوة الكثرة العددية وحدها ، والذى يرمح بخيوله فى أرجاء أوربا الشرقية دون أية خطة حربية ، مندفعا على ما يعترضه من عقبات ومتغلبا عليها بمجرد الوزن العددى .

« وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط فى وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، فى عمليات حربية تمتد من الفستولا الأدنى ألى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربى فى ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربى . لم يكن فى أوربا قائد واحد ، — وفى مقدمتهم فردريك الثانى — لايعد غمراً (١) قليل الدربة فى الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتاى . ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز المجر السياسى وبالأحوال الدائرة فى بولندة — ذلك أنهم حرصوا مقدما أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجريين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لايكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن المغول وإن أحرزوا النصر فى لجنتز إلا أنهم يواصلوا تقدمهم غربا . ذلك أنهم أخذوا يدخلون فى أراض تكسوها الغابات والتلال ، ولاتتناسب وطريقتهم فى القتال ، لذلك انحرفوا جنوبا واستعدوا للاستقرار ببلاد المجر ، وأخذوا يعملون الذبح فى ذوى قرباهم من المجريين أو يتمثلونهم ، على نحو مافعله هؤلاء من قبل فى الإسكيذيين والآقار والهون الذين اختلطت دماؤهم هناك . ولعلهم كانوا ينوون أن يقوموا من وادى المجر بالإغارة غربا وجنوبا مثلما فعل المجريون فى القرن التاسع والآفاز فى السابع والثامن والهون فى الخامس ، ولكن أوجداى خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش فى ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تتراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية . فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه مانجوخان فى منصب الخان الأكبر فى ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاى خان حاكما على الصين . وأصبح قوبلاى خان إمبراطور الصين المعترف به فى ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التى دامت حتى ١٣٦٧ . وفى نفس الوقت الذى كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها فى بلاد الصين ، كان أخ آخر لمانجو هو هولاكو ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول فى ذلك الزمان

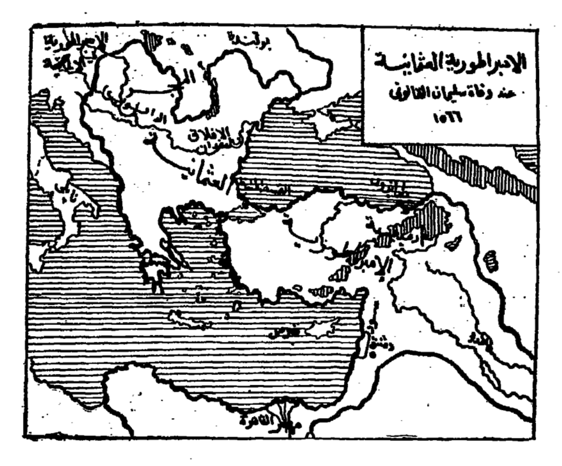
(١) الغمر (بكسر الغين) من لم يجرب الأمور من الرجال . [المترجم]

عداوة مريرة للاسلام ، ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا فى تدمير نظام الرى السحيق القدم الذى ظل على الدوام يجعل من أرض الجزيرة بلادا رغيدة آهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابا من الخرائب والأطلال ، لاتتسع إلا العدد القليل من السكان . ولم يدخل المغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشا لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وانحسر سيل النصر المغولى بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذيين كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفض الصينيون عن كواهلم حكم أسرة يوان فى ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التى ازدهرت من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤ . على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية فى السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ ، عندما نبذ غراندوق موسكو ولاءه ووضع أساس الروسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة المغول أمدا وجيزا فى الرابع عشر فى عهد تيمورلنك ، وهو من سلالة جنكيزخان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، واتخذلقب الخان الأعظم فى ١٣٦٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهى . ولكن الإمبراطورية التى أسسها انتهت بموته . ومهما يكن من شىء ، فإن حفيدا لذلك الفاتح تيمور وهو مغامر اسمه بابر استطاع فى ١٥٠٥ أن يجمع جيشا مزودا بالمدافع هبط به على سهول الهند . ومالبث حفيده أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) أن أتم فتوحه ، واتخذت هذا الاسرة المغولية دلهى قصبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن عواقب الاكتساح المغولى الكبير الأول فى القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانه بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة فى بحر من العثمانيين . وفى ١٤٥٣ استولى السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد إذ هاجمها من الجانب الأوربى بعدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجا عظيما فى أوربا ، وتحدث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطه رقم (١٣)

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلاطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر ومصر ومعظم إفريقية الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هنالك فى القرن الخامس عشر الاشيئان عوضا المسيحية عما أصابها من نقص فى الممتلكات . وأول هذين الشيئين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ؛ وثانيهما استرداد المسيحيين أسبانيا رويداً رويداً من يد العرب . ففى ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر دولة إسلامية فى شبه الجزيرة فى يد فرديناند ملك آرجونه وزوجته إزابيلا ملكة قشتالة .

ولكن كبرياء الترك لم تكسر شوكته إلا فى ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية التى أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدى المسيحيين .

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثانى عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوربى أخذ يسترد شجاعته وينتهز فرصته الموائمة ، ويستعد ليتناول من جديد قصب القاصرات الذهنية الذى حمله أول من بحثوا فى العلم من الإغريق ، وصولجان النظر التأملى الذى تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطالى، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية الممهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستثارة التى أحدثتها تلك الحملات فى عقول الناس بما جلبته إليهم من خيرات . أخذت التجارة تنتعش ؛ وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين العلمانيين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسة وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأنفرس وهمبورج ونورمبرج ونوفجورود وويسبى وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، وبديهى أنه حيثما اتجر الناس وسافروا تحدثوا وفكروا . وكانت المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى فى اضطهاد من يتهمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك فى سلطان الكنيسة وإلى التساؤل والمناقشة فى المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب ثم الأصل فى إرجاع أرسطو إلى أوربا ، وكيف أن أميرا مثل فردريك الثانى كان كالمجاز الذى استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن تعمل عملها فى العقل الأوربى الناهض . على أن اليهود كانوا أعظم أثراً فى تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود فى حد ذاته مثار استفسار حول مدعيات الكنيسة . ولا تنس أخيراً أبحاث قدامى الكيماويين السرية الفاتنة ؛ وكيف أخذت تنتشر فى كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم فى العلم التجريبى ، بصورة ضئيلة وخفية إلا أنها مثمرة أيضا .

والحركة التي ديت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأي حال على الأثر والمتعلمين . فإن عقل الرجل العادي تيقظ في هذا العالم ، على شاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الحمائر الفكرية حيثما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد. فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك - إذا لزم الأمر الشجاعة التي تفيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

وأخذت رحى المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوربا منذ زمن بعيد يرجع إلى القرن الحادي عشر، كأن جامعات عظيمة ناهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من المراكز الهامة . وهنالك شرع علماء القرون الوسطى يثيرون من جديد طائفة من المسائل تتصل بقيمة الكلمات ومعناها ويتناولونها بحثاً ،وكان هذا تمهيداً لابد منه للتفكير الصافي أثناء عصر العلوم الذي جاء في أعقاب ذلك . وهنالك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ ممتاز ، هو روجر باكون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابة ١٢٩٣) ، وهو راهب فرنسسكاني من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أبا العلم التجريبي العصري . ولا شك أن اسمه جدير بأن يمجد ويخلد في كتابنا هذا تمجيداً لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتاباته إنما هي حملة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهلة وهو شيء ينطوي على جرأة لا يصدقها عقل وربما استطاع إنسان في هذه الأيام أن يخبر عالمه أنه سخيف قدرما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليبه لا تزال صبية شبيهة بعبث الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأي أذى جثماني كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا — حين يخلو وقتهم من الذابح أو من أن تعمل فيهم يد المجاعة أو الأوبئة فتكا وإبادة ، — موقنين يقيناً عنيفاً بحكمة معتقداتهم وا كتمالها وأنها خاتم المعتقدات جميعاً ، نزاعين إلى الغضب المرير من وضعها موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجر باكون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصار في ظلمة ليل حالك . وقد مزج هجماته على جهالة عصره بطائفة ثمينة من المقترحات الهادفة إلى زيادة المعرفة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبعث حية من جديد حين ترى تحمسه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنغمة التي لم يفتأ

روجر باكون يرددها ، والتبعة التي رفعها على كواهله ، هي : « التجريب والتجريب » .

بيد أن روجر باكون شنع على أرسطو . ولم يسلك ذلك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقبعون في بيوتهم مكبين على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطاع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب في لهجته المتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرقت كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدى إلا إلى ضياع الوقت وإلى الخطأ وزيادة الجهل . » وهو شعور ربما ردده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعبد عبادة — مع أنها مدونة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح ذلك روجر باكون .

وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من التقية دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحكمكم المذاهب الاعتقادية والسلطات المتحكمة ، وانظروا إلى العالم ! » ولطالما شهر باكون بمصادر أربعة للجهل هي احترام ذوى السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة للتعلم مع اتصافها بالغرور والكبرياء . « فلو لم تتغلبوا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة : —

« في الإمكان وجود آلات تمخر البحر دون مجداف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللائقة للنهر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك . يمكن صنع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Cum impeto Inoe Stimabile ، وهي الصورة التي تصورها العربات ذات المناجل التي كان القدماء يحاربون فوقها . ثم إن في الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير . »

هكذا كان روجر باكون يكتب ، ولكن كان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته المنظمة فى ارتياد خبيئات القوى المجهولة المختزنة ، أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذى يحجب الشئون البشرية .

على أن العالم العربى لم يمنح المسيحية حافزاً يحفز فلاسفتها وكيماوييها فقط ؛ بل أعطاها الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذى جعل فى الإمكان انتعاش أوربا فكرياً .

نشأ الورق أصلا فى الصين ، حيث يرجع استخدامه فى الراجح إلى القرن الثانى ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين فى سمرقند عام ٧٥١ م ؛ فردوهم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض جهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم مخطوطات مسطرة على ورق عربى مصنوع فى القرن التاسع فما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية عن طريق بلاد اليونان أو بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس أثناء استرداد المسيحيين لأسبانيا . على أن الإنتاج تدهور فى ظل الأسبان المسيحيين تدهوراً محزناً . ولم يتيسر صنع الورق الجيد فى أوربا المسيحية إلا فى نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا رائدة العالم فى هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا فى القرن الرابع عشر ، على أنها لم تكثر ويرخص سعر الورق رخصاً يجعل طبع الكتب أمرا ممكنا إلا عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لابد منها ، ذلك أن الطباعة من أبسط الاختراعات وأشدها ظهورا للعيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية فى طور جديد أقوى كثيرا من كل ما سبقه . وكفت عن أن تكون رشحاً ضئيلا يتسلل من عقل إلى عقل ؛ وأصبحت فيضاً غامراً ، اشتركت فيه آلاف من العقول تضاعفت للنور فغدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

وثمة نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة — هى ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب المقدس فى العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هى رخص سعر الكتب المدرسية . وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريعاً فلم يزدد عـــدد الكتب فى العالم زيادة عظيمة وحسب ، بل إن الكتب التى كانت تصنع آنذاك كانت أوضح لبصر القارىء ، فهى لذلك أسهل عليه فهما . وبدلا من الإكباب لو قمتن كتابة معقربة ، ثم محاولة فهم مدلولها أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا أثناء القراءة دون أن يتعاق تفكيرهم عائق . وبفضل هذه الزيادة فى سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكف الكتاب عن أن

يكون ألعوبة مبرقشة شديدة الزخرفة ، أوطلسما ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس فى كتابة الكتب ليقرأها عامة الناس ويستمتعوا بحنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربى .

ظللنا حتى الآن نعالج نصيب العرب فى النهضة الأوربية . فلنتجه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فإنها أثارت الخيال الجغرافى لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوربا الغربية تنعمان ردحا من الزمان فى ظل الخان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فانفتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعاً ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الخان فى قره قورم . وأزيلت إلى حدما جميع الحواجز التى فصلت بين أوربا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت البابوية آمالا كباراً على إدخال المغول فى المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة حتى ذلك الحين هى الشامانية(١) ، وهى ضرب بدائى من الوثنية . فاجتمع فى بلاط المغول مبعوثو البابا ، وكهان بوذيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافى من الحديث عن حبهم للاستطلاع ورغبتهم فى العلم .

وقد كان فضل المغول جسيما وأثرهم فى تاريخ العالم عظيما . لابوصفهم شعباً ذا أصالة واستحداث ، بل كنقلة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جانكيز أوقوبلاى (الرومانسية) المبهمة ، يجنح إلى تقوية الرأى القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لايقلون فى الفهم والابتكار عن أى من الإسكندر الأكبر ذلك الإنسان الزاهى الوهاج والأنانى أيضاً ، أو شرلمان ذلك اللاهوتى الأمى الناشط الذى ابتعث أشباح الماضى السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار للبلاط المغولى رجل من البندقية اسمه ماركو بولو ، دون قصته فيما بعد فى كتاب . ذهب إلى الصين حوالى ١٢٧٢ مع أبيه وعمه ، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين فى نفس الخان الأعظم عظيما ،

---

(١) الشامانية : ديانة شمال آسيا وتقوم بوجه خاص على السحر والشعوذة . [المترجم]

وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ؛ فأعادهما إلى بلادهما التماسا للبحث وطلب للعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية منوعة أثارت حبه للاستطلاع . فكأن زيارتهما بصحبة ماركو هى الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث فى رحلتهم السالفة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لابد أنها سهلت عليهم السفر تسهيلا عظيما ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئاً من زيت القنديل الذى يوقد فى بيت المقدس عند الناووس المقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية . إذ اضطرهم إلى التوغل شمالا على تلك الشاكلة ، إغارة سلطان مصر فى ذلك الوقت على ممتلكات المغول . ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسى ، كأنما يزمعون الرحلة بطريق البحر . والتقوا فى هرمز ببعض تجار الهنود . على أنهم لسبب ما لم يقلعوا بالسفن ، بل عرجوا بدل ذلك شمالا مخترقين الصحارى الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلخ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبطريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادى نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك فى بكين استقبلهم الخان الأعظم بحفاوة بالغة .

وسر قوبلاى بوجه خاص من ماركو ، الذى كان صغيراً ذكى الفؤاد ، ومن الجلى أنه كان يتقن اللغة التتارية تماما فعين فى أحد المناصب الحكومية وأرسل فى مهام كثيرة وبخاصة فى جنوب الصين الغربى . والقصة التى يرويها عن وجود متسعات مترامية من الأراضى البسامة الرغيدة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة الممتازة للعدة للمسافرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعرائش كروم بديعة وحدائق وحقول » . ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والرهبان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب وأنواع كثيرة من قماش التفتاه الممتاز ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار فى البداية عاصفة من التشكك فى أوربا ، ثم عاد فألهب خيال أوربا بأجمعها . وتحدث عن بورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هزم ناشبة[1] المغول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح المغول لبيجو (Pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالغ كثيراً فى مقدار مافى تلك البلاد من الذهب . وظل

(١) الناشب : صاحب النشاب أى السهام والرامى بها والجمع ناشبة : [المترجم]

ماركو ثلاث سنوات حاكما على مدينة يانج تشو ، ولعله — كأجنبي — لم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أي تترى آخر : ولعله أرسل كذلك في بعثة إلى الهند . والسجلات الصينية تذكر شخصاً اسمه بولو ألحق بالمجلس الإمبراطوري في ١٢٧٧ وهو تأكيد ثمين جداً لما تنطوي عليه رواية بولو من مسحة عامة من الصدق .

وأثر نشر رحلات ماركوبولو تأثيراً عميقاً في الخيال الأوربي ، فإن الأدب الأوربي في القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوربي يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة في قصة ماركو بولو مثل كاثاى (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وما شابههما .

وبعد ذلك بقرنين اطلع على « رحلات ماركوبولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولمبس ، الذى تصور خياله الألمعي فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم . وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشبيلية نسخة من « رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولمبس . وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة . ذلك أن القسطنطينية ظلت ، حتى سقوطها بيد الأتراك في ١٤٥٣ ، سوقا محايداً للتجارة بين العالم الغربي وبلاد الشرق ، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة . ولكن البنادقة اللاتينيين منافسي جنوة الألداء ، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم) ، فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجارة الجنوية مجال بها . وفي تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد ، والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس . لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حدما ؛ وكان يشجع على القيام بها أمران : أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت في تلك الأثناء ، وبفضلها لم يعد الناس تحت رحمة ليل صافي السماء بادي النجوم لتحديد الاتجاه الذى يبحرون إليه ؛ وثانيهما أن النورمان والقطلونيين والجنويين والبرتغاليين انطلقوا من قبل ذلك في عرض المحيط الأطلسي ، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس .

ومع ذلك فقد اضطر كولمبس أن يتغلب على صعاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ ينتقل من بلاط ملكي في أوربا إلى آخر ، حتى استطاع في النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنتزعة حديثاً من يد العرب ،

على مناصرة فرديناند وإيزابيلا ، ورعايتهما لمشروعه ، وأن يخترق مجاهل المحيط الخضم بثلاث سفن صغيرة ، وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة ، ثم بلغت أرضا زعم كولمبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن فى الحقيقة إلا قارة جديدة ، لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبداً .

ثم عاد كولمبس إلى أسبانيا يحمل الذهب والقطن والحيوانات الغريبة واثنين من الهنود المنقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة ، ما لبث أن عمدها مسيحيين . وقد أطلق عليهما كولمبس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التى استكشفها هى بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذى ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان للنجاح الذى لقيه كولمبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائل . فدار البرتغاليون فى ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ، ولم تحل سنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفى ١٥١٩ أقلع ماجلان ، وهو بحار برتغالى يعمل فى خدمة الأسبان ، من مدينة أشبيلية بخمس سفن اتجه بها غرباً ، لم يعد منها إلا واحدة هى فيكتوريا ، التى دخلت النهر حتى بلغت أشبيلية فى ١٥٢٢ ، وهى أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مئتين وثمانين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجزائر الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوربى أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق المطبوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شىء فى متناول اليد تماما ، وانبجست أيضا صورة جديدة لأقاليم غريبة وحيوانات ونباتات غريبة وعادات عجيبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفى أطباق السماء وفى أساليب الحياة وموادها ، فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال العهد بدفنها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبتقاليد عصر تفيأ ظلال الحرية والكرامة فى أكناف الحكم الجمهورى .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوربا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل فى نشر لوائهما من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يخضعان لتنظيم يحدهما ويقيدهما فى عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتينى يقترب عندئذ من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا ينفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين والمغول المنبه للعقول وبفضل العثور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى منزلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

الفصل الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هائلا بهذا البعث العقلى . لقد بترت منها أجزاء ولم ينج الجزء الذى بقى منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولى الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكملها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف اضمحل بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها الناس ونظامها المركزى إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها ، وهى الحماسة التى كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعامتها ، وذكرنا كيف أثمر مكر فردريك الثانى وتشككه ثمارهما على صورة ما تجلى من الأمراء من عصيان لم يبرح يزداد وينمو .

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزى فى كل أرجاء أوربا . وحدث فى ١٣٩٨ أن عالما تشيكيا هو جون هس ، ألقى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة كونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس الكنيسة بكامل هيئتها ليفصل فى الصدع الأعظم . ودعى هس للمثول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان فى الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً (١٤١٥) . وبدلا من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يفضى إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاتحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية . وعندذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للمسيحية يوم أعيد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، فباءت جميعاً بالفشل لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل متشردى أوربا

وزعانفها المتعطلين ، مثلما سير الزعانف بالضبط فى القرن الثالث عشر على أتباع والدو. بيد أن أهالى بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والدو يؤمنون بالمقاومة المسلحة . ولم تكد الحملة الصليبية المسيرة على بوهيميا تسمع قعقعة عجلات أتباع هس وأناشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبخرت وتسللت من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها أنها لم تنتظر قط حتى تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١) . وانعقد بمدينة بال فى ١٤٣٦ مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث فى القرن الخامس عشر وباء عظيم تولد عنه انهيار النظام الاجتماعى إلى درجة كبيرة فى كل أرجاء أوربا ، ولقى العامة من هذا الوباء عنتا وتعاسة شديدة وانتشر بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلتره وفرنسا . وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه فى ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس وتقنعت بقناع دينى . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قويا زاد فى ذلك التطور . إذ أنه لما انتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة فى هولندة ومنطقة الرين يستخدمون حروفا قابلة للحركة والفك . ثم انتشر فن الطباعة إلى إيطاليا وإنجلتره ، حيث كان كاكستون يعمل فى طبع الكتب بوستمنستر فى ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذيوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح العالم الأوربى عالم قراء ، إلى حد ليس لأى مجتمع فى الماضى عهد بمثله : ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة على هـذه الصورة المفاجئة ، بالأفكار الأكثر وضوحا والمعلومات الأقرب منالا ، حدث فى وقت غشيها فيه الارتباك والفرقة ، وأصبحت فى موقف لا تستطيع فيه أن تبذل دفاعا فعال الأثر ، وفى يوم كان كثير من الأمراء يبحثون فيه عن وسيلة يضعون بها قبضتها على الثروة الهائلة التى كانت تدعى امتلاكها فى بلادهم .

أما فى ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيراً بعض اعتراضات على أنواع شتى مما تمارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

فى بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام المطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه فى كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلا على هس . ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر لصداقته وكاتم لها ، فحالوا بينه وبين ورود ذلك المصير .

ومما يجمل ذكره عن ذلك العصر الذى تكاثرت فيه الأفكار وضعفت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصلحتهم فى فصم عرى الروابط الدينية التى تربط شعوبهم بروما . فحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومى أقوى . فأخذت كل من إنجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدنمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجمع الدينى الكاثوليكى الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرته .

وبديهى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الخلقية أو الذهنية . وكل ما فى الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما ، على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وأن أنشئت كنيسة قومية تحت هيمنة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوى دائما على حيوية عجيبة ، فهى دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع ـ علمانيا كان ذلك أودينيا . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن انفصل معها أيضا عدد من الطوائف الفرعية التى لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت فى إنجلترة وإسكتلندة مثلا عدة طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة ، متخذة منه هاديها الوحيد فى الحياة والعقيدة ؛ ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمى هؤلاء المخالفون فى إنجلترة باسم المنشقين (Non-Conformists) ـ وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً فى سياسة تلك البلاد أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر . وبلغ من قوة اعتراضهم فى إنجلترة على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) ؛ ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من المنشقين دامت إحدى عشر عاما حافلة بالرخاء والرغد .

وانفصال هذا الشطر الكبير من أوربا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الديني » . على أن وقع هذه الخسائر الجسيمة ذاتها وشدة قوتها أحدث في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في عمقها عنها في أي مكان آخر. فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتغلغل روح جديد في حياتها . وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندي أسباني شاب يدعى أينيجو لوبزدي ريكالدي ، وهو الذي يعرف في العالم باسم القديس إغناطيوس دي ليولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً في (١٥٣٨) بعد أن بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حد ما ، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التي ظهرت في العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر في إيقاف الانحلال السريع الذي انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمي في كل أرجاء العالم الكاثوليكي ؛ وبفضل منافستها نشطت أوربا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة في التعليم مجاراة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية الشديدة المراس في العهد الحاضر ما هي إلا الثمرة اليانعة لهذا الانتعاش اليسوعي .

الفصل الحادي والخمسون

الامبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن فى عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أعجب من شهدتهم أوربا من الملوك . وقد ظل ردحاً من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان .

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه . بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسمليان (١٤٦٩ — ١٥١٩) ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالمى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يبلغه بالمؤامرة والتدبير. أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتدأ مكسمليان حياته عاهلا للنمسا وإستيريا وجزء من الألزاس ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فتزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يعنينا هنا فى قليل ولا كثير) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أفلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتانى بفرنسا فلم يوفق وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريدريك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقة ميلانو أوقل تزوج دوقيها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإزابيلا الضعيفة العقل وهما نصيرا كولمبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد أسبانيا الحديثة التوحيد وسردينيا والصقليتين[1]، بل وحكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشرلكان[2] حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية وقد يتراوح بين ثلث ونصف مالم يقع من أوربا بأيدى الترك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ . فلما توفى جده فرديناند

---

(١) ويقصد بهذا جزيرة صقلية وجنوب إطاليا . [المترجم]

(٢) شرلكان : هو شارل الخامس نفسه . [المترجم]

فى ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكا على الدولة الأسبانية المترامية نظراً لبلاهة أمه وضعف عقلها ، حتى إذا مات جده مكسميليان فى ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لايزال فى العشرين سن نعومة الأظفار نسبياً .

كان شاباً أشقر لاتبدو على وجهه مخائل النجابة ، فشفته العليا غليظة وذقنه طويلة قبيحة . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتية القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكياء ، منهم فرنسيس الأول الذى تولى عرش فرنسا فى ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنرى الثامن الذى ارتقى عرش إنجلترة عام ١٥٠٩ فى سن الثامنة عشرة . وهو عصر بابر ببلاد الهند (١٥٢٦ — ١٥٣٠) ، وسليمان القانونى بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلا ممتازاً جداً . وحاول البابا بمعاضدة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية لما خشياه من تركز ذلك القدر الهائل من السلطان فى يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنرى الثامن يعرضان نفسيهما على ناخبى الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليداً مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ، ونشطت الرشوة حتى كفلت لشرلكان النجاح فى الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه ألعوبة فاخرة رفيعة فى أيدى وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور. ومالبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامى من معقدات حافلة بالأخطار . وأحس أنه إن يكن مركزا فاخراً فإنه ضعيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذى أوجدته الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا فى انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التى دعته إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الدينى . ولكنه نشأ فى أسبانيا بلاد الكاثوليكية المتعصبة ومن ثم قرر أن يناصب لوثر العداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستنت وخاصة منتخب سكسونيا . وعند ذلك وجد نفسه يواجه صدعا قد أخذ يتسع ويتهدد بتمزيق الوحدة البالية للمسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل فى سبيل رأب ذلك الصدع جهوداً مضنية شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاحون فى ألمانيا بثورة متسمة

الأطراف ، اختلطت بالفتن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . ومما زاد الأمر تعقيداً اجتماع هـــذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارشرلكان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجرىء الطموح . ونازعه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذاك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وممتلكاتها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال أسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل ، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيدا ، فاضطرته ضائقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسي بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تتسم بالبلادة والغباء ؛ كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شيء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلانو من يده ، وحوصر بمدينة بافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول بافيا حصاراً طويلا باء بالفشل ، ثم حاصرته قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً . وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شرلكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط . وما عتمت القوات الألمانية المقاتلة في ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت أعطياتها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما وهناك فتحوا المدينة عنوة وانتهبوها في (١٥٢٧) .

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل المغيرون النهب والقتل في المدينة ، ثم استطاع في النهاية أن يشترى رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمائة ألف بندقى[1] ، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشر سنين لقيت منها أوربا الفقر والإفلاس حتى تراءى الأمر في النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفراً في إيطاليا ، وما نشب البابا أن توجه في ١٥٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو

(١) البندقى (Ducats) هو عملة ذهبية مصدرها البندقية .

وفى نفس ذلك الوقت كان الأتراك يجتاحون بلاد المجر اجتياحا . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه فى ١٥٢٦ ، ثم استولى على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع فى قبضة سليمان القانونى فى ١٥٢٩ . واغتم الإمبراطور غما عظيما لهذا التقدم ، وبذل كل مافى مستطاعه لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقى أعظم العسر فى جمع كلمة أمراء الألمان رغم وجود ذلك العدو القوى العاتى على أبوابهم جميعاً . وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردحاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه (١٥٣٨) وحمله على التزام جانب المودة إزاءه بعد أن أعمل فى جنوب فرنسا يد النهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شرلكان محالفة ضد الترك .

ولكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كانوا قد كونوا وقتذاك ضد الإمبراطور حلفاء ، هو حلف الشملكاد Schmalkaldic فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفاح الداخلى الذى أخذت عناصره تتجمع فى ألمانيا ، بدلا من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين ويضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يعمر طويلا فلم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشأت فيه . وقد اتصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل ، اقتتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تندلع نيرانها أحياناً فتصبح حربا عنيفة تأتى على الحرث والنسل وتجر وراءها الخراب ، أو تهبط فإذا هى مؤامرات ومؤامرات دبلوماسية ، لقد كانت ألمانيا كجراب ملىء بالأفاعى من الأمراء ، الذين ظلت سياساتهم تتلوى فى ذلك الجراب وتفح إلى ما لا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، ومازالت هذه الدبلوماسيات تعمل فى أوربا الوسطى تدميراً وتخريباً مرة فى إثر أخرى .

ويلوح أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التى كانت تعمل عملها فى تلك المتاعب التى أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لعصره ومركزه رجلا فاضلا إلى أقصى حد ، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التى كانت تمزق أوربا إلى أشلاء متناحرة إنما هى اختلافات دينية حقة فأكثر من عقد مجالس الدايت[1] والمجامع الكنيسية محاولا بذلك التوفيق والصلح دون جدوى وكم من مرة أعيد البحث فى قانون الإيمان الكنسى

---

(١) الديت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) المقدسة . [المترجم]

وفى مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألمانى مضطر رغماً عنه أن يكدح التماساً لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الدينى . والتسوية التى أقرها دايت راتسبون وصلح أوجزبرج وما إليها ، وهى أمور لا بد كر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ المتعسة الزاخرة بالهموم . والواقع الذى لا شك فيه أن واحداً من هذه الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وما كان الاضطراب الدينى الذى عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة فى الحق والصدق والبر الاجتماعى ، ولا انتشار المعرفة فى ذلك الزمان ، ما كانت هذه الأشياء جميعاً إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخيلة الأمراء ودبلوماسياتهم . مثال ذلك أن هنرى الثامن ملك إنجلترة الذى بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يندد فيه بالكفر والزندقة ، والذى كافأه البابا بالإنعام عليه بلقب « حامى العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت فى ١٥٣٠ ، لرغبته فى الطلاق من زوجته الأولى إيثاراً منه لفتاة صغيرة تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضاً أن ينتهب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ومن قبله كانت السويد والدانمرك والنرويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا فى ١٥٤٦ بعد وفاة مارتن لوثر ببضعة أشهر ، ولسنا فى حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال . وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسونى البروتستنتى لقى هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فيليب ، أمير هيس ، آخر وأكبر خصم للامبراطور قبض عليه وأخذ أسيراً بطريقة تدانى نقض العهد ، واشترى رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات فى ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل فى ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأموره ، وأخذ يبذل قصارى جهده لإقرار سلم فى عالم الاسلام فيه . فلما وافت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لهيب الحرب فى كل أرجاء ألمانيا ولم ينج الإمبراطور من الأسر فى إينزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة بساو فأحدثت فى سنة ١٥٥٢ هدوءاً آخر غير ثابت الأركان .

تلك هى المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية فى مدى اثنين وثلاثين عاما . ولا يفوتنا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان متركزاً تماما حول فكرة الكفاح من أجل إحراز قصب السيادة فى أوربا . ذلك أن أحداً ممن عاشوا فى ذلك الزمان — لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان ، لم يحس حتى ذلك الحين بأى اهتمام سياسى بقارة أمريكا العظيمة ، ولا أدرك أى مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ؛ فإن كورتيز انطلق بحفنة من الرجال وفتح باسم أسبانيا إمبراطورية المكسيك النيوليثية (١) العظيمة ، كما أن بيزارو عبر مضيق بنما (١٥٣٠) ، وأخضع قطراً آخر من أقطار العجائب هو بيرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى فى أوربا إلا تدفق الفضة إلى الخزانة الأسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل فى إظهار أصالته الذهنية المميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو . إذ أعتراه عند ذلك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه التنافسات الأوربية عبث لا يطاق . ولم تكن بنيته سليمة جداً فى أى يوم من أيام حياته إذ كان بفطرته ميالا للخمول والكسل ، كما يقاسى من النقرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ؛ ونقل كل سلطاته الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشؤون أسبانيا والأراضى المنخفضة لابنه فيليب . ثم انسحب يظلله جو من الجلال والامتعاض إلى دير بمدينة يوست ، تحيط به أحراش البلوط والقسطل فى التلال الواقعة شمال وادى التاجة . وهناك قضى نحبه فى ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخليا عن العالم من ذلك الجبار المكدود الجليل الذى برم بهذه الدنيا والتمس السلام فى أكناف الله عن طريق العزلة الصارمة . ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه صحب معه حوالى مئة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما بالبلاط من فخامة وملذات مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثانى كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب النفاذ .

ولئن فقد شارلكان كل اهتمام حق بإدارة شئون أوربا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لا تكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بين كويكسادا أو جازتلو ، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ما حول طعام الإمبراطور أو مرضه .

---

(١) النيوليثية المنطبعة بطابع العصر الحجرى الحديث [المترجم]

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يعقب الآخر بصورة طبيعية كأنه تعليق مستمر عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار المراسلات مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولابد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً فى الاحتفاظ بوقاره أثناء تلاوته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب . وتلقى لرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونه أمراً بأن ينحرف عن طريقه السوى ليمر على جاراندبلا ، ويحضر المائدة الملكية مايلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه فى يوم الصيام الذى يليه . فإن شارل كان يرى أن سمك النقط الموجود بالمنطقة التى يعيش بها صغير جدا ، لذا وجب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجما . وكانت الأسماك بجميع أنواعها تلذ له وتعجبه ، وكل شىء يدانى السمك فى طبيعته أو عادته . فثعابين الماء والضفادع وأم الخلول تحتل مكاناً عليا فى قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف العاهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدراً أكبر من الأراضى المنخفضة . وإنه لمولع بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء . . . » (١) .

وقد حصل شارل فى ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التحلة من الصوم ويبيح له الإفطار فى الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار المقدسة .

أكل وتطبيب ... !! إن ذلك رجوع إلى الأشياء البدائية الأولى . لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، ولكنه كان يصغى إلى من يقرأ عليه أثناء تناوله الطعام جريا على عادة شرلمان ، ثم يعلق على ما يسمع « بتعليقات حلوة سماوية » — كما عبر عن ذلك أحد الرواة .

وكثيرا ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية ، أو النظر فى شئون الإمبراطورية التى لم تفتأ تتقاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التى اشتد بها تعلقه ، سبباً فى تحول عقله نحو الدين ، الذى اتخذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد دأب فى كل يوم جمعة من

---

(١) Prescotts Appendix to Robertson's History of Charles V.

أيام الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان عن طيب خاطر جلدا كان يبلغ من الشدة أن تدمى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هي والنقرس بشرلكان إلى حال من التعصب كانت اعتبارات السياسة تكبحها حتى تلك الساعة . فأثار حنقه ظهور التعاليم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القريبة . وكتب يقول : « أبلغ عنى القاضى الأعظم لمحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه ، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستفحل . » ...

وإنه ليبدى الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكريه الاستغناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأدنى شفقة « خشية أن يعطى المجرمون ، إذا عفى عنهم فرصة العود إلى جريمتهم . » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى المنخفضة ، «حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة ».

ويكاد انشغاله بالجنازات يكون رمزا لمركزه في التاريخ . وكأن ضربا من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيما بأوربا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة «انتهى» ، قدأزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام فى يوست ، بل كان يقيم صلاة الجنازة على الموتى الغائبين ، وأقام جنازا لزوجته يوم ذكراها السنوية ، ثم أقام فى النهاية جنازته هو : « جللت جدران الكنيسة بالسواد لذا لم يكن نور مئات الشموع التى أوقدت كافيا لتبديد سدف الظلام التى رانت على المكان وتجمع الرهبان فى ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعا وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة ، حول نعش ضخم قد جلل هو أيضا بالسواد ورفع فى وسط الكنيسة وعند ذلك أديت صلاة دفن الموتى ، وتصاعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان المحزن . داعية لها بأن تلقى فى الآخرة منازل الأبرار . وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعا وأسى ، إذ تصورت لخواطرهم صورة وفاة مولاهم ، أو لعلهم مستهم الرحمة لهذا المظهر المحزن من مظاهر الضعف . وتمشى شارل برداء أسود وحمل فى يده شمعة موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى الحفل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس رمزا لتسليمه روحه للقوى القاهر ».

. توفى الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانطوت بموته العظمة القصيرة الأجل التى حظيت بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أشبه بعليل يعانى سكرات الموت . ولا تزال تقاليدها البالية الرمم تسمم الجو السياسى إلى يومنا هذا .

الفصل الثانى والخمسون

عصر تجارب سياسية

وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوربا

تحطمت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية المقدسة فى دركات الانحلال المفرط ؛ وأصبح تاريخ أوربا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تتلمس فى دامس الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التى أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات فى العصور الخوالى وفى آماد طويلة من الزمان تمس الأسر المالكة ، بل حق الجنس الحاكم واللغة الغالبة دون غيرها ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والعبد ظل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قدما . على أن تغيرات الأسر المالكة فى أوربا الحديثة هذه ، أى منذ القرن السادس عشر لم تعدتهم أحدا فى قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصبا على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة العدد من التجارب التى تجرى فى حقول التنظيم السياسى والاجتماعى .

والتاريخ السياسى للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهدا لاشعوريا إلى حد كبير ، أنفقته الإنسانية رغبة منها فى تكييف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت فى العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لاشك فيها ، هى أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد فى كل آن توانيا وتخلفا عن الظروف المتغيرة ، خاصة وأنه كان فى الغالب تكيفا لاشعوريا يحدث فى جميع الأحوال تقريبا عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان فى جملته يكره التغير الإرادى) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مثيرة للقلق والكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على كره الحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تحديدا واعيا عمليا لمواجهة الحاجات والإمكانيات التى لاعهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها .

فما هذه التغيرات التى اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتى أفسدت ذلك الاتزان الذى كان يخيم على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر ، مع إيقاظها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ؛ التى عرضت أحوال الناس فى العالم القديم لنوع من الموجات المتتابعة التى دامت أكثر من مئة قرن ؟

لاشك أن هذه التغيرات منوعة كثيرة الجوانب . وما ذلك ؛ إلا لأن الشئون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التى بدأت أولا وقبل كل شىء بين جماعات صغيرة من الأذكياء — وانتشرت ببطء فى البداية ، ثم بسرعة عظيمة جدا فى القرون الخمسة الأخيرة — بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيرا عظيما يرجع إلى تغير حدث فى روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنبا إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالا خفيا دقيقا . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين النفور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هى حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها فى كل شئونها . تلك هى الخصيصة العامة التى تشترك فيها الديانات العظمى جميعا التى انتشرت فى كافة أرجاء العالم أثناء النيف والعشرين قرنا الأخيرة من حياة البشرية سواء فى ذلك البوذية والمسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعها الديانات القديمة . فهى قوى تختلف تماما فى طبيعتها ومفعولها عن ديانات القربان الدموى الفتيشية القديمة بكاهنها ومعبدها ، التى عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت فى الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والمسئولية فى كل الشئون البشرية العامة مما لم يسبق له مثيل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أول تغير جسيم ألم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية تبسيط الكتابة فى الحضارات القديمة واتساع مدى استخدامها ؛ وهو أمر جعل قيام إمبراطوريات أكبر حجما ونشوء تفاهم سياسى أوسع مجالا ، شيئاً ميسورا بل أمرا لابد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للمواصلات ، وحين استعملت المركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضي . ثم حلت فى أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة ، وعن تغير طبيعة الديون والملكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضار معا ، فزادت الإمبراطوريات سعة ومجالا، ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم آن أوان اختفاء الآلهة المحلية ،وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (الثيوكرازيا) فعهد تعاليم الديانات العالمية الكبرى . وأقبلت أيضاً تباشير التاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة ، وإدراك الإنسان جهله المطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم فى سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر حبل الطريقة العلمية الذى بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسى والاجتماعى لقى أعظم الضر والعنت من جراء غارات البرابرة التيوتون ، وزحف الشعوب المغولية نحو الغرب وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا نفضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من المطبوعات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية والتعاون الجماعى . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعدا مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل وكانت نتاجا ثانويا للتفكير المنظم لا مفر منه . وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة المنافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة مجيئها لم تزل فى ازدياد يوما فى إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهيأة لشىء من ذلك القبيل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم حلول الكارثة الكبرى فى أوائل القرن العشرين وتنشيطها للأذهان — إلا أقل القليل يحدثك به عن أية محاولات مصممة محكمة لمواجهة الظروف الجديدة التى كان يخلقها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأنى بتاريخ الإنسانية أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شىء بقصة نائم حبيس يتحرك فى ثقل وعلل بينما تندلع النيران فى السجن الذى يؤويه ويقيد حريته ، دون أن يستيقظ ، بل

تدخل طقطقة ... ودماء في أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام . ـ أشبه بجهد كله منه بحال رجل في يقظة شعورية يحس بالخطر المحدق والفرصة الدنية القطوف .

. . . . .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الافراد لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التي تظهر في صفحات السجل التاريخي مستحدثات لها أثر فيما بين الناس من مواصلات . وأهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة أثناء القرن السادس عشر ظهور الورق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلة البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليـــات النشاط السياسي الجوهرية . وأما الاختراع الثاني فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها المغول إلى الغرب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحطمت الحصانة والمنعة التي حظي بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المسورة وقضت المدافع على نظام الإقطـاع جملة . ولا ننسى أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حيال ما أصابهما من رعب من مدافع الأسبان .

. . . . .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للمطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل شأنا من سابقيه . وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) ، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيرولام ، وزير ماليه انجلتره . كان تلميذاً العالم انجليزي آخر بل لعله هو اللسان المعبر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جلبرت فيلسوف كولشستر التجريبي (١٥٤٠ – ١٦٠٣) . وكان باكون الثاني هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقة القصص اليوتوبي الملهمة المثمرة في كتاب له أسماه « الأطلانطس الجديد » وسيلة يعبر بها عما يحلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها . ثم تصبح هذه

الجمعيات العلمية الأوربية ينابيع فقط تنضح بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضاً منبعاً للنقد الهدام الذى قضى فى النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتى العالمى المضحك الذى تسلط على الفكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق فى حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإن تجمعت أثناءهما المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتى ثمارها كاملة فى القرن التاسع عشر ، وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسمانيا واستراليا وزيلندة الجديدة فى المصورات الجغرافية . وشرع الناس فى بريطانيا العظمى يستخدمون كوك الفحم الحجرى فى صناعة المعادن ، فأدى ذلك إلى رخص ثمن الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما مما كان يستطاع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان الفحم النباتى هو المستخدم فى صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات العصرية الحديثة .

والعلم كأشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكمام والأزهار والثمار فى نفس الوقت وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتى ثمارة الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات الغيث ، وتلتهما السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة والمبانى الكبيرة والماكينات التى لا حد لقوتها تقريباً ، ولاح أن فى الإمكان سد كل حاجة مادية للانسان بوفرة وغزارة لم يسبق لهما مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شبهنا الحياة السياسية والاقتصادية للانسان منذ القرن السادس عشر فصاعداً بحالة سجين نائم يرقد غارقا فى أحلامه والسجين يحترق من حوله . وكان العقل الأوربى فى القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا فى أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدابرة ، أى حلمه بإمبراطورية رومانية مقدسة تتحد كلها بزعامة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الذى حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التى لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب فى بعض الأحايين على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفاً وتدميرا فى مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس فى هذا الحلم الوجه النائم للامبراطور شارل الخامس ومعدته المتهافتة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولوثر يمزقان وحدة العالم الكاثوليكى إربا .

وتحول الحكم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة . فلا يكاد تاريخ أوربا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصور مختلفة ، محاولة ما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان عاهلها استبداديا مطلقاً وبسط كلتها على الضعفاء من جيرانها ، أو تقص على مسامعنا حديث المقاومة الدائمة التى يظهرها أصحاب الأراضى ، كما تحدثنا عندما تتزايد التجارة الخارجية والصناعة فى الداخل عن مقاومة طبقة التجار والماليين التى تزداد عند ذلك عددا ، ـ تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل للتاج فى شئونهم أو قرض يفرضه عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصرا شاملا أو حاسما ؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلمة العليا ، بينما يتغلب صاحب الأملاك فى مكان آخر على العاهل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك منار عالمه القومى وقطب رحاه ، على حين نجد وراء حدوده المتاخمة له تماماً طبقة تجارية قوية الشكيمة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفترة تجريبية بحتة ، أو عارضة أنتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً فى هذه المسرحيات القومية ، هى — وزير الملك — الذى كثيراً ما يكون فى الدول المستمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقفا يقف من وراء الملك ، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه له من خدمات لا يستغنى عنها .

ولا تتسع المقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندة التجارى تحول إلى المذهب البروتستانتى والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك أسبانيا ، وابن الإمبراطور شارلكان . فأما إنجلترة فإن هنرى الثامن ووزيره ولزى والملكة إلزابيث ووزيرها بورلى ، وضعوا أسس نظام استبدادى حطمته حماقة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت رأس الملك شارل الأول جزاء له على خيانته لشعبه (١٦٤٩) ، وفى ذلك تحول جديد لمجرى الفكر السياسى بأوربا . وانقضت بعد ذلك اثنتاعشرة سنة كانت فيها إنجلترة جمهورية (حتى ١٦٦٠) ؛ ثم غدا التاج مزعزع القوى تغلبه كثيراً كلة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٧٦٠ — ١٨٢٠) جهداً عظيما وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه . على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوربا توفيقاً ونجاحاً فى النهوض بالملكية إلى حد الكمال . فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشليو (١٥٨٥—١٦٤٢) ومازاران (١٦٠٢ — ١٦٦١) شادا له بتلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرهما

طول عهـــد الملك لويس الرابع عشر (الملقب بالعاهل الأعظم ١٦٤٣ - ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الخارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك المثالى الذى تحتذيه أوربا كلها . وكان — على ما به من معايب — ملكا ذا اقتدار استثنائى ، كما أن مطامعه كانت أقوى من شهواته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه فى سياسة خارجية مفرطة النشاط ، مع هيبة وكرامة عظيمة لا تزال تنتزع منا الإعجاب انتزاعا . وكانت الرغبة المباشرة التى رانت عليه هى توحيد بلاده وبسط تخومها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضى المنخفضة الأسبانية ، أما فكرته البعيدة التى هدف إليها فهى أن يصبح ملوك فرنسا خلفاء لشارلمان فى دولة رومانية مقدسة يعاد بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثانى ملك انجلتره يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين سنصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول أن نقوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغله الشاغل كان الأبهة والفخامة . فإن قصره العظيم بفرساى بما حوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة ونافورات وجنات غناء ومجالات تمرح فيها الأنظار — كان مثار حسد العالم وإعجابه العظيم .

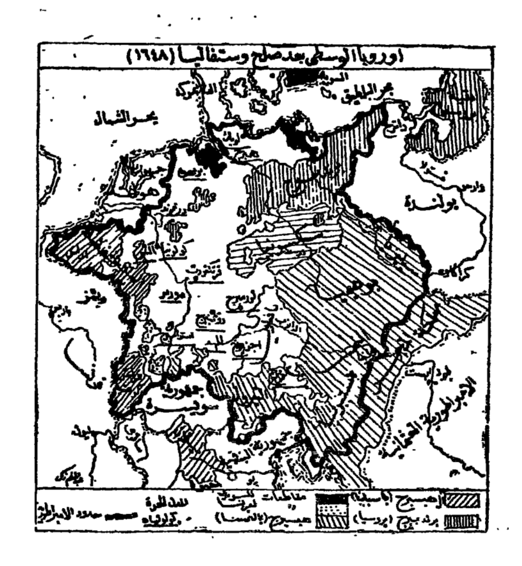
وتبارى من حوله المقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوربا يشيد قصره على نمط قصر فرساى متجاوزاً بذلك موارده . ولكن على قدر مايسمح له رعاياه ودائنوه . وهب كل النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة المنسوجات والأثاث الجميلة . وازدهرت فنون الكماليات وتحف الترف فى كل مكان ، فانتعشت صناعات نحت الرمر والقاشانى وأشغال الخشب المذهب وصياغة المعادن والجلد المضغوط بالرسوم الفنيه ، وتكاثر الإنتاج الموسيقى والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الأنيق وأبدع الخزف وأعجب الحور . وبين هذه المرايا الصقيلة والرياش الفاخرة ، كان جنس عجيب من السادة يغدو ويروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذرت عليها المساحيق ويرتدى الحرائر والمخرمات (الدنتلا) ويترنح فوق أحذية ذات كعوب عالية حمراء حافظاً توازنه بعصى موتقة مدهشة ، ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنا فوق رؤسهن أبراج من الشعور المغطاة

بالمساحيق وعلى أجسامهن مقادير ضخمة منفوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقفت شخصية لويس العظيم ، شمس عالمه النيرة ، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحانقة التى ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها أشعة شمسه .

ظل الشعب الألمانى منقسما على نفسه سياسياً طوال تلك الفترة التى سادتها الملكيات وعمل التجارب فى أنواع الحكومات ، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء يحاكى كالقردة أبهة فرساى كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) وبالا على الألمان ، إذ أنها ظلت جرحا دامياً ينزف منه نشاطهم وهمتهم لمدة مئة عام بعد ذلك ، وهى نزاع مخرب نشب بين الألمان والسويديين والبوهيميين على مغانم سياسية متقلبة غير ثابتة . ولابد للقارىء من خريطة يشهد فيها هذا الترقيع الجنونى الذى انتهى به ذلك الصراع ، وهى الخريطة التى تصور لك أوربا بعد صلح وستفاليا الذى عقد فى ١٦٤٨ وفيها تجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو خارج عنها من ناحية أخرى وسيلحظ القارىء أن ذراع السويد توغلت كثيراً فى أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين رغم امتلاكها لقطع متباعدة من الأرض تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا (التى أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبة الصدارة وتشن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الظافرة الموفقة . وأقام فريدريك الأكبر (١٧٤٠-١٧٨٦) قصره الفرسالى الطراز عند بوتسدام وكانت الفرنسية لغة بلاطه . فهو يتحدث بها ويقرأ الأدب الفرنسى وينافس الملك الفرنسى فى ثقافته .

وفى ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكا على إنجلترة ، فزاد فرد آخر فى قائمة الملوك الداخلين فى الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمسوى من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطورى ، كما احتفظ الفرع الأسبانى بأسبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور الشرق ، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غراندوق موسكو ، إيفان الأعظم (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) ، ادعى بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطى ووضع شارة النسر البيزنطى ذى الرأسين على دروعه وأسلحته . واتخذ حفيده إيفان الرابع (إيفان الرهيب) (١٥٣٣ ـ ١٥٨٤) اللقب الإمبراطورى : قيصر . على أن الروسيا كانت تبدو دائماً فى أعين الأوربيين قطراً بعيداً آسيوياً حتى النصف الثانى من القرن السابع عشر. فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) أدخل الروسيا فى معترك الشئون الغربية . فشاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا ، هى بطرسبرج ، كانت بمثابة نافذة تطل منها الروسيا على أوربا . كما أنه أقام قصره المماثل لقصر فرساى قرب بترهوف التى تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلا ، مستخدماً فى ذلك مهندساً معمارياً

فرنسياً ، شادله شرفة عظيمة ونافورات ومساقط مائية (شلالات) ومعرضا للصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى .وصارت الفرنسية لغة البلاط فى الروسيا مثلما صارت من قبل لغته فى بروسيا .

ومن سوء حظ المملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع التعس بين الروسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندة دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرص كل منهم على عظمته الفردية حرصاً شديداً حتى لايطيق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذى كانوا ينتخبونه وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفا مستقلا .

وكانت سويسرا فى ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « الكانتونات الجمهورية »؛ ثم إن البندقية كانت هى الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كمعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم فى دولته الباباوية حكما كحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقى مواليا له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أوعلى تذكير العالم بدولة النصرانية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوربا مطلقا أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماما بين براثن الفرقة واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الخطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوى على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدوانى . ونحن الأوربيين لانزال نعيش فى أيامنا هذه فى آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لانزال نكابد الآلام من تلك الكراهيات والعداوات والشكوك التى تولدت عن تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضا فى الأعراض تعبه أذن الناقد العصرى الألمعى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليلة هذا الملك أججت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتثور ريح القيل والقال فتزكم أنف الدارس الذكى بأخبار الرشوة والمنافسات وتملأ نفسه اشمئزازاً . على أن هناك حقيقة

مماثلة ولها دلالتها التى لا تنقطع ، هى أن القراءة والفكر لم تكف عن ذلك عن الانتشار والاتساع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر رغم تلك العشرات من الحدود والتخوم التى تفصل بين الدول . وظهر فى القرن الثامن عشر أدب عميق فى تشككه نفاذ فى نقده لبلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو أنك قرأت كتابا كقصة فولتير المسماة « قنديد » لشهدت فيها بوضوح تعبيراً صريحا عن حالة لاحد لها من التبرم بوقوع أوربا فى لجة الارتباكات دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة

فى آسيا وما وراء البحار

وفى نفس الوقت الذى ظلت فيه أوربا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذى رأيت ، راح سكان غرب أوربا ، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والأسبان والبرتغاليين والبريطانيين يعدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت المطبعة قد دفعت بالأفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين فى بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثانى : السفينة الشراعية التى تخترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة .

ولا شك أن أول ما أقيم وراء البحار من مستقرات الهولنديين النازلين حول الأطلنطى الشمالى من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستعمار ، بل التجارة والتعدين . وكان الأسبان أول من اقتحم الميدان ؛ فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد المسمى أمريكا . ومع ذلك فسرعان ماطالب البرتغاليون بنصيبهم فى الغنيمة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السباقين إلى الارتياد والفتح ، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطاها كل شىء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردى ، كما منح ما بقى بعد ذلك لأسبانيا (١٤٩٤) ، (وكان ذلك من أواخر الأعمال التى قامت بها روما كسيدة للعالم .) وفى ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمعترك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحل ١٤٩٧ حتى كان فاسكودى جاما قد أبحر من اشبونة حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوط ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمخر فى ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندى. ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا وممتلكتين صغيرتين أخريين بالهند وما كاو بالصين وجزءاً من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التى استبعدت من أمريكا بحكم التسوية البابابوية لم تعر حقوق أسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام وسرعان ماشرع الإنجليز والدنمركيون والسويديون من ورائهم الهولنديون يدعون الدعاوى فى امتلاك أمريكا الشمالية وجزائر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكى الورع لم يعر تلك التسوية البابابوية من الاهتمام إلا بقدر ما أعارها أى أمير بروتستانتى خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوربا إلى مناطق هذه الدعيات والممتلكات .

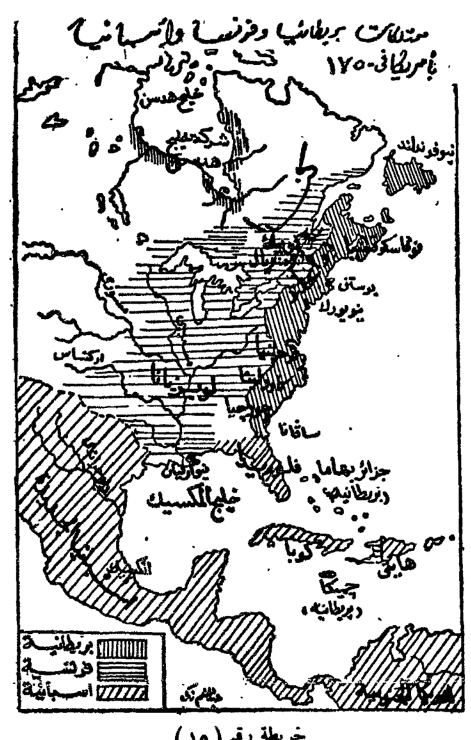
وكان الإنجليز فى النهاية أنجح من دخل حلبة هذا السباق على الممتلكات وراء البحار . مذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد فى شئون ألمانيا المضطربة المعقدة بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد فى ميدان القتال على يد ملك فاتن جذاب هو جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتى . ومالبث الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التى أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن الهولنديين بدورهم كانوا شديدى القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود فى وجه البريطانيين . وكان أهم المتنافسين فى بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون ، كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والأسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوربا ميزة عظمى تحميهم منها ، وهى بحر المانش تلك التخوم المائية المسماة « الشعاع الفضى Silver Streak » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا فى شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة فى الاهتمام بالشئون الأوربية . فظلت القرن الثامن عشر بأجمعه تضيع ما يسنح أمامها من فرص التوسع فى الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها فى التسلط على أسبانيا وإيطاليا وعلى تلك الفوضى المجسمة المسماة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية ببريطانيا إبان القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطدت بها أقدامهم وتزايد عددهم وتكاثر نسلهم ، الأمر الذى عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددى أثناء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا فى ١٧٥٦ ، ١٧٦٠ كندا التى سقطت بيد البريطانيين ورجالهم مستعمرى أمريكا ، وانقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مسيطرة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسيين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية العظيمة التي شادها بابر وأكبر وخلفاؤهما ، قد نخر فيها الآن سوس الانحلال الشديد كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هي شركة الهند البريطانية الشرقية من أعجب ماحوى تاريخ الفتوح كله من حوادث . . . .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابث إلا شركة من مغامري البحار . واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح السفن ، وعلى حين فجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تقاليد أساس الربح والمكاسب أنها لاتتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاي والجواهر ، بل و إيرادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشترى وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة . ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى إجراءاتها . أفعجيب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبتها وعامة جنودها ، كانوا يعودون إلى انجلترة محملين بالأسلاب .

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ويجدون تحت رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا لايستطيعون وما يجوز وما لايجوز ، فالهند في نظرهم أرض عجيبة ذات شمس عجيبة كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعبا مختلفا عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم هذا إلى أن معابدها الغامضة تدعو إلى معايير للسلوك غريبة وخيالية . وتحيرت عقول الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالتهم القذرة الشنيعة بين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان ع كلايف قراراً باللوم ، وما لبث أن انتحر في ١٧٧٤ ، ثم حوكم وارن هاستنجس ١٧٨٨ ، وهو مدير عظيم ثان لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله في ١٧٩٢ حقا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة في تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزى الذي نفسه يحكم من وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيراً وأكثر سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعاً . وكانت الكثرة العظمى من الشعب الإنجليزى تعد الهند بلداً قصيا لايمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع بلوغه ، ينطلق إليه الشبان المغامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات جمة كهولاً واسعي الثراء ذوي أخلاق شكسة عنيفة — وعسر على الإنجليز أن يتصوروا طريقة


ممتلكات بريطانيا وفرنسا واسبانيا بامريكا في ١٧٥٠
خليج هدسن
شركة خليج هدسن
نيوفوندلاند
نوفاسكوتيا
بوستن
نيويورك
اركنساس
لويزيانا
سافانا
فلوريدا
جزائر بهاما (بريطانية)
نيو اورليانز
خليج المكسيك
كوبا
هايتي
جمايكا (بريطانية)
بريطانية
فرنسية
اسبانية

خريطة رقم (١٥)

عيش هؤلاء الملايين التي لا حصر لها من السمر الساجين في ضياء شمس بلاد الشرق . ذلك أن أخيلتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا « رومانسياً » لا يمت إلى الواقع بأدنى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن يقوموا بأي إشراف فعال أو هيمنة مثمرة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوربا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط في هذا العالم ، حدثت بآسيا غزوتان بريتان عظيمتان . فإن الصين ألقت عن كواهلها نير المغول في ١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد شعب المانشو ، وهو شعب مغولي آخر ، وظل سيدا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ . وفي نفس الحين كانت الروسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم . ولا شك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم ، التي لا هي إلى الشرق تماما ولا هي إلى الغرب تماما، له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية . ويعود الفضل في توسعها ذاك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي بمنطقة السهوب بها ، هو شعب القوزاق ، الذي أقام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين الزراعيين ببولندة والمجر في الغرب وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضاري القاطن شرق أوربا ، وهم يشبهون من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضاري في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل من أحنق عليه الروسيا حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء المضطهدين : وفيهم الموالي الثائرون والطوائف الدينية واللصوص المتشردون والقتلة ، كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءاً جديداً . ويقاتلون من أجل الحياة والحرية كلا من البولنديين والروسيين والتتار على السواء . ولا يخالجنا أدنى شك أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل رويداً رويداً في خدمة القيصر الروسي العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر مرتفعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منحتهم الحكومة أرضا جديدة بآسيا حيث أصبحوا سلاحا حاداً لها ضد قوة المغول الرحل الذاوية المتناقصة ، فغزوا أولا بلاد التركستان ثم توغلوا عبر سيبريا حتى نهر عامور .

ومن العسير تفسير الاضمحلال الذى طرأ على قوة المغول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقض على أيام جانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبى الذى سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى – والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض الثقات أن انتقال التعاليم البوذية إليهم فى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهدئا لنفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن التتار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يغزون فى بلادهم ويلزمون بالخضوع أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من الروسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

وانقضى القرن السادس عشر بأكمله والقوزاق ينتشرون شرقا من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها التخوم وتتحرك دائما إلى الأمام وتحمى هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يبرح التركمان أقوياء ناشطين ؛ على أن الروسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبدا حتى بلغت المحيط الهادى نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوربا المنقسمة على نفسها وهى فى حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مختلة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطىء بلاد العالم بفضل الاستثارة الهائلة التى أحدثها فى أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع والخريطة المطبوعة ، والفرص التى خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوربا ضرب من حمى المغامرة المفككة التى ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة ، أو تكاد ، هبطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزايا التى اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والخالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوربا . كما حجزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندة لتكون وطنا معداً لسكان من الأوربيين .

ولم يكن ما بعث كولمبس إلى أمريكا أوفاسكودى جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث فى الشرق الآهل آنفا بالسكان والحافل بالمنتجات ، أن الباعث التجارى ظل غالبا متسلطا ، وظلت مستقرات الأوربيين به تجارية بحتة ، وكان سكانها (الأوربيون) يرجون دائما أن يعودوا إلى أوطانهم لإنفاق أموالهم ، فإن الأوربيين فى أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التشبث بتلك البلاد بحثا عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجى أخفض كثيرا جدا . ولقد ذهب الأوربيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجارا مسلحين ، بل كباحثين عن المعادن النفيسة ومعدنين ومنقبين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة . وكانوا فى المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استلزمت المناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات) . فكأنهما اضطرا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم وراء البحار .

ثم تراءى الأمر أن أصبح الأوربيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطانا جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث فى بعض الحالات عند ما هاجرت طائفة البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلند بأمريكا فى أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الدينى ، وكما حدث فى القرن الثامن عشر عند ما أرسل أوجليثورب أقواما استخلصهم من سجون المدينين بانجلترا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث فى نهاية الثامن عشر عند ما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوربيين إلى أراضى أمريكا وأستراليا الجديدة الخاوية ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كأنما هو هجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوربيين ، وانتقلت الثقافة الأوربية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التى نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التى أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت فى الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها إنسان أو حتى يدرك وجودها ؛ ولم تتنبأ السياسة الأوربية بظهورها لذا لم تعد أية خطة لمواجهتها أو فكرة لمعاملتها . فظل ساسة أوربا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية فى جوهر أمرها ، وموارد إيراد للدولة أو « ممتلكات » — أو « بلادا تدين بالتبعية » ، وذلك بعد أن تأصل فى سكانها بزمن طويل إحساسهم الحاد بانفصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمن مديد فى داخل البلاد وأصبحوا بعيدين عن طائلة أى عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا ، أن السفينة الشراعية الماخرة للمحيط كانت همزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماما بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبرح هى الحصان ، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدتها فى البر محدودا بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وما أن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطانى . وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما عدا

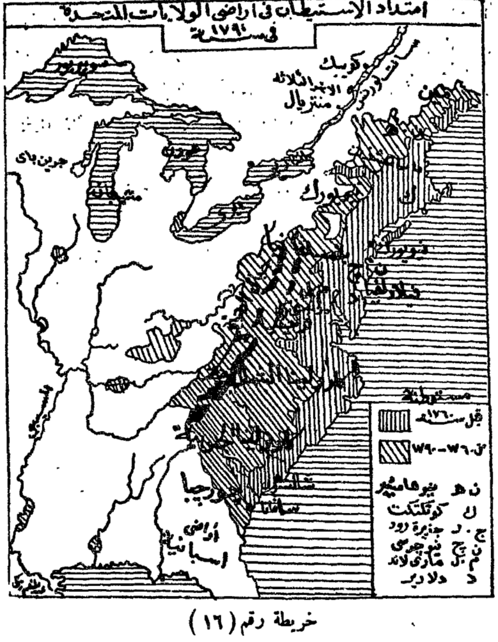
البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين ـ فإن منطقة فلوريدا ولويزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعا لأسبانيا . وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر الين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد .

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في منشأها وصفاتها . فقد قامت بها المستعمرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية ، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستنت ، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزرعون أراضيهم ويعيبون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وماوراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزنوج المجلوبين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لاتكاد متاعبها تقل عن مشاق عبور الأطلنطي

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرض أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها . ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أي صوت ولا رأى في إنفاق تلك الضرائب ، وكانت تجارتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يغرقهم تيار الشعب البربري الأسود الذي لا يفتأ يتزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم الملكي يتصف بالقوة والشدة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٠ ــ ١٨٢٠) إلى دفع المستعمرات دفعا إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

ومما عجل باندلاع لهيب الصراع ذلك التشريع الذي آثر بالتفضيل مصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين . لذا هاجمت ثلة من الرجال



امتداد الاستيطان فى اراضى الولايات المتحدة
فى سنة ١٧٩٠
كويبك
منتريال
جرين باى
قبل سنة ١٧٦٠
ن ه نيوهامشير
ك كونكتكت
ج . ر جزيرة رود
ن ج نيوجرسى
م ل ماريلاند
د دلاوير
اسبانيا

خريطة رقم (١٦)

تنكرت فى زى الهنود الحمر فى ١٧٧٣ ثلاث سفن بميناء بوسطن وألقت فى الماء بما كانت تحمل من الشاى الذى استورد فى ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا ١٧٧٥ عندما حاولت الحكومة البريطانية أن تعتقل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكسنجتون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكسنجتون وتلاحم الجمعان فى أول قتال بينهما قرب كونكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة فى قطع علاقتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ وعين جورج واشنطن قائداً عاما للجيوش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه فى ذلك شأن كثير من كبار المستوطنين الأمريكيين فى ذلك الزمان . وفى ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجوين واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك وفى نفس تلك السنة أعلن الفرنسيون والأسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيلا بالغا . ثم طوق جيش بريطانى آخر تحت إمرة الجنرال كورنوالس بشبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح بباريس فى ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحاداً مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية فى عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضعيفة السلطان تتولى الشئون بمقتضى بعض مواد لدستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولاح أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أديا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما عداء البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين شيئا من الرغبة فى الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة وتنبه القوم فوضعوا فى ١٧٨٨ دستوراً اعتمدوه للفور، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جداً ، ومالبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين فى ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضعف فى الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث أنها لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [وهى الحصان] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوربية وفى مثل اتساعها كان أمرا لامفر منه بمضى الأيام إذ لم يكن لحضور الجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية ، فضلا عن أن العوائق التى كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لايكاد يستطاع تذليله . ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك فى العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفا تاما ، إذ سرعان ماظهر الزورق البخارى النهرى ثم السكة الحديدية والتلغراف ، فأنقذت الولايات المتحدة من التمزق ، وضمت أهلها الشتيتين فى نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وماهى إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الأسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوربا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها فى اتحاد يجمعها نظرا لشدة توزعها فى أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحارى وغابات وبإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدويلات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل فى البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات فى داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقا آخر إلى ذلك الانفصال الذى لم يكن منه مفر . إذ حدث فى ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية ، ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان ، أمست البرتغال هى التابعة تقريبا للبرازيل وليس العكس . ثم أعلنت البرازيل استقلالها فى ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقا بعين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل بهدوء إلى أوربا على ظهر إحدى السفن فى ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية فى فرنسا

لم تكد بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاثة عشرة بأمريكا حتى قيض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت فى قلب الملكية العظمى نفسها ، ـ أن تذكر أوربا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شىء وقتى تماما لادوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوربا ، وذكرنا أنها كانت مثار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو الصغرى ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان أفضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحى هائل . أجل إنها اتصفت بالذكاء والشجاعة والعدوان . ولكنها فرطت فى حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التى تعفيهم والتى تلقى على عواتق الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ؛ وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألفت نفسها مفلسة خاوية الوفاض فى ١٧٨٧ ، وأن اضطرت إلى استدعاء ممثلى الطبقات المختلفة بالمملكة لتشاورهم فى أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدة زيادة المصروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساى فى ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يماثل إلى حد ما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزى . ولم يعقد ذلك المجلس منذ ١٦١٠ ، وهى فترة من الزمن كانت تحكم فرنسا أثناءها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تذمرهم القوى المديد الأجل وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث ، بسبب إصرار الثالثة وهى العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت للعامة الغلبة فى هذه المنازعات فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام مثلما ألزم

البرلمان البريطانى التاج البريطانى حدود النظام . وتهيأ الملك لويس السادس عشر للكفاح واستحضر الجند من الأقاليم . فثارت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان انهيار الملكية المستبدة سريعاً جدا . فهدم سكان باريس سجن الباستيل الجهم القبيح الصورة ، وسرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت أيدى الفلاحين فى الشرق والشمال الغربى إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقتها ، ومزقت براءات ألقابهم بكل عناية ، كما قتل أصحابها وطردوا شر طردة ، فلم ينقض شهر واحد حتى انهار نظام الأرستقراطية القديم الناخر . واضطر إلى الفرار إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال البلاط من حزب الملكة . وأقيمت بباريس ومعظم المدن الكبيرة الأخرى حكومة مؤقتة للمدينة . وأنشأت حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هى الحرس الوطنى ، وهى قوة مسلحة أنشئت أولا وقبل كل شىء لمقاومة قوات التاج . ونظرت الجمعية الوطنية حولها ، وإذا هى تستدعى لإيجاد نظام سياسى واجتماعى جديد لعهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية . وهكذا تخلصت فرنسا من أهم ما كان يبهظها من مظالم الحكم المطلق المستبد ، فألغت الإعفاء من الضرائب والرق (موالى الأرض) وألقاب الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم فى باريس صرح ملكية دستورية ، فغادر الملك فرساى وأبهتها ؛ وعاش عيشة متواضعة بقصر التويلرى بباريس .

ومرت سنتان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية ستستمر فى كفاحها حتى تنشىء حكومة قوية ذات طابع عصرى . فأنتجت أشياء كثيرة صائبة دامت إلى يومنا هذا وإن كان كثير من إنتاجها تجاريا لم يكن بد من نقضه . على أن كثيرا مما أنتجت لم يكن له أى أثر . فراحت الجمعية تصفى قانون العقوبات وتنقيه من الشوائب ، وألغت التعذيب والحبس التعسفى والاضطهاد بسبب الزندقة . وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا القديمة كنورماندي وبرغندي وأمثالها . وفتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة . وأنشىء نظام للمحاكم ممتاز وبسيط ، وإن أفسد قيمته كثيرا جعل تعيين القاضى فيها بالانتخاب العام إلى مدة قصيرة من الزمن . فكأن الجمهور قد أصبح بذلك ضربا من محكمة استئناف نهائية عليا . كما صار القضاة كأعضاء الجمعية الوطنية مضطرين

أن يتملقوا الجمهور ويسعوا إلى مرضاته . واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة وتولت إدارتها بنفسها ؛ وحلت جميع المؤسسات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان ، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين . ولم يكن في ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسبة لكبار رجال الدين الأثرياء. وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة بالانتخاب ، وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيها السلطات المركزة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل. والواقع الذي لا شك فيه أن الجمعية الوطنية شاءت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستنتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث المذهب . ونشبت المنازعات في كل مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين عليها (الذين أبوا أن يقسموا يمين الولاء) والذين ظلوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بغتة تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بما فعله الملك والملكة حين تآمرا مع أصدقائهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج . وتجمعت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية ، وانسل الملك والملكة وأطفالهما في إحدى ليالي شهر يونيه من قصر التويلري فارين للانضمام إلى الأجانب والمنفيين الأرستقراطيين . فقبض عليهم في فارن وأعيدوا إلى باريس ؛ وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهيب النزعة القومية الجمهورية . وأعلنت الجمهورية على الفور واندلع لهيب الحرب بين الفرنسيس والنمسا وبروسيا ، وحوكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ؛ على نفس النسق الذي استنته إنجلتره من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج لهيب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية . وأحس الناس أن لابد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل وكل صلح مع الأعداء في الخارج ؛ فكان لابد في الداخل من استئصال شأفة الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ؛ وكان لابد لفرنسا من أن تحمي في الخارج كل حركة ثوريه وتقدم لها العون ، ورأت فرنسا أن لابد لأوربا كلها (بل العالم كله) أن تعتنق النظام الجمهوري . وتدفق شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها نشيد جديد عجيب هو المارسليز لا يزال يلهب الدماء في العروق كما تلهبها حميا الكأس. انهارت الجيوش الأجنبية

ورجعت القهقرى أمام ذلك النشيد الحماسي والطوابير الفرنسية الوثابة من حملة السونكي ومدافعهم التي تديرها حماستهم المتوقدة ؛ فلم تكد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثيراً من كل ما بلغته فتوح لويس الرابع عشر ؛ إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية . فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم يجتاحون مملكة سافوى ، وهم يتقدمون فيشنون الغارة على مايانس Mayence ؛ وهم قد استولوا على إقليم نهر الشلت من هولندة . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تغتفر إذ أحنقها طرد ممثلها من انجلترة عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على انجلترة . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشاً من المشاة شديد التحمس ومدفعية نابهة مبرأة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من الظروف المعوقة للتقدم ، — قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للانجليز التفوق المطلق في البحر . وإزاء ذلك التحدى والاستفزاز اتحدت كلة انجلترة بأ كملها ضد فرنسا بعد أن ظهرت ببريطانيا حركة ضخمة جداً تدعو إلى التسامح مع الثورة والعطف عليها .

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية وبين محالف تتكون ضدها من الدول الأوربية . وحسبنا أنها طردت النمسويين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندى وقد تجمد من حوله الماء في نهر تكسيل Texel ، لجفنة من الخيالة الفرنسيين دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . ووصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردحاً من الزمان ، فلم يتهيأ لها تقدم إلا في ١٧٩٦ عندما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيوش الجمهورية الجائعة المهلهلة الشباب إلى ميادين النصر بإيطاليا ؛ فاخترق بدمونت إلى مانتوا وفيرونا . يقول س . ف . أتكنسون[١] :

« إن أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتجالا لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يعوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة مالدى الجمهورية من نقود ، ولو وجدت لما كان من الممكن

---

(١) في مقالته التي نشرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان «French Revolutionary Wars»

نقلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات ، التى ربما لزمت كما كانت فى الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن المتاعب التى كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية فى الجيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا فى عام ١٧٩٣ — ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع نقل مؤن لجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ماتعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التى يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية وعسكرة الجنود بلا خيام فى العراء ، وعيشهم على حساب الأهالى واعتمادهم على القوة بدلا من المداورات الحذرة والجيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والجرايات الكاملة والتلاعب والخداع . فالجيوش الأولى تمثل الروح التى تستلزم حسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل فى سبيل القليل . . . »

وبينا كانت هذه الجيوش الرثة الثياب من المتحمسين تنشد المارسيليز وتقاتل فى سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماماً ما إذا كانت تنهب البلاد التى تدفقت فيها أو تحررها — كانت الحماسة الجمهورية بباريس تتلاشى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التعصب ، هو روبسبيير . ومن العسير علينا أن نقضى فى هذا الرجل برأى ؛ فإنه كان رجلا ضعيف البنية جبانا بفطرته مغتراً مزهوا بنفسه . ولكنه أوتى ألزم الصفات لبلوغ القوة ، وهى الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التى خيلها إليه تصوره ، كما أنه كان يتوهم أنه لامنقذ لها إلا شخصه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراسخة أن بقاءه فى الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحى للجمهورية قد نشأ عن تذبيح الملكيين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض الفتن ؛ شبت إحداها فى الغرب بمنطقة لافنديه La Vendée ، حيث ثار الأهالى بزعامة بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجا على أخذهم جنوداً فى الجيش ، وعلى حرمان رجال الدين المتمسكين بعقيدة السلف الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى فى الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا وسمح أنصار الملكية فى طولون لحامية إنجليزية وأسبانية بالنزول برا . فلم يكن لدى روبسبيير فيما يبدو من رد فعال على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية .

وابتدأت محكمة الثورة عملها ، وابتدأ بذلك سيل منهمر من الذبح والتقتيل وجاء اختراع المقصلة (الجيلوتين) فى أنسب الأوقات لهذه النزعة الدموية . فأعدمت الملكة

بالمقصلة ، وكذلك أعدم معظم خصوم روبسبيير بالمقصلة ، وأعدم بالمقصلة أيضاً كل كافر أنكر وجود السكائن الأعلى « الذى اتخذه روبسبيير رباً » ؛ وانقضت الأيام يوما بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة تحز الرءوس فالرءوس بعد الرءوس وتقول هل من مزيد . ولا إخال إلا أن حكم روبسبيير كان يعيش على الدم ؛ ولا يزال يطلب المزيد منه فالمزيد كمدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد فالمزيد .

وأخيرا جاء دور روبسبيير نفسه فعزل وأعدم بالمقصلة نفسها فى صيف ١٧٩٤ ، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمس رجال واصلت الحرب الدفاعية فى الخارج وجمعت كلمة فرنسا فى الداخل مدة خمس سنوات. وكان حكمهم أشبه الأشياء بفاصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العنيفة .فتناولوا الأمور كما وجدوها . وفى عهدهم دفعت حمية الدعاية للثورة الجيوش الفرنسية إلى هولنده وبلجيكا سويسرا وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان الملوك يطردون فى كل مكان وتقام فى مكانهم الجمهوريات . ولكن حمية الدعاية التى كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التى نزلت بالحكومة الفرنسية. ومالبثت حروبهم أن انحطت رويدا رويدا عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن العهود القديمة . وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى . فأنت ترى تلك التقاليد فى أيام حكومة الإدارة قوية عاتية كأنما لم تكن هناك أية ثورة .

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من المجد ، ثم ختمها بمذلة الهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك الرجل سوى نابوليون بونابرت عينه الذى قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدبر الخطط لرفع شأن نفسه . وأخذ يرقى بالتدريج إلى منزلة الصدارة والقوة العليا . كان فهمه محدودا إلى درجة كبيرة ولكنه كان صاحب همة عظيمة ،قصودا إلى هدفه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوادة . بدأ حياته نصيرا متطرفا لمدرسة روبسبيير؛ فهو مدين بترقياته الأولى إلى انحيازه إليها . ولكن أنى له أن يدرك حقاً تلك القوى الجديدة التى كانت تعمل عملها فى أوربا ، فإن قصارى تصوراته فى السياسة لم ترتفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زائفة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، قاصدا أن يستبدل بها أخرى مركزها باريس واضطر الإمبراطور فى فيينا أن يتخلى عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة مكتفيا بلقبه الأصلى كإمبراطور للنمسا فقط. وطلق نابليون زوجته الفرنسية ليتزوج من أميرة نمسوية.

أصبح بالفعل عاهلا لفرنسا حين عين قنصلا فى ١٧٩٩، كما جعل نفسه إمبراطورا لفرنسا فى ١٨٠٤ محاكاة منه لشرلمان مباشرة. وتوجه البابا باريس؛ حيث تناول منه التاج ووضعه بنفسه على رأسه كما أوصى شرلمان. وتوج ابنه ملكا على روما.

وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل أثناءها من نصر إلى نصر. ففتح معظم إيطاليا وأسبانيا، ودحر بروسيا والنمسا، وتسلط على كل أوربا غربى الروسيا. ولكنه لم يفز قط بانتزاع منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأميرال نلسن البريطانى فى موقعة الطرف الأغر (١٨٠٥). وثارت أسبانيا عليه فى ١٨٠٨، وراح جيش بريطانى بقيادة ولنجتن يدفع الجيوش الفرنسية ببطء نحو الشمال حتى طردها من شبه جزيرة أيبيريا. وفى ١٨١١ دب دبيب الخلاف بين نابليون وبين القيصر اسكندر الأول، ثم غزا الروسيا فى ١٨١٢ بجيش عظيم مختلط عدته ... ٦٠٠ ستمائة ألف رجل، وهى حملة هزمها الروس بمعاونة شتاء بلادهم القارس ودمروها إلى حد كبير. وعندئذ شقت ألمانيا عصا الطاعة عليه، وانقلبت السويد عليه. فارتدت الجيوش الفرنسية منهزمة كسيرة الجناح، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش فى فونتينبلو (١٨١٤). فنفى إلى جزيرة إلبا، ثم عاد إلى فرنسا لينفق آخر سهم فى جعبته فى ١٨١٥، ولكنه هزم فى واترلو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين.

لقد تبددت القوى التى أطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها وذهبت أدراج الرياح، والتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم للحلفاء الظافرين يستهدف أن يعيد بجهد المستطاع الظروف التى مزقتها الزوبعة العظيمة كل ممزق. وأسفر المؤتمر عن احتفاظ أوربا بمدة تقارب الأربعين عاماً بنوع من السلام الناجم عن تبديد القوى وتشتت الجهد

الفصل السادس والخمسون

السلم الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

حال سببان رئيسيان دون استتباب السلام الاجتماعي والدولي خلال هذه الفترة، ومهدا السبيل لدورة الحروب التي نشبت بين عامي ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وأول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المجحفة بالشعوب وإلى التدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم . وثانيهما هو تلك الحدود العقيمة المستحيلة التي رسمها ساسة فيينا .

وقد تجلى في أسبانيا أولا وبأوضح صورة جلية ميل الملكية المتأصل إلى العودة إلى الأحوال والأوضاع القديمة البائدة . وإذا هي تعيدها جميعاً حتى محاكم التفتيش نفسها . ومن قبل ذلك فيما وراء الأطلنطي كانت المستعمرات الأسبانية قد حذت حذو الولايات المتحدة ، وثارت على نظام الدول العظمى الأوربي ، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف على عرش أسبانيا في (١٨٠٨) . وكان الجنرال بوليفار منقذ أمريكا الجنوبية من نير الأوربيين بشأن جورج واشنطن في الشمال . ولم تستطع أسبانيا أن تقضي على هذه الثورة ، فطال أمدها بغير ثمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من قبل ، حتى اقترحت النمسا في النهاية تمشيا منها مع روح « المحالفة المقدسة » وجوب مساعدة ملوك أوربا لأسبانيا في ذلك الكفاح . فلقي ذلك الاقتراح معارضة من بريطانيا ، ولكن الذي قضى نهائيا على اقتراح إرجاع سلطان الملكية ذاك ، هو التصرف السريع الذي اتخذه مونرو رئيس الولايات المتحدة في ١٨٢٣ حين حذرها مغبة ذلك الاسترداد . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد كل تدخل من جانب الدول الأوربية في نصف الكرة الغربي عملا عدائيا . وهكذا نشأ مذهب مونرو ، القاضي بأن لاتوجد بأمريكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا ، وهو الذي أبعد نظام الدول العظمى عن أمريكا مدة تربو على مئة سنة ، وأتاح لدول أمريكا الأسبانية الجديدة أن تصوغ مصائرها على الطريقة التي تريدها لنفسها .

ولكن [illegible] الأسبانية مستعمراتها ، لقد كانت تستطيع على الأقل أن

تفعل ماتشاء فى أوربا تحت حماية التضامن الأوربى لذا تولى جيش فرنسى سحق حركة عصيان شعبية شبت بأسبانيا فى ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوربى ، وراحت النمسا فى نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت فى نابلى .

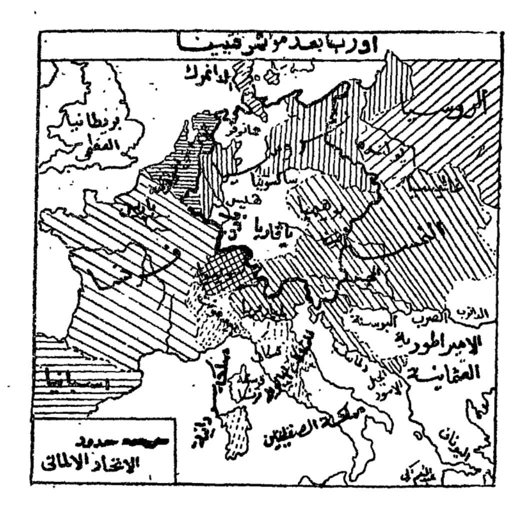
وقد توفى لويس الثامن عشر فى ١٨٢٤ وخلفه شارل العاشر . وكرس شارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجامعات ، وإعادة الحكم المطلق إلى نصابه ؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكات تعويضاً للنبلاء عما حل بهم فى ١٧٨٩ من حرق قصورهم ومصادرة أموالهم . وما لبثت باريس أن ثارت فى ١٨٣٠ على ذلك الملك الذى تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وأحلت محله على العرش لويس فيليب ابن فيليب دوق أورليان، أحد النبلاء الذين أعدموا فى عهد الإرهاب ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوربية التدخل فى هذه الحالة لما شهدته من استحسان بريطانيا الصريح لتلك الثورة ، ولما أنسته من وجود حركة تحرير وتسامح بألمانيا والنمسا . هذا إلى أن فرنسا كانت لاتزال — قبل كل شىء — محتفظة بنظامها الملكى . وقد بقى هذا الرجل لويس فيليب (١٧٤٨ — ١٨٣٠) ثمانية عشر عاما ملكا دستوريا لفرنسا .

تلك هى التقلبات القلقة التى كانت تعبث بقرارات مؤتمر فيينا ، والتى أثارتها من مكمنها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت التوترات التى تمخضت عنها التخوم غير المدروسة عليا التى وضعها الديبلوماسيون فى فيينا يشتد عودها من آن لآن ولكن خطرها على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيراً . ذلك أن من أشد الأمور جلبا للمتاعب على رؤوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تتكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة وتعتنق أفكارا عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شىء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة فى لغاتها وعقائدها ربطاً وثيقا هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات الدفاع المشترك عند السويسريين الجبليين؛ بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتى المحلى إلى أبعد حد . على أن نظام الكانتونات يكون ألزم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كمقدونيا يختلط السكان فيه فى رقع صغيرة من القرى والأحياء المتباينة الأجناس . ولو أن القارىء نظر إلى قارة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعينى رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استثارة أشد أنواع الاستياء المحلى فى كل ناحية مستها يده .

دمر ذلك المؤتمر جمهورية هولنده بدون مبرر . وكدس فى كتلة واحدة كلا من

الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية ، والساكنين بالأراضى المنخفضة الأسبانية القديمة (والنمسوية أيضاً) ، وأقام منهما مملكة الأراضى المنخفضة .
ولم يقتصر على أن يسلم للنمسويين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية العريقة، بل وشمال إيطاليا كله حتى مدينة ميلانو . ثم جمع مقاطعة سافوى الفرنسية اللغة مع أجزاء من إيطاليا وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وهما من قديم الزمان خليط متفجر من القوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشيكوسلوفاك واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضموا إليهم آنذاك ، ـ فقد أصبح الموقف فيها أصعب وأعسر حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التى استقطعتها النمسا من بولندة فى ١٧٧٢، ١٧٩٥ ، وأقر المؤتمر أيضاً تسليم الشطر الأعظم من الشعب البولندى الحر الكاثوليكى العقيدة الجمهورى النزعة إلى الحكم الأقل حضارة حكم قيصر الروسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن بروسيا البروتستنتية استولت بدورها على نواح هامة من ذلك القطر التعس . وأقر المؤتمر أيضاً استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماما . وربط شعبى السويد والنرويج المختلفين تمام الاختلاف ، بعضهما إلى بعض من ظل عرش واحد . وسيلحظ القارىء أن ألمانيا تركت فى حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة . فإن كلا من بروسيا والنمسا كانت داخلة جزئيا فى اتحاد ألمانى وخارجة جزئيا عنه ، وهو يضم العدد الجم من الولايات الصغرى وأصبح ملك الدنمرك عضوا فى الاتحاد الألمانى بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية فى هولشتين وقعت فى حوزته .
وألحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألمانى وإن كان حاكمها ملكا للأراضى المنخفضة أيضاً، ومع أن كثيرا من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل المؤتمرون إغفالا تاما حقيقة واضحة للعيان : هى أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية ويعتمدون فى تفكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون فى تفكيرهم على الثقافة الإيطالية والقوم الذى يتحدثون بالبولندية ويعتمدون فى تفكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالا وأشد عونا لباقى البشرية وأقل ضررا بها إذا هم أداروا شئونهم الخاصة على الطريقة التى يرتضون وفى حدود لغتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أشد ماذاع فى ألمانيا من الأغانى الشعبية فى تلك الأيام أنه « حيثما نطق اللسان الألمانى ، فتلك أرض الأجداد الألمانية » .



خريطة رقم (١٧)

اقتدت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التى اندلعت بفرنسا ١٨٣٠، حيث أعلنت الثورة على ربطها قسرا بالهولنديين فى مملكة الأراضى المنخفضة وذعرت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد أو إلحاقها بفرنسا، فسارعت بالتدخل لتهدئة ذلك الموقف، وأعطت بلاد البلجيك ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج إجوثا وحدثت فى نفس تلك السنة ١٨٣٠ أيضاً ثورات بإيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق؛ كما حدثت ثورة أخرى أشد خطرا بكثير بالمنطقة الروسية من بولندة. وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك سنة كاملة أمام قوات القيصر نيقولا الأول (الذى خلف اسكندر فى ١٨٢٥)، ثم أخمدت إخمادا تجلى فيه عظيم العنف والقساوة وحرم النطق باللغة البولندية وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية دينا رسميا للدولة بدل الكاثوليكية.

وقد حدث فى ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك ، وظلوا يقاتلونهم حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوربية واقفة موقف المتفرج . واحتج الأحرار على الجمود الذى يتبدى فى أوربا ؛ وانثال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوربى للانضمام إلى العصاة ، وأخيراً اتخذت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة مشتركة فعالة فدمر الإنجليز والفرنسيون ، الأسطول التركى المصرى بمعركة نوارين (١٨٢٧) ، واجتاح القيصر حدود تركيا . واعلنت معاهدة أدرنة (١٨٢٩) حرية بلاد اليونان واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بان تستعيد من جديد تقاليدها الجمهورية العتيقة والتمس لليونان ملك ألمانى هو الأمير أوتو البافارى ، كما عين لولايات الدانوب (وهى بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحى ، ونصب آخر على بلاد الصرب (وهى جزء من المنطقة اليوغسلافية) . ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الشىء الكثير من الدماء قبل طرد الأتراك نهائيا من تلك الأصقاع .

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازلها فى أوربا ، وبينما الخريطة المرقعة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة كتقلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فينا (١٨١٥) المرقعة هى أيضاً ، وبينما السفينة الشرعية تبسط النفوذ الأوربى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوربى وما اصطبغ بصباغه من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنقية عامة لأفكار الناس وآرائهم المتصلة بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعزل تام عن الحياة السياسية وإن لم ينتجا فى تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أخاذة مباشرة . ثم إنهما لم يؤثرا فى الفكر الشعبى أثراً عميقاً أثناء تلك الفترة . ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها ــ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز « بالسيد » الجنتلمان ، لما بدأت العملية العلمية ببلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوربا أبدا . ولعبت الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك المدة . والتعلم الذى يتلقى الهبات المالية يجنح إلى الجبن والمحافظة على القديم وتعوزه روح الابتكار والمبادأة ويقاوم كل تجديد ، مالم يحفزه الاحتكاك بالعقول الحرة المستقلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية الملكية تكونت ١٦٦٢ ، ولحظنا ما أنجزته فى سبيل تحقيق أحلام باكون فى كتابه الأطلانطس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشىء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : ــ المادة والحركة ، كما تم الشىء

الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو منتظم فى استخدام العدسات فى كل من المجهر والمرقب (الميكروسكوب والتلسكوب) وتجديد للهمة المبذولة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويبه ، وانتعاش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذى تكهن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، يبذل جهوده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن . وعاد تقدم علم المعادن بالفضل العميم على المخترعات العملية ، حيث يسر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزنا وأضخم حجما . وظهرت ماكينات ذات معيار جديد وبكثرة لم يسبق لها مثيل ؛ فأحدثت فى الصناعة انقلابا هائلا .

واستطاع تريفيثيك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس واط البخارية لمستلزمات النقل والحركة ، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨١٦ بين ستوكتن ودارلنجتن ، وأن بلغت سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلا فى الساعة ، وهى تجر وراءها قطارا من العربات زنته ثلاثة عشر طنا . وتكاثرت السكك الحديدية منذ ١٨٣٠ . فلم ينتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوربا .[١]

وهنا حدث تغيير فجائى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ؛ هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى الروسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها مايدانى ١٤٠٠ ميل . وكانت تحت خدمته كل مايستطاع تقديمه لملك من ميزات ، فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الراكب العادى ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى ضعف تلك المدة مهما تعجل . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد الغاله فى القرن الأول الميلادى . ثم ظهر التغير الهائل على حين بغتة . وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما دون ثمانية وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوربا إلى نحو عشر ما كانت

---

(١) أنشأت مصر ثانى خط للسكك الحديدية فى العالم بين القاهرة والإسكندرية ١٨٥٢ [المترجم]

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم فى مساحات أكبر عشر مرات من التى كان فى الإمكان إدارتها فى الماضى على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن المغزى التام لتلك الإمكانية ، ذلك أن أوربا تقطع أوصالها حدود وتخوم رسمت فى عصر الحصان والطريق ، على أن السكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فعال . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التى تزحف فى بطء غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع التخوم الجديدة التى تتقدم فى كل آن بأرض القارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التى تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخارى على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية فى مراحلها الأولى فإن زورقا بخاريا هو «شارلوت دنداس» كان يمخر قناة خليج الكلايد Firth of Clyde فى ١٨٠٢ ، وكان لأمريكى اسمه فالتون باخرة أسماها كليرمونت بها آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل فى أعالى نهر الهدسون وراء نيويورك ، وكانت أول باخرة أنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هى الفينكس ، التى كانت تنتقل بين نيويورك (هوبوكن) وفيلادلفيا وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخار (إذ كان بها قلوع أيضا) عبرت المحيط الأطلنطى (١٨١٩) واسمها السافانا — أمريكية هى الأخرى وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم العجلة الرفاصة[1] ، وليست سفن الرفاصات بقادرة على شق عباب البحار الهائجة الأمواج . فإن مجاديف العجلة تتحطم بغاية السهولة ، وعندئذ يصبح المركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة اللولبية على شىء من البطء . إذ لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبية وسيلة عملية مثمرة . ولم تستطع حمولة السفينة البخارية البحرية التفوق على حمولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن . ومن بعدها سار التطور فى الملاحة البحرية بخطى سريعة ، ولأول مرة فى التاريخ أخذ الناس يعبرون البحار والمحيطات وهم على شىء من التأكيد من موعد وصولهم ، فإن عبور الاطلنطى الذى كان إلى حين قريب مغامرة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أسابيع عديدة (ربما وصلت إلى شهور) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت فى ١٩١٠ ، فى حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا .

---

(١) العجلة الرفاصة أو الدولاب البدالى : عجلة ضخمة تدفع سفينة بوساطة ألواح مثبتة عموديا على محيطها والألواح تدفع الماء عندما تدار الدولاب [المترجم]

وفى الوقت الذى تطور فيه النقل البخارى برا وبحرا ، نشأت وسيلة أخرى جديدة أخاذة أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفانى وفاراداى فى مختلف أنواع الظواهر الكهربية . فظهر التلغراف الكهربى على مسرح الوجود فى ١٨٣٥ . ومد أول سلك بحرى « كابل » برقى تحت البحر فى ١٨٥١ بين فرنسا وانجلترة، وماهى إلا بضع سنين حتى عم نظام البرق العالم المدن بأكمله ، وحتى أمست الأخبار التى كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ تعرف فى كل أرجاء الأرض فى وقت واحد تقريباً .

ولا مراء أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربى ، تبدت لأخيلة الناس فى منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائعة بل معجزات خارقة ، على أنهما لم تكونا إلا باكورتين بارزتين قبيحتين فى بستان ضخم تتم فيه عملية أعظم وأوسع كثيراً. فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقية (Technical) أخذت تنمو وتنهض بسرعة خارقة ، وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ماتم قبل ذلك فى كل عصر مضى . وثمة شىء كان يبدو فى البداية أقل بروزا بكثير فى حياة الإنسان العادية ، ولكنه كان فى النهاية أهم كثيرا من أى شىء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية منوعة ومكونة لمواد أخرى . مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بوساطة الفحم المصنوع من الخشب ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرق ويعطى الشكل المطلوب . فعند ذلك كان الحديد مادة لايستخدمها إلا صانع فنى وعندئذ كانت جودة الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من حديد يمكن معالجتها فى مثل تلك الظروف لتزيد فى أقصى الحالات حجما (فى القرن السادس عشر) على طنين أو ثلاثة . (فمن الطبيعى إذن أن يكون لحجم المدافع حد أقصى لايتعداه) وجاء فرن الصهر الهوائى فى القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال الكوك . على أنك لاتجد ألواح الحديد المسحوبة بين الاسطوانات الضاغطة [الدرافيل] إلا فى القرن الثامن عشر (١٧٢٨) ، كما لا توجد أسياخه وقضبانه المسحوبة بين تلك الاسطوانات نفسها إلا فى (١٧٨٣) . كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخترع إلا أخيرا فى ١٨٣٨ .

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لانحطاطه فى كل مايتصل باستخراج المعادن وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمضخة البدائية ،

إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين العصرية تلك الآلات الأولى لرأت فيها قطعا من الخردة قبيحة الصورة مستوجبة للرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة فى ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذى كان فى إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد ، وتنقيتها وصبها على شاكلة ونطاق لم يسمع الناس بمثلها أبدا ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربى لرأيت أطنانا من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة وهى تغلى وتهدر غليان اللبن فى إنائه ، وليس فى الإمكان أن تقاس ثمار شىء مما أحرزالإنسان فى الماضى من تقدم ، بما ترى من تحكمه المطلق فى كتل ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قوامها وتكوينها وفى الحق إن السكك الحديدية والآلات القديمة بمختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة فى معالجة المعادن . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكبارى الفولاذية الضخمة ، فضلا عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل جدا ، وأدرك الناس فى وقت متأخر جدا أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تنجلى فى المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان فى إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعبا وأحفل بالراحة والسرور لو أنهم زادوا كثيرا فى المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حمولتها كثيراً على ألفى طن ، أما اليوم فليس هناك أى عجب فى باخرة حمولتها خمسون ألفا ، ومن الناس من يسخر بهذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم فى الحجم ليس غير . ولكن تلك السخرية تسمهم بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذى ليسا كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بنائه الصغير ؛ وإنما هما شىء يختلف عن سابقه فى النوع ، كما أنه أخف حملا وأقوى بناء ومواده التى يصنع منها أمتن وأنقى ؛ هما شىء لا يقوم على السوابق الموروثة ولا الطرق العملية الفجة غير العلمية ، بل على الحساب الدقيق المعقد . كانت المادة فى المنزل القديم أو السفينة القديمة هى المتسلطة ، إذ لم يكن بد من تحرى مستلزمات المادة ونوعها والتمشى معهما تمشيا أعمى ؛ أما فى الموقف الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبدل فى تكوينها ما شاء له عقله . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل ، التى استخرجت من المحاجر والمناجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعمله بالاستخراج والتشغيل والصهر والصب ، وإذا هي برج رشيق من الفولاذ والبلور ، ويعلو المدينة المزدحمة بأكثر من ستمئة قدم .

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على سبيل التمثيل والإيضاح ولوشئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه عن تسلط العلم عن معدنى النحاس والقصدير ، بل على طائفة جمة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر ، ولانذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم ، وهكذا لم يحظ الانقلاب الميكانيكي بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة الإنسان العظيمة المتزايدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور والجبس والصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها ، ومع ذلك فما زلنا في هذه الميادين عند مرحلة الثمار الأولى والتباشير لم نتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت ملك يميننا ، ولكن بقى علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا تلك ، ثم إن الشيء الكثير من استخدامنا الأول لهبات العلم السخية هذه كان في البداية سوقيا ، ينطوى على الذوق القبيح أو الغباء أو الفظاعة ، ولم يكد الفنان والمهندس المنقذ يتجاوزان بعد مرحلة الابتداء الاولى في الاستفادة بتلك الأنواع التي لاحصر لها ولا نهاية من المواد التي أصبحت اليوم تحت تصرفهما .

واطرد نمو علم الكهرباء إلى جوارهذا الاتساع الكبير في الإمكانيات الميكانيكية. ولم يشرع هذا الحقل من حقول الأبحاث أن يؤتى ثمارا كان لها في عقول الناس أثر عميق إلا في ثمانينات[1] القرن التاسع عشر ، وإذا بالعالم يفاجأ بالنور الكهربى ، والجر الكهربى ، كما بدأ يتسرب للأذهان كافة أن في الإمكان نقل القوة ، أي إرسال قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سالك من النحاس ، كما ينقل الماء في الأنابيب .

كان البريطانيون والفرنسيون في بادىء الأمر هما الشعبان اللذان سبقا غيرهما في مضمار تكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن ما نشب الألمان الذين تلقوا درسا في الذلة على يد نابليون أن أبدوا من الحمية والمثابرة في الأبحاث العلمية ماجعلهم يدركون هؤلاء الرواد ويسبقونهم ، وكان العلم في بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز والاسكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوذعية والإحاطة المألوف .

---

(١) ثمانينات القرن : هي عقده التاسع من ١٨٨٠ الى ١٨٨٩

وكانت جامعات بريطانيا فى ذلك الحين فى حالة تدهور تربوى ، وقد صرفت جل همها فى إظهار الحذلقة ، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، وكذلك شأن التعليم فى فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين ، ربما كانت صغيرة بالقياس إلى ماقى الأمر من إمكانيات ، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفئة الصغيرة من المخترعين والمجربين ببريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبى فيهما . ومع أن هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم وأغناها ، فإنها لم تعد على رجال العلم والاختراع بثروة ولا قوة .

فإن رجل العلم المخلص لعمله يعيش بالضرورة فى جو من الزهد فى الدنيا ؛ فهو من الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالا لتدبير الخطط فى والمشروعات لجمع المال عن طريقها . ولذا فسرعان مايقع استثمار اختراعاته الاقتصادى بغاية السهولة وبطريقة طبيعية جداً فى قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال ؛ لذا نرى فى تاريخ بلادنا أن كل طبقة جديدة من الأغنياء أبرزها ببريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمى والفنى كانت تقنع تماما بأن تترك الأوزة التى تبيض لها بيضة الذهب تضوى من الجوع وإن لم تبد منها تماما نفس تلك الرغبة الجامحة التى أبداها علماء الدراسات الكلامية(١) ورجال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها . فلقد زعموا أن المكتشفين والمخترعين يظهرون بالطبيعة ليستفيد من ورائهم من يفوقونهم ذكاء .

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكيما للعقل . فإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا نحو العلم الجديد مثل تلك البغضاء العنيفة ، لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطور . ثم إن رجل الأعمال وصاحب المصنع لم يستشعرا نحو رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذى خاص منافسهما البريطانى . وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محصولا يزرع ويستجيب المخصبات . لذا نزلوا فعلا لرجل العلم عن قدر معين من فرصة الثراء ؛ وكانت ميزانية مصروفاتهم العامة على البحث العلمى أعظم نسبياء كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم بموفور الجزاء . وإذا برجل العلم فى ألمانيا يجعل لغته الألمانية فى النصف الثانى من القرن

---

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحيانا بالفلسفة المدرسانية .

التاسع عشر لغة ضرورية لايستغنى عنها كل دارس العلوم يريد أن يظل ملماً بآخر ما أنتجته العقول فى ناحية تخصصه . وثمة فروع بعينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها ألمانيا تفوقاً عظيما جدا على جاراتها الغربيات . ولم تظهر آثار الجهود الألمانية إبان ستينات وسبعينات القرن[1] ، بل بعد الثمانينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسا فى ميادين التقدم الفنى والصناعى .

وجاءت بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر فى ثمانينات القرن طراز جديد من الآلات ؛ وهى آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر ، محل قوة تمدد البخار . وأدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التى أمكن صنعها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات ؛ وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت فى النهاية ذروة من جهة الوزن والكفاية جعلت الطيران — الذى عرف الناس من قديم الزمان أنه شىء ممكن — من الأمور الواقعية المحققة . فإن لانجلى الأستاذ بمعهد سميثسن بواشنطن صنع فى ١٨٩٧ ، آلة تطير بنجاح ، وإن لم يتسع حجمها لحمل جسم كائن بشرى. ثم أصبحت الطائرة صالحة لحمل الإنسان فى ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحت فى الأفق فترة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ فى المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفى القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذى حدث فى ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوى كتبت تقريراً قالت فيه : « إن المسافة من لندن إلى ملبورن ، وهى تعادل نصف محيط الأرض ، ربما أمكن أن تقطع فى مدى بضع سنوات فى نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن ينبغى علينا أن لانبالغ كثيراً فى تأكيد هذه التخفيضات الباهرة فى المسافات الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر . فما هى إلا ناحية واحدة من نواحى توسيع الإمكانيات البشرية توسيعاً أبعد غوراً وأعظم شأناً . مثال ذلك أن علمى الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزا تقدمات مماثلة لهذه تماما أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس بتخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة من الأرض فى القرن السابع عشر . وحدث تقدم فى علم الطب أشد

(١) وهما العقدان السابع والثامن من القرن .

من هذا خرقاً لكل معتاد مألوف ؛ فزاد متوسط عمر الإنسان ، وزادت كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة .

من هذا كله يرى القارىء أن بين أيدينا تغيراً كلياً فى الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموله أن خلق مرحلة جديدة فى التاريخ الإنسانى . تم هذا الانقلاب الميكانيكى فى مدة لا تزيد كثيراً عن قرن . وفى تلك المدة خطا الإنسان فى ناحية أحـــوال حياته المادية خطوة أوسع من تلك التى خطاها أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجرى القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام ببى ملك مصر وجورج الثالث . لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار مادى هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر المعظم من إعادة تكييف مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بيد أن عمليات إعادة التكييف تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الإنقلاب الميكانيكى ، كما أنها لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلالية الأولى .

الفصل الثامن والخمسون

الانقلاب الصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما أسميناه « الانقلاب الميكانيكي » الذي هو شيء جديد تماما في الخبرة البشرية تولد عن تطور العلم المنظم ونموه ، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف المعادن سواء بسواء ، وبين شيء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف . شيء له من قبل سابقة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمونه « الانقلاب الصناعي ». سارت كلتا العمليتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتفاعلان إحداهما مع الأخرى، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلا وجوهراً . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعي من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو الماكينات ؛ ولكن لعله كان في تلك الحالة يلازم بدقة أكثر نفس الطريق الذي سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التي حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجرَّدين من أملاكهم وعصابات العمال والمزارع الضخمة والثروات المالية الطائلة والنظام المالي الدمر للنظام الاجتماعي . وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استحداث القوة واختراع الماكينات . فالمصانع ليست ثمرة الآلة بل ثمرة تقسيم العمل. فكان العمال المدربون المرهقون بالكدح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وعلب الكرتون والأثاث ، ويلونون الخرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حتى الدواليب المائية في خدمة الصناعة ، وكان بروما في أيام أوغسطس كثير من المصانع . مثال ذلك: أن الكتب الجديدة كانت تملى على حشود مصفوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب. وسيرى كل دارس مدقق يقرأ بإمعان ما كتبه دانيال ديفو وما تحتويه نشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين في مؤسسات للحصول على أرزاقهم كانت شيئاً مألوفا ببريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها في نفس زمن السير توماس مور وكتابه اليوتوبيا ١٥١٦ . لا جرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوربا الغربية الاجتماعى والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم من جديد خطى الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة للميلاد .

غير أن تفكك أوربا سياسياً ، وثوراتها السياسية العنيفة على الملوك ، ومعاندة العامة مضافا إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوربى الغربى للأفكار والمخترعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماما .

ولا شك أن الفكرات الداعية إلى تكافل الناس وتماسكهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً فى العالم الأوربى الجديد ، ولم يكن النفوذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركز ، ومن ثم أقلع كل رجل نشيط حريص على الإثراء عن فكرة الرقيق وعصابات العمال وتحول بفكره مختاراً لقوة الآلة و « الماكينة » .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية، كانت شيئا جديدا فى خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابئة بما قد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك فى حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال كسكل الشئون الإنسانية ـ عرضة لتغيرات تزداد فى كل آن عمقا وانحرافا بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى فى ظروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكديس الثروات وإبادة طبقى صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة الماليين الكبار أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المماثلة لذلك من تركيز رأس المال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى ينحصر فى الفرق العميق بين نوعى العمل والعمال الذى ولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة فى العالم القديم . فكان كل شىء يعتمد اعتمادا تاماً على القوة الدافعة والمحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم : عضلات الجهلاء والأذلاء من الناس ، ولسنا ننكر أن قد شاركتهم فى ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التى جاءت فى صورة الثيران وما تجره والخيل وما تحمله ، إلى غير ذلك . فحيثما وجب رفع ثقل من الأثقال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحيثما استلزم الأمر استخراج صخرة من محجر ، لقد

كان الرجال هم الذين يقطعونها ؛ وحيثما لزم حرث أحد الحقول حرثه الرجال بمساعدة الثيران ، وكان المركب البخارية نظير لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صفوف مجدفين يرهقون إلى أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر فى عهد الحضارات الأولى فى أعمال الكدح العنيف الآلى البحت ، على أن الآلات المدفوعة بالقوة لم تبشر فى البداية بأى أمل فى خلاص المكدودين من ذلك الكدح الآلى الذى لا ذكاء فيه ، فكانت فرق ضخمة من الرجال تستخدم فى تطهير الترع ، وفى شق أنفاق السكك الحديدية وعمل الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك . وتزايد عدد عمال المناجم زيادة هائلة . ولكن اتساع مدى الوسائل الميسرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ، وكلما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق الواضح للموقف الجديد يفرض نفسه بصورة أصرح . فلم يعد البشر يطلبون كمصدر للقوة البحتة دون تمييز . ذلك أن ما يستطيع الكائن البشرى عمله بصورة آلية كان شيئا تستطيع الآلة أن تعمله بدرجة أسرع وأحسن . فلم يعد الأمر يحتاج للكائن البشرى الآن إلا حيث يجب استخدام العقل والذكاء والاختيار . فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن ككائنات بشرية ، أما ذلك الكادح المسخر الذى اعتمدت عليه الحضارات السابقة جميعاً ، ذلك المخلوق الذى عليه الطاعة العمياء ، والذى كان عقله أداة كاسدة لا لزوم لها ، فقد صار غير ضرورى لصالح البشرية .

وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين انطباقه على أحدث العمليات المعدنية إذ ظهرت فى ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدنية الرومانية مؤسسة على كواهل كائنات إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ؛ أما الحضارة العصرية فيعاد بناؤها على عاتق قوة ميكانيكية رخيصة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزداد أثناءها فى كل يوم رخصاً والعامل غلاء . فلئن اضطرت الماكينات أن تنتظر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى يحين دورها ، فما ذلك إلا لسبب بسيط ، هو أن اليد العاملة ظلت ردحا من الزمان أرخص من الماكينات .

بذلك حدث فى حياة الناس انقلاب ذو أهمية قصوى . لقد كان أكبر هم يقض مضجع الغنى أو الحاكم فى المدنيات القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكفيه

من الكادحين الأذلاء . فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر اتضح للأذكياء أنه لامفر للرجل العادى من أن يعلو عن منزلة الكادح الذليل؛ إذ لم يكن محيص من أن يتعلم — لكى يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل . ولم يكن مندوحة من أن يفهم مايراد منه . لقد ظل التعليم الشعبى يسرى بأوربا سرياناً وئيداً بطيئاً منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، على غرار ما كان بآسيا حيثما وطئت قدم الإسلام ، وذلك لضرورة تفهيم المؤمن شيئاً قليلا من العقيدة التى ستخلصه فى الآخرة ، وتمكينه من قراءة الشىء القليل من كتبه المقدسة التى تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المجادلات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأنصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبى العام . مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية بانجلترا وحاجتها لكسب الأنصار إبان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المتزاحمة على الأطفال ، منها المدارس القومية التابعة للكنيسة ، والمدارس البريطانية التابعة للخارجين عليها ، بل حتى للمدارس الكاثوليكية الأولية وكان النصف الثانى من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع فى التعليم الشعبى فى كل أرجاء العالم المنطبع بالطابع الغربى ولم يساير هذا التقدم تقدم آخر مماثل له فى تعليم الطبقة العليا — أجل حدث شىء من التقدم لاجرم ولكنه لايتساوى مع الأول بتاتاً — وهكذا لم تلبث الهوة العظيمة التى كانت تقسم العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة ، أن باتت لاتزيد عن فارق فى المستوى التربوى لايكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكمن الانقلاب الميكانيكى ، غير عابىء فى الظاهر بالأحوال الاجتماعية ، ولكنه يلح بإصرار فى الواقع ودون هوادة على أن يقضى تماما فى كل أرجاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس بروما أبداً معنى الانقلاب الاقتصادى ولا أدرك كنهه ، فالمواطن الرومانى العادى لم يحس قط بالتغيرات التى يعيش فى كنفها بنفس الوضوح والشمول اللذين نشهدهما نحن بهما . أما الانقلاب الصناعى فكان وهو يدلف فى طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متكاملة يتزايد وضوح تكاملها كشىء واحد للعامة الذين وقعوا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون آنذاك القراءة والمناقشة والتراسل ، ولأنهم كانوا يتنقلون فى البلاد ، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدها أمثالهم من قبل

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء

السياسية والاجتماعية المعاصرة

نمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسية، وترعرعت يبطء عصراً بعد عصر دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يتنبأ إنسان لها بشيء، ولم يحدث إلا فى القرن السادس ق. م، قرن المراهقة العظيم للبشرية، أن فكر الناس بجلاء فى علاقاتهم بعضهم ببعض، وأن ناقشوا لأول مرة واقترحوا لأول مرة تغيير المعتقدات المستقرة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها.

وقد سبقت الإشارة إلى الفجر الفكرى المجيد الذى لاحت تباشيره بأرض يونان ومدينة الإسكندرية، وكيف تقوضت المدنيات المالكة للرقيق وتلبدت سماؤها بغيوم التعصب الدينى واستبداد الحكومات المطلق، مما عاجل ذلك الفجر فأسدل على ما ترقرق فيه من الآمال ظلمة حالكة. ولم يبدأ نور التفكير الجرىء ينفذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلك الليل الدامس الذى ران على أوربا إلا حين أقبل القرنان الخامس عشر والسادس عشر. وقد حاولنا أن نعرض عليك شيئاً يبين فضل تلك الرياح العظيمة التى أثارها حب استطلاع العرب وفتوح المغول فى تبديد بعض ماغشى السماء العقلية لأوربا من الغيوم، وأول من حظى بالزيادة هو المعرفة المادية بوجه خاص. فكانت أول الثمار التى عادت على الإنسان من استرداد إنسانيته مغانم مادية أحرزها وقوة مادية حصل عليها. ذلك أن علم السياسة البشرية، وعلم النفس الفردى والاجتماعى، وعلوم التربية والاقتصاد ليست دقيقة ومعقدة فى حد ذاتها وحسب، بل هى ترتبط ارتباطا وثيقا لا انفصام له بالشىء الكثير من النواحى العاطفية. وقد سار التقدم فيها بخطى أبطأ، كما أنه لقى معارضة عظيمة. والناس يستمعون بهدوء تام إلى أشد الآراء تبايناً حول النجوم

أو الذرات ، ولـكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عنـــدنا تمس كل فرد حولنا ، وتنعـكس عليه .

وكما حدث ببلاد اليونان تماما حيث سبقت تأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة ، حدث فى أوربا أيضا أن صيت أول الأبحاث السياسية فى المرحلة الجديدة فى قوالب قصص « اليوتوبيا[1] » ، التى نقلت مباشرة عن « جمهورية » أفلاطون و « قوانينه » . و « اليوتوبيا » التى ألفهـا السير توماس مور محاكاة عجيبة لأفلاطون كانت ثمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بانجلترة . على أن اليوتوبيا « النابولية » للفيلسوف كامبانلا المسماة « مدينة الشمس » كانت أبعد فى آفاق الخيال وأقل ثماراً واقعية .

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهور قدر ضخم ومتزايد من المؤلفات فى العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين فى حلبة هذه الأبحاث جون لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز ، وعالم من علماء أكسفورد ، وجه عنايته فى البداية إلى الـكيمياء والطب . على أن مقالاته التى كتبها فى موضوعات الحـكومة والتسامح والتربية تـكشف عن عقل شديد الوعى والإدراك لإمكانيات إعادة البناء الاجتماعى وظهر فى فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترة ، وإن تأخر عنـه قليلا ، هو منتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) ، الذى وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه فى فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السحرية الذى كان يجلل الملـكية المطلقة ، وهو يشارك لوك فى فضل إماطة كثير من الأفـكار الزائفة التى ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات المتعمدة الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنسانى .

وكان الجيل الذى جاء بعده فى الحلقات الوسطى والمتأخرة من القرن الثامن عشر جريئا فى تأملاته الفـكرية فى موضوعات التنقية الخلقية والفـكرية التى أقام

---

(١) اليوتوبيا ويسميها العرب « الطوبى » والفارابى « المدينة الفاضلة » : دولة مثالية تتصف نظمها السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية بالـكمال المطلق . [المترجم]

صروحها . وراحت طائفة من أذكياء الكتاب ، هى « الوسوعيون » وكلهم رجل ثائر الروح حر النفس متخرج من مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، راحت تضع الخطة لعالم جديد (١٧٦٦) . وإلى جوار الوسوعيين نهض الاقتصاديون أو الفيزيوقراطيون ، الذين راحوا يجرون أبحاثا جريئة وجدة فى إنتاج الأطعمة والسلع وتوزيعها وطفق موريللى مؤلف « قانون الطبيعة Code de La Natur e » يشير بنظام الملكية الخاصة ، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو البشير الآذن بتلك المدرسة الضخمة المختلفة الفرق والمذاهب من المفكرين الحشديين (الجماعيين Collctivists) فى القرن التاسع عشر ، الذين نطلق عليهم جميعاً ودون تمييز اسم الاشتراكيين (Socialists) .

ما هى تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مئة تعريف وتعريف ، كما أن للاشتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج فى جوهرها عن نقد لفكرة الملكية تحت ضوء المصلحة العامة . وسنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة على مر العصور ، فإنها هى وفكرة الدولية أو الشعوبية(Internationalism [1]) هما الفكرتان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب فى الجنس البشرى من غريزة المقاتلة ، فقبل أن يكون الإنسان إنساناً حقا بزمن مديد، كان جده القرد الأعلى [2] يملك الممتلكات، والامتلاك البدائى يقوم فى الشىء الذى يقاتل من أجله أحد الحيوانات . فثمة الكلب والعظمة ، والنمرة ووجارها والظبي النافر وسربه ؛ وهى أمثلة للملكية الصارخة، ولسنا نتصور أن علم الاجتماع به عبارة أتفه ولا أسخف من قولهم « الشيوعية البدائية » . ذلك أن الرجل العجوز فى قبيلة العائلة فى أبكر العصور الحجرية القديمة كان يصر على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعالمه المرئى المحيط به . فإذا جاس أى رجل آخر خلال عالمه المرئى قاتله ، بل ذبحه إن استطاع .

---

(١) الدولية مذهب سياسى يدعى أنه قائم على مبدأ الأخوة الشاملة بين الناس، ولذا ينزع إلى التقليل من أثر فوارق المصالح والأخلاق والمثل (أو تجاهلها) التى تقوم بين الأجناس والأمم . [المترجم]

(٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الانسان لدارون التى سبق أن أشار إليها فى الفصول الأولى من الكتاب . [المترجم]

ونمت القبيلة على كر العصور كما أجاد التعبير عن ذلك أتكنسن فى كتابه « Primal Law » ، بفضل تسامح الرجل العجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان الذين يصغرونه سنا ، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتى يقتنصونهن من خارج القبيلة وإزاء الآلات والحلى التى يصنعون والصيد الذى يتصيدون . فكأن المجتمع الإنسانى قد نما بسبب التساهل المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك . وهو تساهل اقتضته الضرورة التى تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئى المحيط بهم ، فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضى أو أرضك ، فما ذلك إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كلامنا كان يفضل لو كانت الأرض أرضه هو ، ولكن ذلك شىء لا يمكن أن يكون . ففى تلك الحالة يدمرنا الآخرون . ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حدة الملكية . والامتلاك عند الوحش المتوحش وعند البدائى شىء أشد حدة مما هو فى العالم المتمدن اليوم ، فهو أقوى تأصلا فى غرائزنا منه فى عقولنا .

وليس لدائرة الامتلاك لدى المتوحش الطبيعى أو الرجل غير المتعلم فى عصرنا هذا أى حدود تحدها . فكل ما استطعت أن تقاتل من أجله أمكنك أن تملكه ؛ سواء أكان ذلك امرأة أو أسيرا تبقى على حياته أو بهيمة تقبض عليها أو طريقا فى غابة أو مجبرا أو أى شىء آخر . فلما اتسع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكى يحول دون القتال الفتاك ، فأنتج الإنسان بضع وسائل فجيجة مرتجلة لتسوية مشكلات الامتلاك . وبمقتضاها أصبح الرجل يستطيع أن يمتلك أى شىء كان هو أول من صنعه أو أمسكه أو ادعاه لنفسه . وبات يبدو وطبيعيا أن كل مدين لا يستطيع سداد دينه ينبغى أن يصبح ملكا لدائنه . ويعادل هذا فى بساطته وسمته الطبيعية زعمهم بأن الرجل ينبغى له بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يفرض على كل من شاء استعمالها شيئا من المال أو العين .

ولم يشرع الإنسان أن يحس أن تلك الملكية غير المحدودة لأى شىء كان مثار للازعاج والمضايقة إلا بغاية البطء والتدرج ، وحين أشرقت عليه تباشير إمكانيات الحياة المنظمة . فوجد الناس أنهم يولدون فى عالم يملكه كله الغير أو يدعى ملكيته . وليت الأمر اقتصر على ذلك وحده ! ! . . فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوكة للغير أو يدعى ملكيتها .

ومن العسير علينا الآن أن نتعقب الكفاحات الاجتماعية التى اندلعت فى الحضارة الباكرة ، على أن التاريخ الذى رويناه عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعا يستيقظ على دوى الديون ، ويتنبه إلى أنها قد تصبح مثار الإزعاج والمضايقة للأمة كافة ، ولذا فقد وجب إلغاؤها ونبذها ، وأن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت هى الأخرى تنطوى على المضايقة والإزعاج . ثم إننا نجد أن بابل حددت بشدة فى أيامها المتأخرة امتلاك الرقيق ، وأخيرا نجد فى تعاليم ذلك الثورى العظيم يسوع الناصرى من الهجوم والطعن على الملكية مالم يحدث من قبل . أليس هو القائل « لأن يلج الجمل فى سم الخياط أيسر من أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات . » ويلوح أن أجزاء العالم فى الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنا الماضية امتلأت بالنقد الدائم المتواصل للمدى الذى يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصرى بتسعة عشر قرنا نجد أجزاء العالم التى مستها تعاليم النصرانية من بعيد أو قريب مقتنعة بأنه لا يجوز للانسان امتلاك أخيه الإنسان . وثم فكرة أخرى تزلزلت أركانها كثيراً فيما يتعلق بأنواع أخرى من الممتلكات . وهى فكرة أن الإنسان حر يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك .

ولكن ذلك العالم الذى نتحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال من حيث تلك المسائل فى مرحلة الشك والتساؤل والاستفهام . لم يكن قد حصل على شىء بلغ القدر الكافى من الوضوح ، فضلا عن أن يبلغ القدر الكافى من الثبات والاستقرار ، لكى يطمئن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين ما داخله من البواعث الأولى وقاية الملكية من شراهة الملوك وتبديدهم واستغلال النبلاء المغامرين . لذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيسى إلى حد كبير ، هو وقاية الملكية الخاصة من الضرائب . ولكن مبدأ المساواة الذى اعتنقته تلك الثورة جرفها فى تياره فجعلها تنتقد الملكية التى نهضت لحمايتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين بينما حشود عظيمة منهم لا يملكون أرضا يتعيشون منها ، ولا طعاما يأكلونه ، كما أن الملاك يأبون — بالبداهة — أن يطعموهم أو يؤووهم مالم يعملوا ويكدحوا ! ! واشتدت نغمة شكوى الفقراء .

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا اللغز إلا الشروع فى التقسيم ، لقد شاؤا أن يبالغوا فى الملكية ويقووها ، ولكن كانت هناك أيضا

جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيراً أدق ـ الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، والذين أرادوا إلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاما . فارتأوا أن الدولة (ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعاً) تمتلك جميع الممتلكات .

لذا فمن المفارقات العجيبة أن رجالا متنوعين يهدفون إلى الهدف نفسه من الحرية والسعادة يقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع ، ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرما ، ولكن ذلك هو ما حدث فعلا . ومفتاح هذا التناقض العجيب يكمن فى أن الامتلاك والملكية ليسا شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة وأن أشياء كثيرة (منها على سبيل المثال جسم الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرشة الأسنان) إنما هى ممتلكات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لا سبيل إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالا عظيما من الأشياء منها مثلا السكك الحديدية وأنواع مختلفة من الماكينات والبيوت والحدائق المزروعة وقوارب النزهة ، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد المدى والقيود التى تدرج بمقتضاها تحت صنف الملكية الخاصة . وإلى أى حد تقع فى الملكية العامة ، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإدارى المقتدر للدولة ، وصيانته والمحافظة عليه . وهى تفتح أبواب مسائل تدخل فى صميم علم النفس الاجتماعى ، كما أنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن نقد الملكية لا يزال عملية اختمار هائلة محتدمة أكثر منه علماً له أصول ثابتة . فكان هناك من جهة دعاة مذهب الفردية (Individualists) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراهنة فى التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الذين يطالبون بتجميع ملكياتنا فى كثير من النواحى ، وبالحد من تصرفاتنا فى ممتلكاتنا . ولو نظرت بعين الفاحص إلى الواقع العملى لوجدت

آلافا من درجات الفوارق التى تفصل بين متطرفة الفرديين ، الذين لايكادون يطيقون فرض ضريبة من أى نوع لتمويل حكومة من الحكومات ، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكاراً باتاً . والاشتراكى العادى فى هذه الأيام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماعى ؛ وهو يرضى بقيام قدر جسيم من الملكية الخاصة ، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والمناجم وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية وما إلى ذلك من شئون فى يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم ، والظاهر لنا فعلا فى هذه الأيام أن كثيراً من الرجال المعقولين قد أخذوا يتجهون بالتدريج نحو الأخذ باشتراكية معتدلة تقوم على الدراسة العلمية والخطة المدروسة علميا . ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكا أن الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح فى الشئون العظيمة ، وأن كل خطوة تخطى فى سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكل « وظيفة » تسحبها الدولة من ذوى الجهود الخاصة (Private Enterprise) لتتولاها بنفسها ، تقتضى بالضرورة قيام مايواجهها من التقدم التربوى ، كما تقتضى تنظيم نوع صحيح من النقد والضبط والهيمنة ، وذلك فى حين أن كلا من الصحافة الموجودة الآن ومن الوسائل السياسية التى تتبعها الدولة المعاصرة لنا حاليا هما من الفجاجة والسذاجة بمنزلة كبيرة جداً لاتسمح بأى توسيع كبير للمناشط الحشدية .

على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمات التى نشبت بين صاحب العمل والعمال، ولا سيما ما كان منها بين صاحب العمل الأنانى والعامل المتبرم العنيد ، إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنيف بكل أرجاء العالم ، وهو النوع الذى يرتبط باسم ماركس . وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن عقول الرجال محدودة تحدها احتياجاتهم ولوازمهم الاقتصادية ، وأن هناك تطاحنا فى المصالح يقوم فى حضارتنا الراهنة بين طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة ، ومن البديهى أن تقدم التعليم الذى استلزمه الانقلاب الميكانيكى لابد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات « وعى طبقى » بل يجعلها تزداد كل يوم صلابة وعنفا فى خصومتها للأقلية الحاكمة ذات « الوعى الطبقى » هى أيضا . تنبأ ماركس بأن العمال ذوى الوعى الطبقى سيستولون على السلطة بطريقة ما . ويفتتحون بذلك حالة اجتماعية جديدة : ولا شك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور

مفهومة إلى حد كاف ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أى شىء آخر إلا أن يكون ذلك الشىء حدوث عمليـــة تدمر المجتمع ، وقد أظهرت الماركسية عندما وضعت موضع الاختيار بالروسيا أنها مذهب غير خلاق إلى درجة فريدة عجيبة .

حاول ماركس أن يجعل الخصومات الطبقية تحل محل الخصومات القومية ؛ وأنشأ أنصار مذهبه على التعاقب ثلاث منظمات هى الدولية الأولى والثانية والثالثة . ولكن فى الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك « الدولية » وآرائها عن طريق نقطة البداية التى تبدأ عندها آراء مذهب الفردية العصرى . ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميث الكاتب الاقتصادى الإنجليزى العظيم ، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء فى العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأى جزء من أجزائه . وأنصار المذهب الفردى بما يظهرون من عداء للدولة إنما يعادون أيضاً التعريفات الجمركية والحدود السياسية وكل ما يحدد حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التخوم القومية . ولعله مما يشوقنا أن نشهد مذهبين من مذاهب الفكر يتباعدان فى روحهما ذلك التباعد الشديد ، ويختلفان فى المادة والجوهر ، وأعنى بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات المنسوب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة المنسوبة إلى رجال الأعمال البريطانيين فى عهد الملكة ڤكتوريا . أقول نشهدهما يتجهان فى النهاية ، على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشئون الإنسانية معالجة عالمية شاملة تتجاوز تخوم كل دولة قائمة حاليا وقيودها . ولا شك أن منطق الحقيقة الواقعة ينتصر دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا بدأنا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين ، ولو أن لهما نقط ابتداء متباعدة تباعداً عظيماً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أن يحاولوا العمل معاً على أساسها ، بحث ابتداء ثانية بأوربا واشتد ساعده فى نفس الوقت الذى اضمحلت فيه ثقة الناس فى فكرتى الدولة الرومانية المقدسة والمسيحية ، وفى نفس الوقت الذى وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجاوز بها عالم البحر المتوسط إلى الدنيا بما رحبت .

على أن مواصلة الحديث فى موضوع تفصيل وتطور فكراتنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية حتى نصل به إلى ما يدور فى أيامنا هـــذه من أبحاث ومناقشات ، يكون معناه إدخال مشاكل جدلية بالغة تخرج تماما عن مجال هذا الكتاب وأهدافه ، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشهدها الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمى العام الفسيحة الآفاق ، نشعر بأننا مضطرون أن نعترف أن الذى نرى من إعادة صوغ هذه الفكرات التوجيهية فى العقل البشرى لايزال شيئا ناقصاً ــ حتى لنكاد لا نستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشىء عن الكمال . إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتبلور فعلا ، كما أنها قوية الأثر اليوم فى الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يعوزها حتى الآن شىء من الوضوح وشىء من قوة الإقناع حتى تستطيع أن تضطر الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم ينحرفون على الجملة إلى الشىء التقليدى ، على أنها لو قورنت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لايتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لبانت لنا بالفعل تباشير معالم نظام جـديد لشئون البشر فى طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقطعة تخفى فى هذه النقطة وتلك ، وتعتورها التقلبات فى تفاصيلها وصياغة مذهبها ، ومع ذلك فهى لاتبرح تزداد وضوحا ، كما أن خطوطها الرئيسية لاتفتأ يقل فيها التغير رويداً رويدا .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كر الأيام بشكل أوضح وأنصع ، أن البشرية أخذت تصبح مجتمعا واحـــدا من نواح عدة ، وفى مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم فى مثل تلك الشئون هيمنة وضبط يشملان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزدادون كل يوم إدراكا بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادى واحد ، وأن الاستغلال الصحيح لموارده الطبيعية يتطلب توجيها واحدا شاملا ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر اللذين خولهما الاختراع والمخترعات للجهد البشرى يجعلان الإدارة الجزئية المنكوبة بالمنازعات والشاحنات فى مثل تلك الشئون أحفل بالأخطار وأشد تبديدا وإتلافا لتلك الموارد ، ثم إن وسائل الإصلاح المالية والنقدية تصبح هى أيضاً موضع اهتمام عالمى عام ولايمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد اتضح للناس كافة أن الأمراض المعدية وزيادة عدد السكان وهجرتهم من الشئون العالمية أيضا . أما الحرب فإن تزايد قوة النشاط البشرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لاتتناسب فوائدها مع التدمير

والفساد اللذين يترتبان عليها ، بل لقد ، أصبحت عديمة الأثر وإن استعملت كوسيلة ممجة قبيحة لتسوية المشاكل الناشية بين حكومة وأخرى وشعب وآخر هذه الأمور جميعا تجأر مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالا وأعظم شمولا مما بلغته أى حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء حكومة عليا بشكل ما للعالم كله تقوم على الفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات الموجودة . وقياسا على النظم الموجودة وتمثلا بها ، فكر الناس فى إنشاء « برلمان البشرية » وفى (كونجرس) للعالم ، وفى تنصيب رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديهى أن يكون رد الفعل الطبيعى الأول للفكرة متجها إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتجربة الآراء والمحاولات فى مدى خمسين عاما قد أوهنت على الجملة الاعتقاد فى الفكرة الأولى الواضحة ، فإن مااعترض سبيل تلك الواحدة العالمية من مقاومات كان عظيما جداً ويبدو أن الفكر يتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو التنظيمات المخولة سلطة عالية شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أو تلك من الشئون أو القيام بها ، وهى هيئات تهتم بدراسة تبديد الثروة الطبيعية أو تنميتها ، وبإيجاد التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم ، وبالسلام العالمى وبمشاكل العملة والسكان والصحة وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكتشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعالج ككل واحد ، على حين يفوته فى نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبلغ الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع لمثل تلك التنظيمات الدولية فوق الشبهات والغيرات الوطنية الضيقة ، لابد أن يقتنع عقل البشر عامة بفكرة تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة ، فكرة تعلم وتفهم للناس كافة فى كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح الديانات العامة العظيمة عشرة قرون أو تزيد مكافحا مناضلا فى سبيل صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية العامة . ولكن الحقد والغضب والتشكك التى تولدت فى الماضى عن المنازعات القبلية والقومية والعنصرية لا تزال تسد السبيل إلى اليوم — بل تسد السبيل تماما وبنجاح تام — دون انتشار الآراء الروحية والبواعث

السمحة التى تجعل من الرجل منا خادما للبشرية كلها . إنّ فكرة الأخوة البشرية تكافح الآن للاستيلاء على أرواح البشر ، كما كافحت بالضبط فكرة المسيحية للاستيلاء على روح أوربا أثناء فترة الارتباك والفوضى التى غشيتها فى القرنين السادس والسابع للحقبة المسيحية . ولا بد من أن يتم انتشار مثل تلك الفكرات ونصرها على يد جمهرة ضخمة من المبشرين المخلصين المتواضعين ، وليس فى مقدور أى كاتب معاصر أن يدعى العلم بالمدى الذى بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع المحصول الذى يهيئه لنا الآن .

والظاهر أن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشاكل الدولية اختلاطا لا سبيل إلى فصمه كما أن حل كل مشكلة منها ينحصر فى التماس نفس روح الخدمة الإيثارية الذى يستطيع أن يدخل القلب الإنسانى ويملأه إلهاما . وإن ارتياب الشعوب وعنادها وأنانيتها لتعكس آثارها بل تنعكس هى نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو العمال أو عناده أو أنانيته إزاء الصالح العام ، وغلو الأفراد فى روح الملكية يماثل ، بل هو جزء لا يتجزأ من الشراهة الجشعة التى تبديها الشعوب والأباطرة . وذلك أنها ثمار الميول الغريزية نفسها ، ونتاج نفس الجهالات والتقاليد . والشيوعية الدولية إنما هى اشتراكية الأمم . وما يستطيع إنسان بحث هذه المشاكل أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافى من العمق والقوة أو أن الطرائق والتنظيمات التربوية أخذت حظها الكامل من قوة التخطيط بحيث تكفل إيجاد حل حقيقى ونهائى لهذه الألغاز المعماة المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم . فنحن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية للسلام فعالة الأثر حقا كسكان العالم فى ١٨٢٠ من حيث عجزهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربية . ولكن تلك الفكرة ليست — رغم كل مالدينا من مقدمات — بعيدة التحقيق ، وما يدرينا فلعلها قريب قرب الأخرى .

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته ، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر ، كما أن من المحال علينا أن نحدس أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيضطر إلى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأموال والأنفس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء قبل أن يبزغ فجر السلام العظيم الذى يبدو أن التاريخ بأكمله يتجه صوبه ويشير إليه بالبنان ، سلام يعمر القلب وسلام يعم الدنيا ، — أقول يبزغ ذلك الفجر فيضع حدا لحياتنا المبددة للقوى والأنفس والخالية من كل هدف ترمى إليه . وبديهى أن ما نقترحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة فجة يعوزها النضج .

ذلك أن الأهواء تكتنفها والشبهات تعتورها . أجل إن جهداعظيما يبذل الآن فى ناحية الإنشاء والبناء الفكرى ، ولكنه لا يزال ناقصا . كما أن تصوراتنا للمعنى العام لذلك الأمر تزداد فى كل يوم وضوحا وضبطا . فهل يحدث ذلك بسرعة أم ببطء ؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه . ولكنها كلما زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها فى عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب فى قلة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد افتقارها إلى الصحة الحقة . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقةواليقين . وربما فازبتلك القوة فوزاً سريعا . وعندئذ لابد وأن يؤدى ذلك الفهم الجلى إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوى .

الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار المخترعات الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر ، كما تبلورت تلك الأفكار نفسها في دستورها . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها ، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت غيرة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضربا من الحرية ، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عندهم فجة بصورة بربرية لامثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إظهار همة ونشاط في الجهد واهتمام بالمسائل العامة تفوق مابذله أي شعب معاصر له .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقا أن أمريكا التي تدين أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساسا بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والتلغراف وما إلى ذلك من مستحدثات كأنما هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ماحدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأنقذت وحده أمريكا . وكان الزورق النهري البخاري أول واضع لحجر الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي الدعامة الثانية لها. فلولا هذين الاختراعين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة تلك الأمة الضخمة التي تعمر قارة بأكملها . ولولاهما لصار انسياح السكان غربا أبطأ كثيرا ، ولعل انسياحهم هذا لم يكن يستطيع قط لولاهما تجاوز السهول الوسطى العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار الفعلي من الساحل الشرقي إلى نهر المسوري حوالي مئتي سنة ، مع أنها مسافة تقل كثيرا عن نصف الطريق بين المحيطين . وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية المسوري

المعتمدة على الزورق البخارى والتى قامت فى ١٨٢١ . على أن بقية المسافة إلى المحيط الهادى تمت فى بضع عشرات من السنين .

ولو كان فى متناول أيدينا استخدام السينما لأمتعناك بعرض خريطة لأمريكا الشمالية عاما بعد عام منذ ١٦٠٠ فما بعدها ، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناس الذين كانوا بها ، على أن تمثل كل نقطة مئة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التى يبلغ عدد سكانها مئة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارىء أن التنقيط سيظل مئتى عام يزحف ببطء على امتداد المناطق الساحلية والمياه والأنهار الصالحة للملاحة ، وأنه ينتشر بتدريج أبطأ كثيراً فى ولايتى إنديانا وكنتاكى وغيرها . ثم يحدث فى زمن مايقارب ١٨١٠ تغيير مفاجىء ، إذ تنشط الأمور كثيراً فى مجارى الأنهار . وعند ذلك تتكاثر النقط وتنتشر . وماذلك إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهى تتقدم سريعا فوق أراضى كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الارتحال على امتداد الأنهار العظيمة.

ثم تظهر منذ ١٨٣٠ الخطوط السوداء الممثلة فى الخرائط للسكك الحديدية ، ومنذ ذلك الحين لاتكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تنطلق مهرولة . فإنها تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضربا من الرشاشة هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين فجأة تظهر هنا وهناك أول النجوم التى تشير إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمئة ألف من السكان ، وإذا هى فى البداية مدينة أو اثنتان لا تلبث أن تصبح عدداً غفيراً من المدن — وكل منها كعقدة فى الشبكة النامية للسكة الحديد .

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطوراً لاعهد للناس بمثله فى تاريخ هذا العالم ؛ فإنها حدث من نوع جديد . وماكان من الممكن قبل ذلك نشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه ظهر دون سكك حديدية فلاشك أنه لم يكن محيص من أن يتمزق بددا قبل عصرنا هذا بزمن طويل . فلو لم يوجد التلغراف أو السكة الحديدية لأصبحت إدارة كاليفورنيا من مدينة بكين أسهل كثيرا منها من واشنطن ، على أن هذا العدد الهائل من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب ، بل ظل منسجما متناسقا ، بل الواقع الذى لاشك فيه أنهم زادوا انسجاما واتساقا . فالرجل الذى يسكن

سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيوانجلند قبل يومنا بقرن من الزمان . كما أن عملية التمثيل ماضية فى طريقها لا يعوقها عائق . فكيان الولايات المتحدة تنسجه وتحيك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف ، فتجعل منه على التدريج مجتمعا هائلا موحداً ، يتحدث ويفكر ويتصرف فى انسجام تام مع نفسه . ولن يمضى زمن حتى يؤدى الطيران واجبه من المشاركة فى هذه العملية .

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شىء جديد حقاً لا نظير له فى التاريخ . أجل سبقتها فى الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مئة مليون نسمة ، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة ، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا العيار قبلها شعب واحد بمفرده ، لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشىء الجديد . ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قطراً ، ولكن شتان بين الشيئين ؛ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التى يجرها حصان ، لقد أنشأتهما عهود متباينة وظروف متباينة ، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة وتتناولانها بطريقة مختلفة تماما . فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانيات ، تقف فى منتصف الطريق بين دولة أوربية من الطراز القديم وبين ولايات متحدة تشمل العالم أجمع .

على أن الشعب الأمريكى مر وهو طريقه إلى هذه العظمة والطمأنينة فى مرحلة من مراحل النضال العنيف القاسى . ذلك أن الزورق النهرى البخارى وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل المريحة ، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية ، فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق ، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق ، ولم تثمر السكك الحديدية والزورق البخارى فى البداية إلا ثمرة واحدة هى زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آنفا التى كان يعتنقها شطرا الولايات المتحدة فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل المواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة وإلحاحها : فهل ينبغى أن تسود فكرة الجنوب أو تتغلب روح الشمال ؟ . وكان احتمال تفاهم الطرفين ضعيفاً . ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تزكية الفردية ؛ أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة ونحو تسلط سادة ذوى وعى طبقى على جماهير سوداء ذليلة .

وكانت كل منطقة جديدة تنتظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم سيل السكان غربا ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكى الهائل المتواصل النماء ، يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين : فهل ينبغى أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيسودها نظام المزرعة الكبيرة والعبد المملوك ؟ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ ١٨٣٣ لاتقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تثير الرأى العام فى البلاد كلها لإلغائه إلغاءً تاما ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس فى الاتحاد . كانت ولاية تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا متوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التى تبيح الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فى ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة فى ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب أخذ يطالب آنئذ بإباحة الرق بها وضمها إليه ، وفعلا تم له ما أراد .

وفى ذلك الحين نفسه أخذ نمو الملاحة فى المحيط وتطورها يجلب من أوربا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيرا فى سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غربا مما ترتب عليه تحويل مناطق أيوا ، وويسكنسن ومينيسوتا وأوريجون — وكلها مناطق زراعية شمالية — إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوىء للرق فرصة التفوق فى كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن ، لنمو قوة أنصار حركة إلغاء الرقيق وتهديدهم لمصالحه ، وخشى مغبة هذا التفوق فى الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد . بل لقد شرع الجنوبيون يحلمون بضم المكسيك إليهم فى الجنوب هى وجزائر الهند الغربية ، وبإنشاء دولة عظيمة تبيح الرق وتنفصل عن الشمال وتمد حدودها حتى بنما .

على أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٠ — وهو يدين بمذهب عدم مد حدودها جنوبا — دعا الجنوب إلى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد ، وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوما بالانفصال ، وتأهبت لخوض غمار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات المسيسبى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولويزيانا وتكساس ، واجتمع بمدينة منتجمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيسا لولايات الجنوب المؤتلفة ، واعتمد دستوراً يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجى .

وتصادف أن كان أبراهام لنكولن رجلا يمثل تماما طراز الشعب الجديد الذى ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال . قضى أيامه الأولى يعيش فى غمرة تيار السكان العام المتجه غربا . ولد بولاية كنتوكى فى ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، فإلى إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة فى مجاهل غابات إنديانا أثناء تلك الأيام خشنة مليئة بشظف العيش ؛ ولم يكن المنزل الذى عاش فيه إلا كشكا من الكتل الخشبية يقوم فى البرية . كما أنه لم يصب من التعليم إلا قسطا ضئيلا ومتقطعا . ولكن أمه علمته القراءة منذ حداثته ومن ثم أصبح قارئاً منهوماً واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة يهوى المصارعة والعدو . وعمل ردحا من الزمن كاتباً بأحد المتاجر ، ثم فتح متجرا مع شريك سكير . فوقع فى ربقة ديون لم يتيسر له سدادها إلا فى مدى خمسة عشر عاما . وما لبث أن انتخب فى ١٨٣٤ عضوا فى مجلس النواب عن ولاية إلينوا وهو بعد فى الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج لهيبها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لحزب نشر الرق فى الكونجرس القومى ، كان عضو مجلس الشيوخ عن تلك المقاطعة . وقد أوتى دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لنكولن بضع سنين يحاربه بالخطب والنشرات ، وهو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصمه القوى المكين الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته فى حملة الرئاسة الانتخابية فى ١٨٦٠ ، حيث انتخب لنكولن رئيسا فى ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات الحربية .

قاتلت فى هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيوش جندت ارتجالا دون سابق تدريب ، وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تناهى الأمر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ؛ ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض تمتد بين ولاية نيومكسيكو والمحيط الأطلنطى شرقا ، وكانت مدينتا واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن مضاعف الهمم أثناء ذلك الكفاح الرائع الذى كان يتدحرج ذهابا وجيئة عبر التلال والغابات بولايتى تنسى وفرجينيا وينحدر مع نهر المسيسبى . كان كفاحا بددت فيه القوى والثروات وأزهقت فيه الأرواح على نحو رهيب جامح ، فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أعقبته دياجى اليأس ، ثم عاد

الرجاء فأنار ثم خيم اليأس مرة ثانية ؛ فيوما تلوح واشنطن كأنما هى فى قبضة ولايات الجنوب المؤتلفة أو تكاد ؛ ويوما تبكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلى ريتشموند وكان جند ولايات الجنوب المؤتلفة يقاتلون تحت إمرة قائد مقتدر عظيم هو الجنرال لى وإن فاقهم الشماليون فى العدد والموارد . ولكن قيادة الاتحاد الشمالى كانت أدنى كفاية بكثير ، لذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكانهم آخرون جدد ؛ حتى تم النصر فى النهاية تحت قيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب المهلهلة الثياب المستنزفة الموارد والدماء . ففى أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق ميسرة الجنوب وتقدم من تنسى إلى الساحل مخترقا جورجيا ، ومارا عبر بلاد الجنوب وفى صميم أقاليمه . ثم انحرف شمالا خلال ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية ، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفى الوقت ذاته كان جرانت يشل جيش لى أمام ريتشموند عن كل حركة حتى أطبقت عليه جيوش شيرمان . ولم يلبث لى أن سلم بجيشه فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ قرب أبوماتكس كورت هاوس ، ولم ينقض شهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها . وانتهت دولة الجنوب .

أجهد هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات شعب الولايات المتحدة إجهادا ماديا ومعنويا وخلقيا هائلا ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محببا لدى أنفس كثيرة ، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب فى الواقع على إلغاء الرق إرغاما . ولقد بلغ الأمر بالناس فى الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين ، أن كان الإخوة وأبناء العمومة ؛ بل الآباء وأبناؤهم ، ينحازون إلى شيع متضادة ويجدون أنفسهم يتقاتلون فى جيوش متعادية ، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل ، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدعو إليه من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرأ من العيب أو فوق التجريح والتحدى ، ولكن لنكولن لم يساوره أي شك . فإنه ظل محتفظا بصفاء ذهنه رغم تلك البلبلة الشديدة ، وكان يؤمن بالاتحاد ويقف مدافعا دونه وكان يناصر السلام الشامل لأمريكا . وكان عدوا للرق . وإن عد الرق مسألة ثانوية ؛ أما هدفه الأول فهو ألا تتمزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين متباينين ومتناحرين .

ولما شرع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون أثناء المراحل الأولى للحرب فى التسرع فى فك رقاب الرقيق اعترض عليهم لنكولن وخفف من غلواء حماستهم . ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم فلم يتجاوز الوقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتعويضات إلا فى يناير سنة ١٨٦٥ ، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينا الحرب تجر ساقيها متثاقلة فى ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ ، خمدت ثائرة الانفعالات الأولى والحماسات الأولى ، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التبرم بالحرب والاشمئزاز منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خونة ودعاة هزيمة وقوادا معزولين وسياسيين حزبيين ملتوين ، كما لم يجد خلفه إلا شعبا متشككا متعبا ، ولا أمامه إلا قوادا أغبياء وجنودا مبتئسين ، ولسنا نشك أن عزاءه الوحيد فى تلك المحنة كان شعوره بأن دافيز فى ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالا . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم وسمحت لوكلاء الجنوب بانجلترة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصنة فى المحيط وأن يزودوها بالرجال — وأشهرها هى الالاباما — فكانت تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها فى البحار . وذلك على حين راح الجيش الفرنسى بالمكسيك يمرغ فى الوحل مذهب مونرو . وتواردت على الرئيس مقترحات قائلة بإيقاف الحرب ، وترك نتائجها لمناقشات تجرى فيما بعد ، والانقضاض بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك ولكنه أبى أن يصغى إلى مثل تلك المقترحات مالم تصبح كلمة الاتحاد وسلطته هى العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هذه الأعمال كشعب واحد لا كشعبين منفصلين .

لقد ظل لنكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهور طويلة مضنية حفلت بالهزائم والجهد العديم الجدوى وفى مراحل قائمة من الفرقة والانقسام وخور العزيمة وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوما عن هدفه . ومرت عليه فترات لم يكن يجد أثناءها شيئا يعمله ، فترات كان يجلس أثناءها فى البيت الأبيض صامتاً لايتحرك ، كأنه تمثال صارم متجهم للعزيمة والتصميم ؛ وجاءت عليه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بالمزاح والفكاهة المكشوفة .

ولقد فاز لنكولن بما اشتهى ، فإن نضال الاتحاد قد تكلل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعد تسليمها بيوم واحد ، وسمع بتسليم الجنرال لى . ثم عاد إلى

واشنطن ، وألقى آخر خطبة عامة له يوم ١١ أبريل . وكان مذهبه الذى يدين به هو الصلح وإعادة تكوين الحكومات الموالية فى الولايات المنهزمة . وذهب فى مساء ١٤ أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه ممثل اسمه بوث وجرحه جرحا قاتلا ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فتسلل إلى اللوج دون أن يراه أحد . ولكن لنكولن كان قد أدى ما عليه ؛ وتم انقاذ الاتحاد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدى يمتد إلى ساحل المحيط الهادى؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو وإذا هى حتى اليوم تقبض على أراضى الولايات المتحدة الشاسعة المترامية وتضمها بعضها إلى بعض وتنسجها وحدة عقلية ومادية لا سبيل إلى حلها . هى أعظم مجتمع حقيقى فى العالم ، حتى يجىء الوقت الذى يتعلم فيه عامة الصين القراءة .

الفصل الحادي والستون

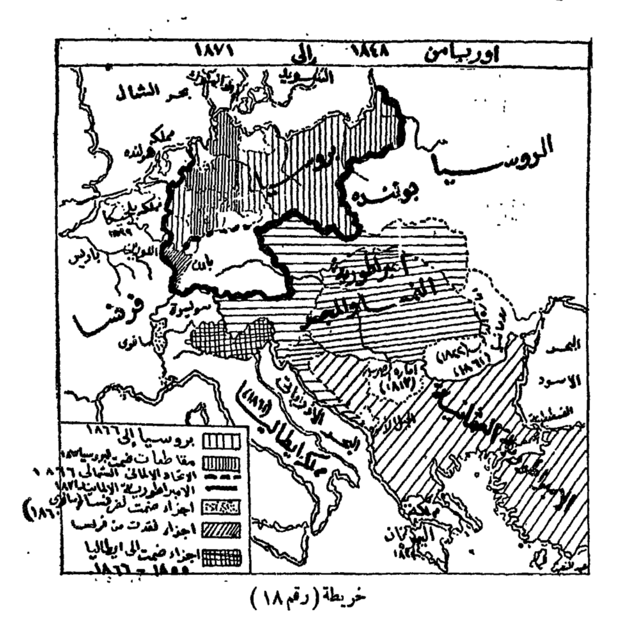
ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعد الهزات العنيفة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومغامرات نابليون ، أن استسلمت أوربا من جديد لفترة سلام يسود القلق والاضطراب وأن شملتها الظروف السياسية التي كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما ؛ ولكن في صورة مجددة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة في معالجة الصلب ولا السكة الحديدية أو الباخرة . على أن التوتر الاجتماعي الناجم عن نمو الصناعة في المدن سار أشواطا . وظلت فرنسا قطرا بادي القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى في ١٨٤٨ . ثم تبوأ نابليون الثالث ، وهو ابن أخ لنابليون الأول رئاسة الجمهورية أول ، وأعلن نفسه إمبراطورا ١٨٥٢ .

فشرع من فوره في إعادة تشييد باريس ، وحولها من مدينة جميلة غير صحية من مدن القرن السابع عشر ، إلى المدينة الواسعة الأطرف اللاتينية الطابع الرخامية المباني التي نشهدها اليوم . وشرع من فوره في إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطابع العصري المشرق . وأبدى شيئا من الميل إلى بعث روح المنافسة بين الدول الكبرى ، التي ظلت تشغل أوربا تماما بحروب غير مجدية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . واتخذ نقولا الأول قيصر الروسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٦ نفس النزعات العدوانية وأخذ يضغط جنوبا على الإمبراطورية التركية وقد شخص ببصره إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت في أوربا دورة جديدة من الحروب . وكلها في الغالب حروب غايتها الرفعة وتوازن القوى فهاجمت إنجلترة وفرنسا ومملكة سردينيا دولة الروس في بلاد القرم دفاعا عن تركيا ؛ وتقاتلت على زعامة ألمانيا كل من بروسيا (ومعها إيطاليا كحليفة) والنمسا ، وحررت فرنسا شمال إيطاليا من ربقة النمسا وقبضت مقاطعة سافوى ثمنا لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدريج في نطاق مملكة واحدة . وعندئذ هجس نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح

المكسيك أثناء الحرب الأهلية فى أمريكا ؛ فنصب فيها إمبراطوراً هو مكسمليان ، ثم بادر بالتخلى عنه وتركه يواجه المقادير بمفرده ، وما لبث أهل المكسيك أن أعدموه رميا بالرصاص ، بمجرد أن كشرت عن أنيابها حكومة الولايات المتحدة المنتصرة فى معركة الاتحاد .



خريطة (رقم ١٨)

وفى ١٨٧٠ نشب بين فرنسا وبروسيا صراع على السيادة فى أوربا بعد أن ظل يهدد بالانفجار أمدا طويلا . وقد تكهنت بروسيا بذلك الكفاح منذ زمن بعيد ، بينما كان الفساد المالى ينخر فى أحشاء فرنسا داخليا . ولذا كانت هزيمتها سريعة شديدة أخاذة . وغزا الألمان فرنسا فى أغسطس ، فسلم جيش فرنسى كبير بقيادة الإمبراطور نفسه دون قيد أو شرط قرب سيدان فى سبتمبر ، ثم سلم آخر فى شهر أكتوبر عندمتز ، وسقطت باريس فى أيدى الألمان (يناير ١٨٧١) بعد أن حوصرت وضربت بالمدافع .

ووقع الصلح بمدينة فرنكفورت ، وبه نزلت فرنسا عن مقاطعتى الألزاس واللورين للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا فى إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ، إمبراطورا لألمانيا فزاد عدد القياصرة فى أوربا قيصرا جديدا .

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة فى قارة أوربا . ونشبت حرب بين الروسيا وتركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) ، ولكن الحدود الأوربية ظلت ثابتة بصورة قلقة طوال الثلاثين سنة التالية ، لم يداخلها أثناءها إلا تعديلات بسيطة بمنطقة البلقان .

الفصل الثانى والستون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمزق إمبراطوريات وتحطم أحلام لدعاة التوسع . ذلك أن الرحلة الطويلة المضنية من بريطانيا وأسبانيا إلى مستعمراتهما بأمريكا تحول دون الرواح والغدو الحر بين الوطن الأم وبناته المستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديد منفصلة متميزة ، لها أفكارها المتميزة ومصالحها بل حتى طرائقها الخاصة فى النطق والتعبير . وكانت كلما نمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التى كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تتعلق محطات تجارية ضعيفة تقوم فى مجاهل البرية (كالتى كانت لفرنسا بكندا) أو مؤسسات تجارية بين ظهرانى مجتمعات غريبة كبيرة (كالتى كانت لبريطانيا ببلاد الهند) تتعلق فى سبيل البقاء البحت بالأمة التى أمدتها بالعون ومنحتها مبرر وجودها . ذلك وحده ولا شىء غيره كان فيما يخيل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار . وما وافت ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوربية الكبيرة غير المنتظمة الحدود ، التى كانت تبدو بارزة الضخامة فى خرائط منتصف القرن الثامن عشر . ولم ينج من هذا المصير إلا الإمبراطورية الروسية التى ظلت تزحف عبر آسيا محتفظة دائماً بضخامتها وأكثر .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تتكون فى ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان ونواحيها المحيطة بالأنهار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البرارى كان كل مافيها من المستقرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن ثلث شبه جزيرة الهند ، الذى تحكمه شركة الهند الشرقية ، والمناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التى كان يسكنها السود وبعض المستقرين الهولنديين ذوى النفوس المتمردة ؛ ثم بضع محطات تجارية على ساحل إفريقية الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقاء ، بجزائر الهند الغربية ، وغيانة البريطانية بأمريكا الجنوبية ، كما كان لها عدا ذلك مستودعان للمجرمين يقومان فى آخر أطراف العالم عند خليج بوتانى بأستراليا وبجزيرة تسمانيا . أما أسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا وبضع مستقرات بجزائر الفلبين ، على حين تبقى للبرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعى ملكيته قديما .

أما هولندة فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية ، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانة الفرنسية ، وكأنما كان ذلك هو القدر الذى تحتاج إليه الدول الأوربية : أو الذى يحتمل أن تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم . ولم يكن ثم أحد يبدى روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية .

وبينما كانت أوربا مشتبكة فى حروب نابليون ، كانت شركة الهند الشرقية تلعب فى الهند برياسة جمهرة متعاقبة من المديرين الدور ذاته الذى لعبه بتلك البلاد من قبل التركمان ومن شابههم من غزاة شماليين . وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا ، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الأسيوية ، كأنما هى دولة شبه مستقلة . ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب .

ولا يتسع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التى استطاعت بها الشركة البريطانية أن تشق طريقها نحو السيادة بأن تكون تارة حليفا لهذه الدولة وتارة أخرى حليفا لتلك ، حتى غدت فى النهاية قاهرة الجميع . امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم السند وأوده . بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية المألوفة لتلاميذ المدارس عندنا اليوم . فهى خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التى يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطانى المباشر .

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطانى فى سنة ١٨٥٩ ، بعد تمرد خطير قام به الجند الوطنيون بالهند . وبمقتضى قانون صدر بعنوان « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح المدير العام نائبا للملك يمثل العاهل صاحب التاج ، وحل محل الشركة وزير للهند ، مسئول أمام البرلمان البريطانى ، ورغبة فى

الوصول بالأمر إلى غايته الطبيعية، حمل اللورد بيكونزفيلد الملكة فكتوريا فى سنة ١٨٧٧ على المناداة بنفسها إمبراطورة للهند .

والهند وبريطانيا ترتبطان فى الوقت الحاضر على هذه الأسس العجيبة الخارقة (١). ذلك أن الهند لاتزال إمبراطورية « المغولى العظيم » ، ولكن المغولى العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . فالهند دولة حكم مطلق ليس بها عاهل مطلق . فحكمها يجمع بين مساوىء الملكية المطلقة وبين ما للموظفين فى ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمت إلى النواحى الشخصية بأى علاقة ، فالهندى الذى له ظلامة لايجد أمامه عاهلا يلجأ إليه، فما إمبراطوره إلا رمز من ذهب ، لذا لم يكن أمامه مفر من إذاعة النشرات بانجلترة أو الإيحاء إلى النواب بالقاء سؤال بمجلس العموم البريطانى . وكلما زاد البرلمان انشغالا بالشئون البريطانية قل ما تلقاه الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وفيما عدا الهند لم يتيسر لأية إمبراطورية أوربية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها ، وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين ببريطانيا تميل إلى اعتبار المتلكات وراء البحار مصدرا لضعف الدولة لا قوتها . ونمت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنحاس فى سنة ١٨٤٢ ، وأخرى للذهب فى سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة، كما أن تحسن وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصريف المتزايد فى الأسواق الأوربية . هذا إلى أن كندا لم تصب تقدما ملحوظا إلا فى عام ١٨٤٩ إذ كانت تمزق كلتها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، لذا حدثت بها عدة ثوارت خطيرة ، فلم يخفف من متاعبها الداخلية فى النهاية إلا صدور دستور جديد فى سنة ١٨٦٧ أنشأ دومنيون كندا الاتحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبه الفضل فى تغيير مستقبل كندا فإنها مكنتها — مثلما مكنت من قبلها الولايات المتحدة — من التوسع غربا ، ومن بيع قمحها وغيره من المنتجات فى أوربا، كما مكنتها على الرغم من نموها السريع المترامى من أن تظل مجتمعا واحدا تجمعه اللغة والعاطفة والمصلحة .

(١) استقلت الهند فى عام ١٩٤٧ وإن ظلت عضوا فى الكومنولث (أى مجموعة الأمم البريطانية) ثم أعلنت بها الجمهورية . [المترجم]

للشركة ، والواقع الذى لاشك فيه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية وأسلاك التلغراف البحرى كانت تغير تماما جميع أحوال التطور الاستعمارى .

وكانت للانجليز مستقرات بجزيرة نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة لأراضى نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث نيوزيلندة أن ألحقت هى أيضا فى سنة ١٨٤٠ بالممتلكات الاستعمارية للتاج البريطانى .

وكانت كندا كما ذكرنا آنفا أول الممتلكات البريطانية التى استجابت بقوة للامكانيات الاقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة .. وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية خاصة منها جمهورية الأرجنتين ، تشعر من حيث تجارة المواشى واللحوم وزراعة البن ، بتزايد قرب السوق الأوربية . وإلى ذلك الحين كانت أهم السلع التى تجتذب دول أوربا إلى اقتحام المناطق الهمجية غير الآهلة بالسكان ، هى الذهب أو غيره من المعادن أو التوابل والأفاوية أو العاج أو العبيد ، ولكن زيادة السكان بأوربا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تجبر الحكومات على البحث فى الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس علمية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة ، كالشحوم والزيوت من جميع الأصناف والمطاط ومواد أخرى كان يغفل شأنها قبل الآن ، وكان جليا للعيان أن بريطانيا العظمى وهولنده والبرتغال كانت تجنى ثمارا وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سيطرتها الكبيرة على منتجات الأقاليم الحارة ، ثم شرعت ألمانيا بعد سنة ١٨٧١ ومن ورائها على الفور فرنسا فإيطاليا فيما بعد ، تشخص ببصرها باحثة عن مناطق للمواد الخام لم يضمها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع العصرى بها بصورة مثمرة ومربحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينج منه إلا أمريكا التى وقف فيها مبدأ مونرو آنذاك حائلا دون مثل تلك المغامرات الباحثة عن أرض لا تجد من يحميها سياسيا .

وكانت إفريقيا أقرب القارات إلى أوربا وهى مليئة بالإمكانيات التى يكتنفها الغموض والإبهام . كانت فى ١٨٥٠ بلداً تحيط به الأسرار القاتمة السوداء ؛ فلم يكن معروفا من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، ويضيق المقام هنا عن قصة

المستكشفين والمغامرين المدهشة الذين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك المجاهل الإفريقية، وعن ذكر العملاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين مالبثوا أن ساروا فى إثرهم . وبفضل ارتياد إفريقيا رفع اللثام عن أجناس بشرية مدهشة كالأقزام مثلا ، وعن حيوانات عجيبة كالأوكابى ، وعن فواكه وأزهار وحشرات بديعة ، وأمراض فظيعة ، ومناظر أخاذة للغابات والجبال ، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة ومساقط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند زمبابو) بقايا حضارة بائدة لم يسجلها التاريخ ، هى آثار مغامرة اتجهت جنوبا لشعب قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد وفد الأوربيون ، ووجدوا البندقية به فى أيدى تجار الرقيق العرب ، كما وجدوا حياة الزنوج فى اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاما وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقيا كلها قد رسمت خريطتها وارتيدت مجاهلها وقدرت قيمتها وقسمت بين الدول الأوربية ، ولم يعن أحد أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن النخاس العربى لم يطرد من الميدان فقط بل أبيد تماما ، ولكن الجشع والشراهة على المطاط الذى كان محصولا بريا يجمعه الأهالى قسراً فى إقليم الكونغو البلجيكى ، وهو جشع تفاقم شره بسبب الاصطدامات التى نشبت بين الحكام الأوربيين غير ذوى الخبرة وبين الأهالى أفضى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع ، ولا تستطيع دولة أوربية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماما من آثام تلك الحقبة.



(خريطة رقم ١٩)

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها رغم أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوشك هذا التخاطف على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول الكولونيل مارشان في فاشوده ، أن يستولي على النيل الأعلى أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولن يتيسر لنا أيضاً أن نحدثك كيف سمحت الحكومة البريطانية أولا للبوير أي المستوطنين الهولنديين بمنطقتي نهر الأورانج والترنسفال، أن ينشئوا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقيا الداخلية ، ثم عادت فندمت على ما فعلت وضمت جمهوريات الترنسفال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بوير الترنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماجوبا في ١٨٨١ ، وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالغصة في حلق الشعب البريطاني أو القرحة في ذاكرته . لذا لم تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حربا دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطاني نفقات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلا . إذ لم يلبث حزب الأحرار البريطاني في ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية التي قهرتهما ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب أفريقيا ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناتال في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتي جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني .

ثم تقسيم إفريقيا في ربع قرن . وبقيت هناك ثلاث دول صغيرة نسبياً حافظت على استقلالها . هي ليبيريا وهي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقية الغربي ؛ ومراكش التي يحكمها سلطان مسلم ؛ وبلاد الحبشة ، وهي قطر همجي يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب ، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإنقاذه من عادية إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦ .

الفصل الثالث والستون

العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عدداً ضخماً من الناس قد قبل حقاً هـذا التقسيم الأرعن المتسرع لإفريقيا بوصفه تسوية دائمة جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس تقبلوه على ذلك الوصف . لم يكن العقل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا نصيب ضئيل من العلم بالتاريخ ، كما أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد النفاذ . ولا يغرب عن البال أن المزايا المؤقتة البحتة التي أتاحها الانقلاب الميكانيكي ببلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم ، كانت شيئاً يعده كل من يجهل جهلا مطبقاً أحداثاً كبيرة كفتوح المغول وآيات تشهد بأن الأوربيين يتزعمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان . فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان نقل العلم واقتباس ثمراته . وكأنهم لم يدركوا أن الصيني أو الهندي كان يستطيع أن يتناول بيديه مشعل البحث العلمي بنفس مقـدرة الفرنسي أو الانجليزي تماما ، وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعاً فكرياً فطر عليه ، وأن الشرق جبل على شيء فطري من التكاسل والمحافظة على القديم ، وأن هذه حال تضمن للأوربي السيادة العالمية إلى أبد الآبدين .

وكانت عاقبة ذلك التهوس الجنوني أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوربا لم تكتف فقط بالتسابق مع البريطانيين طلبا للمناطق المتأخرة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تقتطع أقطار آسيا المتمدنة الآهلة بالسكان كأنما لم يكن أولئك الأهلون أيضاً إلا مواداً خاما للاستثمار والاستغلال ومن البديهي أن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة ببلاد الهند ، ذلك الاستعمار المزعزع الأركان في باطنه وواقع حقيقته والفاخر في ظاهره ، وأن ممتلكات الهولنديين المترامية الأطراف الكثيرة الأرباح والثمرات بجزر الهند الشرقية ، كانت تملأ الدول الكبرى المنافسة لهما بأحلام أمجاد مشابهة لهذه ببلاد فارس ، وبالإمبراطورية العثمانية التي شرعت تتفكك ، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا فى ١٨٩٨ على كياوتشاو بأرض الصين ، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على واى هاى واى . وما لبث الروس أن استولوا فى السنة التالية على بورت آرثر . وانبعث فى الصين روح الكراهية للأوربيين . وقاموا بكثير من المذابح أعملوا فيها أيديهم فى الأوربيين وفى الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، كما هاجموا فى ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية فى بيكين وحاصروها . وأرسلت إلى بيكين حملة تأديبية لدول أوربية مختلفة . فقامت بإنقاذ السفارات وسرقت قدرا هائلا من الممتلكات الثمينة والتحف . وعندذلك استولى الروس على منشوريا كما اجتاح البريطانيون بلادالتبت فى ١٩٠٤.

هنالك ظهرت فى ميدان الكفاح بين الدول العظمى قوة جديدة هى اليابان . ولم تلعب اليابان حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً فى تاريخنا هذا ؛ ذلك أن حضارتها المنعزلة لم تضرب بسهم كبير جداً فى الصياغة العامة لمصائر البشرية ؛ فهى قد تلقت الشىء الكثير ولم تعط إلا القليل . والشعب اليابانى الحقيقى ينتمى إلى الجنس المغولى . وما حضارتهم وكتابتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين — ولكن تاريخهم ممتع « ورومانسى » ؛ فقد تطور بينهم أثناء القرون الأولى للحقبة المسيحية نظام إقطاع وفروسية ؛ ولا إخال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشرقى لحروب الإنجليز بفرنسا وقد أرغمت اليابان على الاتصال بأوربا لأول مرة فى القرن السادس عشر ؛ ثم وصل إليها فى ١٥٤٢ بعض البرتغاليين قادمين فى سفينة صينية ، ثم نزلها فى ١٥٤٩ مبشر جيزويتى ، هو فرانسيس زافيير الذى بدأ يبشر الناس هناك . وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوربيين ردحا من الزمن ، تهيأ للمبشرين المسيحيين أثناءه أن يضموا إلى عقيدتهم عدداً كبيراً من الأهالى . وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشارا لليابانيين وموضع ثقتهم أكثر من الأوربيين جميعاً ، فأراهم كيف يصنعون السفن الكبيرة . ومن ثم قام اليابانيون على سفن بنيت فى بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيرو . ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومينيك الأسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستنت الإنجليز والهولنديين ، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطماع الآخرين وخططهم السياسية . وحظى الجزويت يوما بدور من أدوار الرفعة والعزة ، فأخذوا ينحون أثناءه على البوذيين بالاضطهاد الغليظ والإهانات الجارحة . وأخيراً اقتنع اليابانيون أن الأوربيين مصدر تكدير لهم لا سبيل إلى الصبر عليه ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستارا تستتر وراءه أطماع البابا السياسية وأحلام ملوك أسبانيا (الذين كانوا يملكون آنئذ جزائر الفلبين) ؛ فأنزلوا بالمسيحيين اضطهادا عظيما ، ثم

أقفلوا أبواب اليابان فى ١٦٣٨ اقفالا تاما فى وجه الأوربين ، فظلت كذلك مايربوعلى مئتى سنة . وانقطعت صلة اليابانيين أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العالم تماما حتى لكأنهم يعيشون فى كوكب آخر غير الأرض إذ حرم عليهم بناء أية سفينة يكبر حجمها عن حجم زورق الانتقال الساحلى . وحظر على اليابانيين مغادرة البلاد إلى الخارج ، ومنع الأوربيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين بمعزل عن مجرى التاريخ الرئيسى وواصلت العيش فى فن إقطاعى جذاب ، كانت خمسة فى المئة من السكان أثناءها هى الساموراى ، أى المقاتلة ومعهم النبلاء وعائلاتهم ، تحكم بقية السكان حكما جائراً مطلقا لا ضابط له ولا حدود حدث ذلك كله والعالم الخارجى الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائه وفلك قواه .

فتكاثرت السفن العجيبة الشكل التى تمر بجوار الرؤوس الأرضية اليابانية الممتدة فى البحر؛ وكانت بعض السفن تتحطم أحيانا ويجلب نوتيتها إلى الشاطىء ، ثم جاءتهم النذر عن طريق المستوطنة الهولندية القائمة على جزائر ديشيما ، وهى همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى — أن اليابان لم تكن تساير ركب القوة فى العالم الغربى . وأقبلت فى ١٨٣٧ سفينة دخلت خليج يدو رافعة علما عجيبا من نجوم وشقق ملونة ، وقد حملت بعض الملاحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا فى المحيط الهادى . وعندئذ أطلقت المدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاد هذا العلم إلى الظهور ثانية يرفرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جاءت فى ١٨٤٩ للمطالبة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا تحطمت سفينتهم باليابان . ثم جاءت فى ١٨٥٣ أربع سفن حربية أمريكية بقيادة قائد الأسطول برى Perry ورفضت أن تنسحب فألقى القائد مراسيه فى المياه المحرمة على الأجانب ، وأرسل رسله إلى الحاكمين اللذين كانا يشتركان وقتئذ فى حكم اليابان . ثم عاد فى ١٨٥٤ بعشرة سفن ، سفن ضخام مذهلة يدفعها البخار ، وقد زودت بالمدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاتصال بالخارج ، لم يسع اليابانيين إلا قبولها . ونزل القائد إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمئة رجل لكى يوقع المعاهدة . ووقفت الجماهير وهى لا تكاد تصدق أعينها تشهد هؤلاء الزوار الوافدين من العالم الخارجى ، وهم يخترقون شوارع مدينتهم .

وما لبثت الروسيا وبريطانيا أن حذتا حذو أمريكا . ورأى نبيل عظيم كانت أملاكه تطل على مضيق شيمونوسيكى أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية ، فجاءت

عمارة غربية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته وبددت شمل جنده المقاتلين بالسيوف ، وأخيراً جاء أسطول لهؤلاء الحلفاء فى ١٨٦٥ ، فألقى مراسيه خارج كيوتو وفرض على اليابان تعديلا للمعاهدات اضطرها إلى فتح أبوابها على مصاريعها العالم .

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد . فهبوا بهمة وذكاء مدهش يعملون على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوربية . ولم يحدث قط فى تاريخ العالم بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة الهولة التى خطتها عند ذاك اليابان . كانت فى ١٨٦٦ شعبا يعيش فى القرون الوسطى ؛ ويمثل صورة هزلية خيالية لأحد أنواع نظم الإقطاع « الرومانسى » تطرفا ؛ على أن شعبها أصبح فى ١٨٩٩ مصطبغا تماماً بالطابع الغربى ، ويعيش على مستوى أرقى الدول الغربية تقدما فبددت تماما بذلك اقتناع الناس بأن آسيا كانت تتأخر عن أوربا تأخراً لا مرد له ولا رجاء فى إصلاحه . وجعلت كل تقدم أحرزته أوربا يبدو بالموازنة بطيئا متوانيا .

ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين فى ١٨٩٤ — ١٨٩٥ . وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربى . إذ دلت على أن لها جيشا قادرا ذا نظام غربى ، وأسطولا صغيراً ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومغزاها وإن لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتين شرعتا آنفاً تعاملانها كدولة أوربية ، إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المنشغلة فى البحث عن « هند » جديدة بقارة آسيا . ذلك أن الروسيا كانت تتقدم جنوبا خلال منشوريا إلى شبه جزيرة كوريا . وأن فرنسا قد وطدت أقدامها آنفا بمنطقتى تونكين وأنام ، على حين راحت ألمانيا تتربص كالذئب الجائع باحثة عن مستقرة لها . واجتمعت الدول الثلاث على منع اليابان من اجتناء أى ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منهكة القوى من جراء تلك الحرب كما أن الدول الثلاث هددتها بالحرب .

وخضعت اليابان إلى حين وأخذت تجمع قواها . فلم تنقص عشر سنوات حتى أصبحت على أهبة الاستعداد للحرب مع الروسيا ، وهى حرب تؤذن بحقبة جديدة فى تاريخ آسيا أى بانتهاء فترة الصلف الأوربى . ولاشك أن الشعب الروسى كان بطبيعة الحال جاهلا بكل تفاصيل تلك المتاعب التى كانت تدبر له فى النصف الآخر من العالم وهو منها براء ، كما أن العقلاء من ساسة الروسيا كانوا يعارضون هذه الفتوح والهجمات الحمقاء . ولكن

القيصر كان يحيط به جمع من المغامرين المالين ، فيهم الغراندوقات أبناء عمومته . وكانوا قد غرقوا إلى أذقانهم فى مغامراتهم التى أزمعوا بها نهب نفائس منشوريا والصين، فلم يعودوا يطيقون الانسحاب من هذا الميدان ، ولذا أخذت اليابان فى نقل جيوشها عبر البحر إلى كوريا ، كما شرعت الروسيا فى إرسال مئات القطارات المحملة بالفلاحين الروس عبر سكة حديد سيبيريا لكى يموتوا فى تلك الميادين الحربية القاصية .

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم وعدم النزاهة فى إمداداتهم . وأقلع الأسطول الروسى ببحر البلطيق حول إفريقيا لكى يدمره اليابانيون عن آخره بمضيق تسوشيما . وثار العامة فى الروسيا وقد أغضبهم إلى أقصى حد هذه الذبحة القاصمة التى نزلت بأبنائهم بتلك البلاد القاصية دون مبرر . فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب فى ١٩٠٥ . فأعاد إلى اليابان النصف الجنوبى من جزيرة سخالين الذى استولت عليه الروسيا فى ١٨٧٥، وتخلى عن منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان ، لقد أقبلت نهاية اجتياح أوربا لآسيا وأخذت أوربا توقف كل محاولة لها أرادت بها فى الماضى تجسم عود تلك القارة أو سبر أغوارها.

الفصل الرابع والستون

الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلحظ هنا فى شىء من الإيجاز اختلاف طبيعة الأجزاء التى تتكون منها الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤ التى أتاحت السفينة البخارية والسكك الحديدية ضم أجزائها بعضها إلى بعض . كانت ولا تزال خليطا سياسيا فريدا فى بابه تماما ؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلا .

ومركز تلك المجموعة كلها وأول دولة فيها هى الجمهورية المتوجة المسماة بالمملكة البريطانية المتحدة ، التى تحتوى أيضا على إرلندة (ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الإرلندى[1]) . وكانت الأغلبية فى البرلمان البريطانى المكون من البرلمانات المتحدة الثلاث فى إنجلترة (وويلز) واسكتلندة وإرلندة ، هى التى تعين رئيس الوزارة ونوعها وسياستها ، وتحدد ذلك بناء عن اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية ، فهذه الوزارة هى الحكومة العليا الفعالة ، ولها سلطات إعلان الحرب وعقد الصلح فى كل أرجاء الإمبراطورية .

ويلى الولايات البريطانية فى ترتيب الأهمية السياسية الجمهوريات المتوجة بأستراليا وكندا ونيوفاوندلاند (وهى أقدم الممتلكات البريطانية ١٥٨٣)ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها مستقلة فعلا كما أنها دول تحكم نفسها بنفسها فى تحالف مع بريطانيا العظمى ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة المتربعة فى دست الحكم . . .

وبعد ذلك تجىء الإمبراطورية الهندية وهو صورة مكبرة لإمبراطورية المغولى الأعظم ، وقد أصبحت الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحميات ، تمتد من بلوخستان إلى بورما وتضم كذلك محمية عدن ، وفى تلك الإمبراطورية الضخمة يلعب التاج البريطانى ووزارة الهند (تحت رقابة البرلمان) دور الأسرة التركمانية القديمة .

---

(١) قد تغيرت هذه الحال الآن بالنسبة لإرلنده فأعلنت جمهورية مستقلة وأصبح لها برلمان خاص

ثم تجىء مصر ذات المركز الغامض التى لا تزال إسميا جزءاً من الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديوى ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين ذلك الحكم الذى يكاد يكون استبداديا .

ثم ولاية السودان المصرى الإنجليزى الذى هو فى حال أشد غموضا ، والذى يحتله ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية) ثم إن هناك عددا من المجتمعات المستمتعة بالحكم الذاتى إلى حد ما ، منها ماهو انجليزى الأصل ومنها ماليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والهيئات التنفيذية المعينة بأوامر ومراسيم ، مثل مالطة وجمايكا وجزائر بهاما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التى قد يقترب فيها حكم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادى المطلق كما هو الشأن فى سيلان وترينيداد وفيجى (التى كان لها مجلس معين) وجبل طارق وسنت هيلانة (اللتين لهما حاكم) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية (بوجه خاص) وهى أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضعيفة سياسيا ومتأخرة حضارة ، وكلها محميات إسمية ، إما يديرها مندوب سام يعين فوق حكام من الأهالى (شأن باسوتولاند) أو فوق شركة تستمتع بمرسوم ملكى (كما هو الحال فى روديسيا) . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات ووزارة المستعمرات فى بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحيانا ، هى التى عملت على الحصول على تلك الممتلكات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى يعد من حيث المركز أدنى الممتلكات شأنا وتحديدا ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها فى معظم الحالات .

لعله قد اتضح الآن مما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تفرد لإدراكها عقل واحد ، فهى خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فلذات تراكمت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماما عن كل شىء حمل اسم الإمبراطورية قبلا ، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن متسعى الرقعة ؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها — على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم كفاية ، وعلى الرغم مما تجلى فى جمهورها ببريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية للأمانة المنوطة بعنقه ، والإمبراطورية البريطانية تمتد أملاكها وراء البحار شأن الإمبراطورية

الآثينية ؛ فطرقها طرق بحرية ، كما أن همزة الوصل بين أطرافها هى الأسطول البريطانى فإن تماسكها كـكل الإمبراطوريات يعتمد كل الاعتماد على وسائل المواصلات ؛ وقد أدى تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر إلى إمكان قيام سلم مناسب على يديها هو السلم البريطانى « Pax Britànica » ، كما أن ظهور تطورات جديدة فى وسائل النقل الجوى أو البرى السريع ربما افضت فى أية لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك المزية وجعلها غير مناسبة .

الفصل الخامس والستون

عصر التسلح فى أوربا والحرب العظمى

١٩١٤ — ١٩١٨

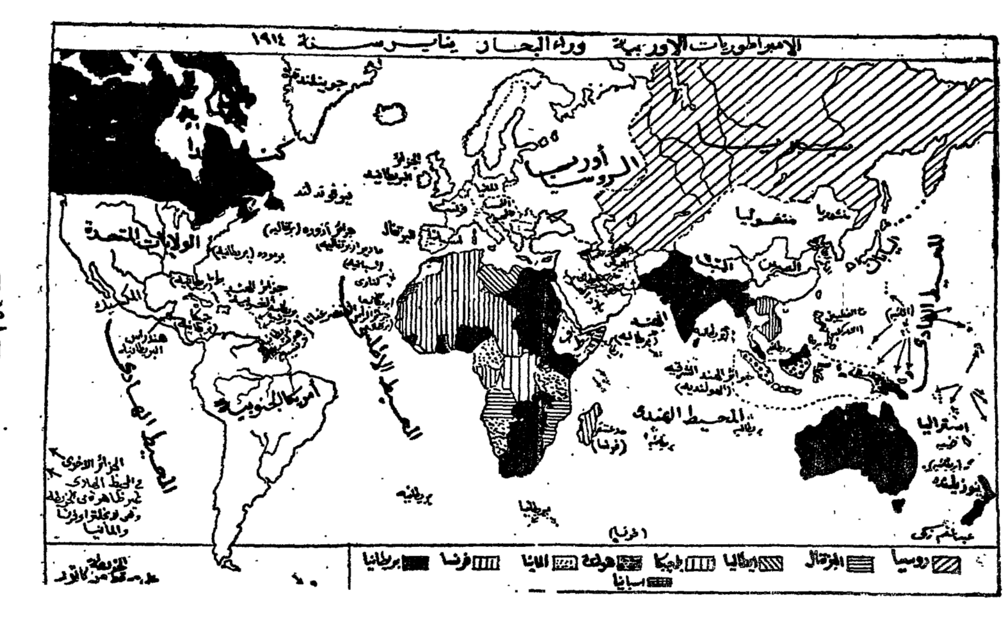
إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذى تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التى تعتمد على الزورق البخارى وسكة الحديد ، وتمخض عن قيام الإمبراطورية البريطانية المقلقة والقائمة على الباخرة ، وامتدادها فى كل أرجاء العالم - قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماما فى الأمم المزدحمة بالسكان فى قارة أوربا . ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت أثناء عصر الحصان والطريق البرى ، وأن كل أمل لها فى التوسع وراء البحار قدسبقتها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير . وكانت الروسيا هى الوحيدة التى وجدت أمامها سبيلا إلى التوسع شرقا ؛ فمدت عبر سيبيريا خطاً حديدياً عظيما مازالت به حتى تورطت فى القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوبا بشرق نحو حدود فارس والهند فأزعجت بريطانيا بذلك . أما بقية الدول الأوربية فكانت فى حال من ازدحام السكان متزايدة التفاقم . فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب رغبة منهم فى الوصول إلى أقصى ما فى الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات :- وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادى أو بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة . وقد مالت الآراء العصرية فى معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قوتها قارة أوربا نحو النوع الثانى من الاتحاد .

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة إشارة وجهت الناس وهم بين خائف وجل وراج مستبشر - نحو فكرة توحيد أوربا كلها بزعامة الألمان . وانقضت أربعة وأربعون عاما من السلم القلق المضطرب كانت سياسة أوربا أثناءها تتركز حول ذلك الاحتمال . ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة فى أوربا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شرلمان ، حاولت أن تصلح من ضعفها

الطبيعى بعقد محالفة وثيقة مع الروسيا ، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمسوية (التى زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول) كما ربطت نفسها إلى حد أقل بمملكة إيطاليا الحديثة النشوء . وظلت بريطانيا العظمى فى البداية مترددة كعادتها تقدم رجلا فى شئون أوربا وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسى الروسى بسبب تضخم الأسطول الألمانى تضخما بادى العدوان . وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثانى (١٨٨٨ — ١٩١٨) فى العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان فى مغامرات وراء البحار انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى دائرة أعدائها .

تنافست كل هذه الشعوب فى التسليح . وأخذت نسبة الإنتاج القومى الموجهة إلى صنع المدافع والعتاد الحربى والسفن الحربية وما إليها تتزايد من سنة إلى أخرى . وأخذ ميزان الأمور يجنح مرتعشاً عاماً بعد عام نحو الحرب ، ولكن الحكمة كانت تعود فتقضى بتجنب الحرب ثم اندلع لهيبها آخر الأمر ، فهاجمت ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصربيا ؛ واخترقت الجيوش الألمانية بلجيكا للوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا ، وأدخلت معها حليفتها اليابان ، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا فى ١٩١٥ ، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوربا فى أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا فى ١٩١٦ إلى الدخول فى الحرب ضد الألمان وتلتها الولايات المتحدة والصين فى ١٩١٧ . ويضيق المقام فى هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من اللوم على هذه الكارثة الفظيعة . فليس السؤال الأكثر أهمية هو « لماذا لم يتكهن الناس بنشوب الحرب العظمى » بل « لماذا لم يحولوا دون ذلك » ؟ فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا من شدة الوطنية العمياء أو الغباوة أو بلادة الحس بحيث لم يستطيعوا أن يمنعوا تلك الكارثة بخطوة يخطونها نحو الوحدة الأوربية القائمة على أسس صريحة كريمة ، أخطر كثيرا لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملت على إشعالها .

والمجال الذى بين أيدينا لا يسمح بأى حال بتقصى التفاصيل المعقدة للحرب . على أنه تبين جليا بعد شهة شهور أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحرب تغييرا


الإمبراطوريات الأوروبية وراء البحار يناير سنة ١٩١٤
جرينلند
كندا
نيوفوندلند
الجزائر البريطانية
أوروبا
الروسيا
منغوليا
منشوريا
اليابان
التبت
الصين
الولايات المتحدة
برمودة (بريطانيا)
جزائر أزورة (برتغالية)
ماديرا (برتغالية)
البرتغال
المكسيك
هندوراس البريطانية
أمريكا الجنوبية
المحيط الأطلسي
الهند
جزائر الهند الشرقية (الهولندية)
المحيط الهندي
مدغشقر (فرنسا)
المحيط الهادى
استراليا
نيوزيلندة
الجزائر الأخرى في المحيط الهادى غير ظاهرة في الخريطة وهي لإنجلترا وفرنسا وألمانيا
روسيا
البرتغال
إيطاليا
بلجيكا
هولندة
ألمانيا
فرنسا
بريطانيا
أسبانيا

عميقا ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والتسلط على الفولاذ والناقلات والأمراض ؛ وإن كان استخدام هـذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على فطنة العالم الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوربا التى كانت تستوحى الإلهام من سياسات عتيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوع يمينها قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة فى وقت واحد ؛ وأصبحت الحرب شعلة من نار شملت العالم كله وأتت على الأخضر واليابس ، وأنزلت من الخسائر بكل من الظافر والمنهزم ما لا يتناسب البتة مع قيمة المسائل المتنازع عليها ، وابتدأت الحرب بمرحلة من الاندفاع الهائل من الألمان نحو باريس قابله فى الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية ، ولكن هذين الهجومين صدا ورد المهاجم على عقبيه فى الحالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؛ فأدخلت التحصينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردحا من الزمن فى خنادق تمتد فى أوربا من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يمكنها القيام بأى تقدم بغير تكبد خسائر فادحة . وكانت جيوش كل من الطرفين تعد بالملايين ، وقد نظم من ورائهم السكان بكامل عددهم بغية امداد جبهة القتال بالميرة (الطعام) والذخيرة . فكأن كل أنواع النشاط الإنتاجى قد انقطعت تقريبا إلا ما أسهم بنصيب فى العمليات الحربية .

وأخذ كل شباب أوربا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التى أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول وحلت النساء فى الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان فى الدول الأوربية المتحاربة قد غيروا أعمالهم ومهنهم تغييراً تاما أثناء ذلك الكفاح المهول . فكأنهم نزعوا اجتماعيا من بيئتهم انتزاعا وأنزلوا بيئة أخرى . وقيدت التربية والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجهة تماما إلى أهداف الحرب المباشرة ، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أصيب بالعجز والفساد والتشويه بما فرض عليها من رقابة عسكرية وما داخلها من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدريج إلى دور من الاعتداء على السكان غير المحاربين وراء الجبهة وذلك بتدمير موارد الطعام والغارات الجوية ، كما أنه

حدث تقدم متواصل فى حجم المدافع المستعملة ومداها وفى مستحدثات تنطوى على البراعة من أمثال قنابل الغاز السام وتلك القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالخنادق ، على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب . فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لاتحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقى ، فأما الآن فإنها تدور رحاها فى كل مكان ، وقد حملت مناطيد زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد رحى الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للنشاط المدنى البعيد عن الجبهة . واختفى من الدنيا التمييز القديم الذى كان يفرق حسب أصول الحرب المتمدينة بين المدنيين من السكان والمحاربين منهم ، فكل منتج للطعام ، وكل حائك للثياب ، وكل قاطع لشجرة أو مصلح لمنزل ، وكل محطة للسكك الحديدية ، وكل مخزن من المخازن ، أصبح يعد صيدا مباحا للتدمير ووسائله ، وكان كل شهر ينقضى من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية ويوسع نطاق الرعب منها ، ولم يبرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوربا فى حالة حصار دائم وتعرض لهجمات لاتنقطع ليلة واحدة ، فكانت المدن المكشوفة كلندن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لايغمض لها جفن — والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لاتطاق ، على حين تجلجل آلات المطافىء وسيارات الإسعاف مسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك فى عقول المسنين وصغار الأطفال وصحتهم محزنة ومدمرة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التى كانت من قديم تسير متتبعة دائماً خطى الحروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه فى ١٩١٨ . فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ؛ ثم انتشر فى العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس ، وكذلك أبعد شبح المجاعة إلى حين ، ومع ذلك فإن معظم أوربا كان عند بداية ١٩١٨ يعيش فى حالة من المجاعة المخففة والمنظمة ، فقد هبط إنتاج الطعام فى كل أرجاء العالم هبوطا عظيما بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلا عن أن توزيع ما أمكن انتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث الغواصات وإفسادها فى البحر ، وانقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما اعترى نظام المواصلات العالمية من اضطراب وفساد . وعندئذ وضعت الحكومات المختلفة يدها على

موارد الطعام الضئيلة المتناقصة ، وراحت توزع الأطعمة جرايات على شعوبها. فضلا عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من قلة الثياب والمنازل ومن نقص كثير من لوازم الحياة العادية . وأصيبت الأعمال الحرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب . وران القلق والهم على النفوس جميعاً . وأصبح معظم الناس يعيشون عيشة ضنك لم يألفوها قبلا .

توقفت الأعمال الحربية في نوفمبر ١٩١٨ . إذ أن دول أوربا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس نفسها . ذلك أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

الفصل السادس والستون

النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوربا الوسطى بنيف وسنة كاملة انهارت قيصرية الروسيا شبه الشرقية التي ادعت أنها استمرار للامبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تسرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب ببضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصري واقعاً تحت سيطرة دجال ديني مضحك ، هو راسبوتين ، فضلا عن أن الأداة الحكومية المدنية والعسكرية كانت في حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لحمل السلاح جيش عرمرم من المجندين ، لم يكن له عتاد عسكرى كاف ولا العدد الكافي من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم السيء الإمداد الضعيف القيادة أن قذف بلا نظام إلى الحدود النمسوية والألمانية .

ولا سبيل إلى الشك أن مبادرة الجيوش الروسية إلى الظهور في بروسيا في سبتمبر ١٩١٤ صرفهم الألمان والتفاتهم عن تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس : فكأن آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوى القيادة السيئة هي التي أنقذت فرنسا من الهزيمة التامة في تلك الحملة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوربا الغربية بأكملها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف شديداً مضنياً لم تقو على احتماله قواها . فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدفعية تمهد لهم وتظاهرهم ، بل حتى دون ذخيرة البنادق ؛ لقد أوقعهم ضباطهم وقوادهم في حالة من حالات الهذيان الجنوني المشتعل بالحماسة العسكرية . فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صامتين مثلما تقاسيها العجماوات . ولكن للصبر والتحمل حدا حتى لدى أشد الناس جهلا . فأخذ يتفشى شعور من الاشمئزاز العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المجيشة من الرجال الذين غدر بهم كبراؤهم وأضاعوا حياتهم هدراً . لذا غدت الروسيا منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق

متزايد لحلفائها الغربيين . فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت فى الجو إشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح المنفرد بينهما وبين ألمانيا .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بتروغراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهدا متأخرا لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع فى شهر مارس اندفاعا سريعا ؛ فإن الفتن التى شبت بتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة التمثيلية فى البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه فى ١٥ مارس . وانقضت فترة من الوقت ظن الناس أثناءها أن فى الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط ، ولكن فى ظل قيصر جديد . ولكن اتضح جليا أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى ولم يعد فى إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسى قد سئم سآمة الموت كل ما فى أوربا من نظم قديمة : من قياصرة ومن حروب ومن دول عظمى ؛ لقد كان يلتمس الراحة ــ والراحة السريعة العاجلة مما يقاسى من تعاسات لا تطاق . ولم يكن الحلفاء يدركون البتة حقائق الموقف فى الروسيا ، فإن رجال الدبلوماسية فيهم كانوا يجهلون الشئون الروسية جهلا تاما ، إذ كانوا من علية القوم الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسى أكثر منهم إلى الروسيا نفسها ، فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نفوس هؤلاء الدبلوماسيين تنطوى على الكثير من حسن النية نحو المذاهب والنزعات الجمهورية ، لذا أظهروا ميلا واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهد مستطاعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جذاب هو كيرنسكى ، الذى وجد نفسه غرضا لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غورا ، هى « الثورة الاشتراكية » فى داخل بلاده ، كما وجد حكومات الحلفاء فى الخارج تعامله بفتور وقلة اهتمام . لم يسمح له حلفاؤه أن يعطى الفلاحين الروس الأرض التى يتلهفون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية ترهق ذلك الحليف المنهك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما أقدم الألمان فى تلك الساعة على مهاجمة ريغا براً وبحراً ، خارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بحملة فى بحر البلطيق لإنقاذها أو تخفيف الضغط عنها ، وبذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقاتل الألمان وحدها دون معاونة من أحد . وينبغى لنا أن نلحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيما عدا بضع هجمات قامت بها غواصاتهم ، وذلك على الرغم من تفوقهم البحرى ومن الاعتراضات المريرة التى قدمها لورد فيشر الأميرال الإنجليزى العظيم (١٨٤١ — ١٩٢٠) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسى كان مصمماً على وضع حد للحرب ، مهما كلفه ذلك من ثمن . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل العمال وعامة الجند ، هى هيئة السوفييت ، التى أخذت تطالب بعقد مؤتمر دولى للاشتراكيين بمدينة استوكهلم . وكانت فتن الطعام تحدث فى ذلك الأوان ببرلين ، وتغلغل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس ، وتدلنا الأحداث التالية دلالة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لعجل بعقد صلح معقول فى ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولأحدث بألمانيا ثورة فى ذلك الوقت نفسه. وأخذ كيرنسكى يتضرع إلى حلفائه الغربيين أن يسمحوا بانعقاد ذلك المؤتمر . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب مخافة أن يؤدى قبوله إلى انتشار المذاهب الاشتراكية والجمهورية فى أرجاء العالم قاطبة ، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى للفكرة وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة التعسة تقاتل دون أن تتلقى عونا معنويا أو ماديا من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس فى يوليو . ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز بضع انتصارات أولية وللمرة الثانية ذبح الروسيون ذبحاً عظيما .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال الروسيا . فتمرد الجند فى الجيوش الروسية وبخاصة فى الجبهة الشمالية ، ولم تلبث حكومة كيرنسكى أن خلعت فى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت ، الذين يسيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الغربية . وفى ٢ مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين الروسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما اتضح أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كانوا رجالا يختلفون فى طبيعتهم تماما عن قصحاء الدستوريين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرنسكى . فإنهم كانوا شيوعيين ماركسيين متعصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية عالمية عامة ، فانطلقوا يغيرون النظام الاجتماعى والاقتصادى

فى البلاد ويبدون فى ذلك أقصى غاية الإيمان المطلق وعدم الخبرة التامة . أما دول أوربا الغربية وأمريكا فقد بلغها من أخبار السوء عن تلك الثورة ، كما أنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الخارقة أو تمد إليها يد العون ، فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء المغتصبين والحط من كرامتهم كما هبت الطبقات الحاكمة لتحطيمهم مهما يكن أساس ذلك التحطيم ومهما يكن الثمن الذى يدفعونه هم أنفسهم أو الروسيا فى سبيل ذلك . وتواصلت عليهم فى صحافة العالم حملات الدعاية الحاملة لأسوأ التخرصات المزعجة البشعة ؛ وراحت تلك الصحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة فى صورة الوحوش البشعة الشنيعة الملطخة الأيدى بالدماء والنهب والذين يتمرغون فى أوحال اللذات البهيمية تمرغا يجعل فضائح البلاط القيصرى أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصعة البياض طاهرة الذيل . وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الحائرة القوى ، وشجع كل ثائر عليها وكل مغير ، وأمد بالسلاح ومنح الأموال . .

ولم يترك أعداء النظام البلشفى المذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بلغت من السفالة أو البشاعة . وهكذا نجد فى ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفسدت نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات ، ــ يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركانجل . وغارة اليابانيين فى شرق سيبيريا ، ويقاتلون الرومانيين فى الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون ، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسى بسيبيريا ، والجنرال دينيكين بالقرم يعاونه الأسطول الفرنسى :

ثم كاد جيش إستونى بقيادة الجنرال يوديفيتش أن يصل إلى بطرسبرج فى يوليه من تلك السنة . وفى ١٩٢٠ هاجم البولنديون الروسيا بتحريض من فرنسا . كما أن مغيرا رجعيا جديداً . هو الجنرال رانجل ، تولى العمل الذى تخلى عنه الجنرال دينيكين وراح يغزو وطنه ويعيث فى أرجائه فساداً . ثم إن بحارة الأسطول الراسى عند كرونستاد تمردوا فى مارس ١٩٢١ . ولكن الحكومة الروسية برئاسة لينين تحملت كل هذه الهجمات . بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة ، وظاهرها عامة الشعب فى الروسيا دون تردد أثناء تلك الظروف المفرطة العسر . حتى إذا وافت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتا على صورة ما بالحكم الشيوعى فى الروسيا .

ولكن لئن وفقت الحكومة البلشفية فى مكافحتها التدخل الأجنبى والثورات الداخلية ، فإنها كانت أقل حظا من التوفيق فى إقامة نظام اجتماعى جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية . ذلك أن الفلاح الروسى مالك صغير متلهف على امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية فى فكره وأساليبه بعد السماء عن الأرض ؛ أجل أعطته الثورة أراضى المالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أى شيء إلا العملة — القابلة للتداول ، كما أن الثورة دمرت قيمة النقود تقريباً . وأصيب الإنتاج الزراعى بضربة شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها أثناء الحرب ، حتى لقد انكمش فأصبح مجرد زراعة المواد الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شملتها المجاعات ، وبذلت محاولات مستعجلة سيئة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعى بحيث تتمشى مع النظريات الشيوعية فباءت هى الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى الروسيا فى ١٩٢٠ لشهدت فيها منظرا عجيبا لم تسبق مشاهدته هو منظر الحضارة العصرية وهى فى حالة من الانهيار التام .

فإن الصدأ كان يأكل السكك الحديدية ويحيلها إلى خردة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات فى كل مكان ارتفاعا شديدا . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاتل أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب . وحل بالبلاد بين الفلاحين الزراعيين فى ١٩٢١ قحط ومجاعة شديدة فى المناطق الجنوبية الشرقية التى خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعا .

إزاء هذه الظروف المحزنة عزم المسئولين على التقليل من سرعة عملية البناء والتعمير . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة ، وأباحوا قدراً كبيراً من حرية الملكية الخاصة وأعادوا نظام النشاط الشخصى والجهد الخاص فترتب على ذلك أن عادت إلى حد ما مياه النشاط الإنتاجى إلى مجاريها . وعندئذ أحس الناس كأنما الروسيا تنحرف عن مذاهب الاشتراكية الإنشائية وتعيد إظهار أحوال تكاد تماثل تلك التى شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمئة عام ونشأت بالبلاد طبقة من المزارعين الأثرياء هم السكولاك ، وهم النظير الذى يقابل الزارع الأمريكى الصغير ، وتكاثر عدد صغار التجار الموسرين . على أن الحزب الشيوعى لم يكن ميالا إلى التخلى عن أهدافه على تلك الصورة ، وإلى السماح لروسيا بأن تتبع الخطوات التى اجتازتها أمريكا قبل ذلك بمئة سنة . لذا ما لبثت أن

ظهرت فى ١٩٢٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى المنهاج الشيوعى فى التطور والتنمية، فأنشىء مشروع لخمس سنوات ، رمى إلى إحداث توسع سريع عنوة فى الصناعة تحت إشراف الدولة ، وخاصة فى المنتجات الأساسية الثقيلة ، وفى نفس الوقت استبدلت الزراعة الحشدية (الجماعية) ذات النطاق الواسع بإنتاج المزارعين الفرادى . وقد حرمت الروسيا من قيادة لينين الحكيمة فى ٢١ يناير ١٩٢٤ ، وكانت طريقة معالجة خليفته ستالين للأمور أخشن من طريقته . وضعت تلك الخطة موضع التنفيذ رغم ما اعترضها من صعاب هائلة ؛ أهمها جهل العامة وأميتهم وتأخرهم العام ، وقلة عدد الأكفاء من رؤساء العمال والصناع الفنيين ، وامتناع العالم الغربى عن بذل أية مساعدة بل واتخاذه جانب الخصومة الإيجابية .

ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعى من الخطة أصاب قدراً جسيماً من النجاح . نعم أضاعوا الشىء الكثير هدراً ، وأعوزهم إيجاد التناسب الضرورى بين الأمور ، غير أنهم أصابوا من الخير ما لا سبيل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات الجريئة السريعة لم يكن مرضيا تماما فى حالة الإنتاج الزراعى ، كما أن شتاء أعوام ١٩٣٣-١٩٣٤ أنزل بالروسيا للمرة الثانية نقصاً عظيما فى الأطعمة .

أما بقية أجزاء العالم التى كانت تواصل العمل بنظام أرباح رأس المال الفردى وتقيم نتائجه ، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة الروسية بعين اختلط فيها حب الاستطلاع بعدم الثقة والاحترام . وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر فى سيره . فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقسرها على جزء صغير متناقص من السكان ، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جداً . لقد أصبح قلقا غير راض عن تصرفاته . وانتشرت لفظة « وضع المشروعات » فى أرجاء العالم بسرعة البرق ، وبتزايد الضائقات الاقتصادية التى سنتحدث عنها فى الفصل التالى تكاثرت تلك المشروعات . حتى إذا وافت سنة ١٩٣٣ لم يعد أى سياسى يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع وحسبك هذا على الأقل تقدير الروسيا من العالم كله .

وظلت الروسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من رداءة المحصول فى ١٩٣٣ ، يحالفها النجاح فى جميع مرافقها ، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتكاثرت الأنعام والماشية . ودخل البلاد أفواج من السياح الأوربيين والأمريكيين . وأخذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا .

وقامت فى البـــلاد نهضة عظيمة فى البحث العلمى ، وخاصة فى المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية . ونفذت أشغال عامة عظيمة — منها سد الدنيبر وسترو وسكة حديد التركستان سيبيريا ، وأنجزت البلاد قدراً جسيما من المبانى المجـددة وعكفت على إعادة تجديد مرافقها وعتادها . غير أنها ظلت تعانى السكبت التام لكل نقد مما اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يغرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لابد أن تتحول فى النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرقة والانقسام تنخر فى كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناضلة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية النابهة الفضل الأكبر فى نجاح الدفاع عن الجمهورية ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى . ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمعقدة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحدا من الرجلين لم يوهب قوة لينين الفكرية ولا رحابة نفوذه الشخصى ، كان تروتسكى إنسانا موهوبا ولكنه كان مغروراً ؛ وأوتى ستالين صفة العناد الرهيب ؛ وما لبث تروتسكى أن نفى خارج البلاد فى يونيه ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فنزل تركيا أولا ثم فرنسا ثم النرويج ، واستقر به المطاف أخيرا بالمكسيك ، وهو يحمل فى كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلية المريرة المتزايدة العنف ضد زملائه السابقين ، ويمزق وحدة أنصار اليسار فى العالم كله إلى حزبين متنازعين .

أما فى الروسيا نفسها فالظاهر أن كفاحا خفيا أخذ ينشب بين الموظفين والمستخدمين المعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدرا من هذا التاريخ لا يزال يكتنفه الغموض الشديد . إذ لا مجال للشك أنه كانت هناك مقاومة ، كما لا شك أنه حدث التدمير وقلة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضا أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضرورى أن يكون منظما ، كان يحدث حتى فى أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة منسقة تماما أكثر . وراحت حكومة السوفييت تسلك فى هذا الكفاح حينا من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين مسئولين منهم مهندسون بريطانيون متنوعون قدموا للمحاكمة بتهمة تعمد تعطيل عملية طبع الروسيا بالطابع العصرى والميكانيكى مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت فى الأفق أثناء المحاكمات التالية عناصر المؤامرات والتدبيرات السياسية . على أن معظم المتهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو بالنفى ، حتى قتل واحد من أشد الوزراء الذين وثق فيهم ستالين واطمأن إليهم فى أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور فى الروسيا عصفا وتجهما . وقد توفيت زوجة ستالين على حين بغتة فى ربيع ١٩٣٤ فى ظروف لايزال يغشاها إلى اليوم الغموض — ولقد زعم بعضهم أنها انتحرت حزنا على ما يقاسيه الفلاحون من العذاب فى ظل مشروع الخمس سنوات الأول ، ولا شك أن تزايد عدواة خلطائه القدماء له قد زاد رويداً رويدا من مدى عزلته وتباعده عنهم . والظاهر أنه لم يبق له صديق مخلص إلا الكاتب مكسيم جوركى الذى مات فى ١٩٣٦ . وتعاقبت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى، وأخذت بوادر القسوة تتجلى فى استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها ، كما أصبحت عقوبة الإعدام هى القصاص العادى . فأعدم زعماء البلشفية السابقون واحدا بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركى بتهمة أنهم تسببوا فى وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد فى عتوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبداً ولا يقبل صلحا ولا تراجعاً ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملن أثناء كتابة هذه السطور (فى ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة الروسيا المادية تسير فى طريق الجد التام مع تناقص الصعوبات بالتدريج وتضاؤل التذمر الشعبى إلى درجة لاتكاد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق فى التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال إبلال الروسيا مما بها وبطبيعة ذلك الإبلال إذا حدث .

الفصل السابع والستون

عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى فى ذلك الوقت وبما جلبت من الكوارث والأحزان، أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولا ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر ، وبداية مرحلة جديدة فى التاريخ الإنسانى تكون أسعد حالا ، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل . ومن المعلوم أن عقولنا تجنح دائماً إلى الاعتقاد بالتعويض ـ فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما نتصوره فى أنفسنا من مزايا . ولم تنقشع هذه الأوهام والادعاءات التى أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد . ولكن هانحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حداً لشىء ، ولم يبدأ شيئاً ، ولا سوى شيئاً . نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس ؛ وبدد قوى العالم وأشاع فيه الفقر والفساد ، وحطم الروسيا تحطيما مطلقا . ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة مخيفة بأننا نعيش عيش الحماقة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد ــ فى عالم خطر لا يحمل لنا عطفاولا وداً . فإن الأنانيات وشهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التى جرفت البشرية إلى غمرات تلك الفاجعة ــ خرجت منها سليمة إلى حد جعل فى الإمكان تماما حدوث كارثة أخرى مماثلة بمجرد انتعاش العالم قليلا مما أصابه من إنهاك وإجهاد أثناء الحرب . أجل أزاحت الحرب عن كاهل أوربا تهديد القيصرية الألمانية ، كما حطمت القيصرية الروسية . وأزالت عددا لا بأس به من الملكيات . ولكن أوربا لا تزال ترفرف فيها كثرة من الرايات ، ولا تزال الحدود تثير الغيظ فى النفوس ، كما لا تزال جيوش جرارة تكدس فى مخازنها مقادير جديدة من العتاد الحربى .

ولم يكن مؤتمر الصلح الذى انعقد بفرساى إلا اجتماعا سيىء التكييف وظروف الدنيا ، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات الحرب وهزائمها إلى نتائجها المنطقية . فلم يسمح للألمان ولا النمسويين أو الأتراك أو البلغار بأى نصيب فى مداولاته ؛ ولم يكونوا يملكون

إلا قبول القرارات التى تملى عليهم . كان مؤتمرا يضم الظافرين الفاتحين. وكان اختيار موضع انعقاد المؤتمر غير موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر المصلحة البشرية ، فإن فرساى هى المدينة نفسها التى أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة فى ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوقى الوضيع . وتسلطت على الأذهان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد « ميلودرامى » عنيف يعكس المسرحية الأولى فى قاعة المرايا نفسها .

ومهما تكن المكارم التى ظهرت إبان المراحل الباكرة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول المنتصرة شديدى التيقظ لما عانوا من خسائر وآلام ، مغضين كل الإغضاء عن أن العدو المنهزم قد شرب من نفس الكأس . كانت الحرب نتيجة طبيعية لابد منها لتنافس القوميات بأوربا وغيبة كل تنظيم اتحادى لتلك القوى المتنافسة ؛ والحرب هى النهاية القصوى المنطقية والضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة التى تعيش فى حيز ضيق جدا وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة ؛ ولو لم تجيء الحرب العظمى على الصورة التى جاءت بها ، لظهرت فى صورة أخرى مماثلة — كما لاشك أنها ستعود على نطاق أفظع وأشد تدميرا فى مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولاشك أن الدول التى تنظم شئونها ابتغاء الحرب مضطرة بالتحقيق إلى الحرب اضطرار كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواطف هذه البلاد المحزونة التى أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة ، لذا عوملت جميع شعوب الأقطار المنهزمة كأنها هى مسئولة خلقيا وماديا عن كل ماحدث من أضرار ، وهى نفس الطريقة التى كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب المنتصرة لو كانت نتيجة الحرب فى صالح أولئك المنهزمين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ماحدث ، وزعم الألمان أن اللوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكن أقلية ذكية أدركت أن اللوم فى الموضوع هو الوضع السياسى لأوربا وكان المقصود من معاهدة فرساى أن تكون مثالية وانتقامية ؛ فختمت على المغلوبين عقوبات فادحة ؛ إذ حاولت أن تمنح التعويضات للمنتصرين وشعوبهم الجريحة المتألمة بفرض ديون باهظة على أمم قد أفلست من قبل ، كما أن محاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسعى لمنع الحرب — كانت محاولة تجلى صراحة أنها غير مخلصة وغير كافية .

ومن المشكوك فيه أن أوربا — لو تركت وشأنها — كانت تبذل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظيما يكفل سلاما دائما ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى معترك

السياسة العملية الرئيس ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعامتها الرئيسية هى أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة - تلك الدولة العصرية الجديدة - لم تنتج حتى الآن أية فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذى وقى العالم الجديد غائلة التدخل الأوربى ، وهاهى الآن تستدعى فجأة للمساهمة الفكرية فى مشكلة ذلك الزمان الهائلة ، ولكن قريحتها لم تسعفها بشىء ، وكان الشعب الأمريكى يجنح بفطرته نحو السلام العالمى الدائم ، وذلك بغض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقة وسوء الظن التقليدى فى سياسة العالم القديم وعما ألفه الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشاكله ، فكأن الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدأون فى تكوين فكرة عن إيجاد حل أمريكى لمشاكل العالم عندما جرتهم حملة الغواصات الألمانية إلى معترك الحرب فى صف الحلفاء أعداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس ولسن لتكوين عصبة الأمم إلا محاولة مبتسرة متعجلة لإيجاد مشروع عالمى أمريكى النزعة تماما ، فأنشأ لها تصميما فجيجا وناقصا وخطرا ، ولكنه أخذ فى أوربا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموما كانت فى ١٩١٨ - ١٩١٩ قد اشتد بها الضيق بالحرب والتلهف بأى ثمن أو تضحية على إقامة كل ما من شأنه منع حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة فى العالم القديم لم تشأ أن تنزل قيد أنملة عما تستمتع به من سيادة واستقلال فى سبيل الوصول إلى تلك الغاية ، والظاهر أن التصريحات العلنية التى فاه بها الرئيس ولسن حول مشروع عصبة الأمم العالمية ، قد وقعت موقع القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن تخطت الحكومات ؛ وزعم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا الحقة ، وكانت استجابتهم لها هائلة ، ومن سوء الحظ أن الرئيس ولسن كان مضطرا أن يتعامل مع الحكومات لا مع الشعوب ؟ وكان رجلا تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أنانى محدود ، فلا غرابة إذن أن تتبدد موجة الحماسة العظيمة التى أثارها وتذهب سدى.

يقول الدكتور ديلون فى كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوربا عندما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماهر ، إذا لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى أتباع زعيم كموسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التى طال انتظارها والتى تمنع الحروب وتجهل الحصار البحرى ، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه فى فرنسا بدافع الرهبة والمحبة ، وأخبرنى زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لخوض لجج الماء والسنة

النيران لمعاونته على تحقيق خططه النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقا يدوى صوته فى أفلاك السماوات فتهتز جنبات الأرض له وتعود جديدة مطهرة ، واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذهم الأكبر ، وقال الهر مهلن الشجاع الباسل : لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكما قاسيا ، لتقبلوه بصدر رحب ودون أدنى تذمر ولبدأوا فى تنفيذه على الفور . فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص . وكان مجرد ذكر اسمه بلسما للمتألمين وترياقا للمنكوبين . . . » .

تلك وأمثالها هى الآمال الجارفة التى أثارها فى النفوس الرئيس ولسن ، ولكن القصة المحزنة حقا هى أنه خيب تلك الآمال تماما وأن العصبة جاءت ضعيفة غير ذات غناء ، فكأنه شخصيا قد زاد من وقع فاجعتنا الإنسانية المشتركة ، إذ أنه بلغ الغاية فى عظم أحلامه والنهاية فى الكفاية فى أعماله ، وقد تمردت أمريكا على تصرفات رئيسها ، وأبت أن تقبل العصبة التى تقبلتها منه أوربا . . إذ أن الشعب أخذ يتحقق ببطء أنه دفع بسرعة فى تيار تجربة لم يتهيأ لها أبدا وتحققت أوربا من جهتها بأن أمريكا لم تعد تملك شيئا تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو يرزح فى محنته . ولدت تلك العصبة قبل الأوان ، وتشوهت منذ ميلادها فأصبحت هى ودستورها التفصيلى غير العملى وتحدد سلطاتها الجلى الواضح — عقبة كأداء فى طريق أية تسوية فعالة وأى تنظيم جديد مثمر للعلاقات الدولية ، ألقت تلك العصبة على المسائل ظلا من الإبهام الذى ما كان يغشاها لو لم تنشأ تلك العصبة ، ومع هذا فإن ذلك اللهيب الحماسى الذى شمل العالم فى البداية ترحيباً بالمشروع ، ذلك الاستعداد الجميل الذى أبداه الناس فى كل صقع من أصقاع العالم — وأقول الناس ولا أقول الحكومات — لإقامة ضوابط عالمية تتحكم فى الحرب ، إنما هو شىء جديد ينبغى تسجيله فى أى سفر تاريخى مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه تقوم فى هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التى تفرق كلمة البشرية وتسىء تدبير شئونها ، قوة حقيقية تطالب بالوحدة العالمية والنظام العالمى .

غير أن تلك القوة لا تزال تلتمس التطبيق الفعال ، فإن صلح فرساى كان صلحا سياسيا بحتا ، كما أن العصبة نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لترقيع أحوال البشرية فى الوقت الذى قبلت فيه — على علاتها — الحكومات القائمة والأفكار السائدة المتعلقة بالدولة بوصفهما شئونا لا مفر منها : وهنا يكمن الخطأ الذى أخذ يتضح بالتدرج لعين البشرية

فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة ، كما أن فى الإمكان تعديلها ، بل لا بد من تعديلها بحيث تتناسب وتغيرات الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهى تعتمد على الفكرات الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تتولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية ــ إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التى رسخت فى عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجع للمتاعب الاجتماعية والاقتصادية إنما يقوم فى إصلاح كل تأويل خاطىء وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ فى عصر مؤتمرات تبذل جهودا بطيئة مبهمة لإعادة تكييف شئونه ، ولو تأملت مادار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما مطردا ، فإنها كانت تتشح فى البداية بروح قومية وسياسية بحت ، وإذا هى تتحول أخيرا إلى إدراك أوسع وأجرأ للوحدة التى تجتمع تحتها رفاهية البشرية المالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتعلمون ببطء وتكره ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت فى غضون ذلك بارتباك كبير ، كما تفشت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ أن حيوية الجنس البشرى أصيبت بالعطب ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم وتجلت فى الحياة السياسية حالة غير مألوفة من عدم الاستقرار . ولن نطيل هنا الخوض فى تفاصيل تلك المحن ، فانها قد تكون مؤذنة بانهيار الحضارة وقد لا تكون وهى لا ترقى فى الزمن الحاضر إلى التهديد بشىء يشبه الانهيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان الجنس البشرى قادرا على إنتاج القوة الخلقية ، أى الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المطرد الذى جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفخار والمسرة فى تاريخ البشر .

الفصل الثامن والستون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة محاربين منتصرين ، كما أن غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي ـ وهي الحدود التي تحكمت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل العواقب الاقتصادية التي تنجم عنها ، ففرضت على المنهزمين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد اتشحت بغشاء شفاف من العبارات الرشيقة . حقاً إنه لم تضم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت « انتداب » المنتصرين ـ وهي لفظة مباركة أنتجتها قريحتهم الوقادة !! . . . فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها لأصحاب الشأن ، وحتى الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أي سماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فنالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأشبعت مطامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكص الأحرار والاشتراكيون ببريطانيا العظمى والدول الديموقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، فأصيبت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاماً تقريباً .

وكان الأطفال يعلمون في بريطانيا العظمى مثلا ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمي ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبيت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل على نصيب مرضى من الغنائم والطيبات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقلياً أقل تهدئة للأنفس . ولم تكد تنقضي عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نسميهم باسم المنتصرين الحق ، حتى أخذ ملايين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال وشبان يلقنون دروساً توحي بضرورة إجراء تعديل عنيف في تسوية جنيف . لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادي ،

الذى سنبحث أسبابه بحثاً أوفى فى الفصل التالى . ذلك أن فيضا متدفقا من الاستياء يسير بكل مايتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع سنة بعد أخرى، ولم يكن يفوت أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لامفر من حدوث انفجار دولى جديد . ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت بعناد بالمزايا الظاهرية التى اعتصرتها من الحرب العظمى .

عقد أول اجتماع لمجلس العصبة بباريس فى ١٥ يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة ، وهناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بتراء معيبة قبل أن تستقر العصبة فى مقرها الرسمى ، فإن قتالا اتصف بالخطورة فى كثير من الأحيان دارت رحاه أثناء السنة التالية ببلاد المجر وبولندة ولتوانيا وسيبريا وفيومى وتركيا وآسيا الصغرى وسوريا ومراكش والبرازيل والصين ، كما شبت الحرب الأهلية بإرلندة ، ولكن فى الإمكان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى — إن جاز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك إنتهى بانهيار عسكرى كبير على مقربة من من أنقرة فى سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وتراقيا على يد مصطفى كمال ، ونهبت مدينة أزمير وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس ، وكان الحلفاء قد وعدوا الروسيا القيصرية أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولكن الروسيا السوفيتية لم تكن لها رغبة خاصة فى التورط فى ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برياسة الجنرال ملن الإنجليزى فى ١٩٢١ ، ولكنها ردت بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد مفاوضات طويلة ، ودخلت تركيا بزعامة كمال فى دور سريع من أدوار الانطباع بالحضارة الأوربية ، فأزيح عن البلاد مظاهر النظام القديم ، وهى السلطان والطربوش وفصل النساء عن الرجال ، وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين ، فإن كمال احتفظ بعاصمته أنقره .

كانت السنوات التى أعقبت توقيع معاهدة فرساى سنوات محنة قاسية بألمانيا ،

فإن تلك المعاهدة حكمت على المندحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات فادحة للظافرين . ومن الجلى أن المقصود من ذلك هو استعباد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا ويقدموا الثمرات ليستهلكها المنتصرون . على أن ذلك كان ينطوى على عقدة خطيرة . إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الغرامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فلو صدر عن المنهزم فيض كبير من السلع المصدرة ، لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء الظافرين . لذلك اضطروا أن يحيطوا أنفسهم بحواجز من التعريفات الجمركية لوقاية عمالهم ، بحيث أنه لو فرض أن الألمان جنحوا حقا إلى عيشة الكدح الشديد المتواصل لسداد الالتزامات المفروضة عليهم ، لما استطاعوا التغلب على تلك الحواجز ، ولظلوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يتكدس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولا تروى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصة الجهود التعسة الخانقة التى بذلتها ألمانيا والنمسا المندحرة للحصول على درجة مقبولة من العيش فى ظل تلك الظروف القاسية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماما عن النظر فيما يلقون من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليها وعن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة معقولة وشريفة فى الشئون الأوربية . وفى غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنا ويتجمع مرجلا ضخما من الطاقة الحانقة النافرة .

انتهى حكم أسرة هوهنزولرن بفرار القيصر إلى هولندة فى نوفمبر ١٩١٨ ، وأعقبت فراره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . ويضيق مجال هذا الفصل عن تفصيل الهزات الاقتصادية العنيفة التى ألمت بالدولة الألمانية والعيوب التى لم يكن مفر من تردبها فيها ، والعزم والتصميم العنيد القاسى الذى أبداه المسيو بوانكاريه على إنزال عقوبات المعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ أنه كان يرى أن لابد لألمانيا من أن تداس بالأرجل ؛ ولعل ذلك أقصى ما يبلغه قصر النظر السياسى . وسرعان ما احتلت الأراضى الألمانية احتلالا تأديبيا ، ورابط بوادى الروهر جنود سود من السنغال — وهى إهانة لم يغتفرها الألمان بسهولة ، وبذلت أيضا محاولة لسلخ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاد عدة ثورات شيوعية . وظهرت إلى عالم الوجود ديكتاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف دامت أياما قليلة بمدينة ميونيخ ، وكان الدكتور شترزمان (ومعه الرئيس إيبرت) يكافح بكل جهده فى برلين فى ظل

هذه الويلات جميعا فى سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا فى ريخ محرر .

وبينما ألمانيا غارقة فى خضم هذا الارتباك المضنى أخذ صوت جديد يرتفع ويملأ الأسماع ، كان صوتا غليظا يهز الغضب نبراته ، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب مابعد الحرب المتزايدى العدد . « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها » — تلك هى النغمة التى أخذ يضرب عليها ذلك الصوت ؛ « ولابدمن جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التى كانت تحتلها قبل ١٩١٤ — مهما تكن التضحية التى تبذل فى سبيل ذلك » ، ثم يقول الصوت« إن ألمانيا لم تهزم قط ؛ لأن ذلك ضرب من المحال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ خانها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية . فلا بدّ لها من العودة إلى نقائها العنصرى ، إلى حياة المحارب العنيفة التى كانت للتيوتونى الآرى » ، ذلك هو صوت مصور نمسوى اسمه أدولف هتلر ، لم تكد تستمع إليه الآذان حتى كان له صدى لاسبيل إلى رده فى قلوب طبقة الشباب الهائلة المتزايدة العدد الذين صاروا آنذاك يعيشون دون مطمع معقول لهم فى الحياة ، وتكونت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشتد عودها . وقام عليها حزب سياسى عسكرى هو الحزب القومى الاشتراكى (النازى) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم المزعج على العيش كشعب منفصل يختلف فى كثير من الأوجه عن الروح القومى العام ، سببا فى اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالنهب أيضا ، ولا يتسع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف المتمرد والقوة والسلطان ، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالا فى الحياة السياسية الألمانية فى سبيل إيقاف تيارها ، ولكن الذى حدث أن هتلر أصبح فى ١٩٣٢ مستشارا للامبراطورية ، كما أنه وقف عندئذ على أبواب السلطة العليا فى البلاد .

والظاهر أن الديبلوماسيين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتقائه مدارج القوة لا يقدرون قوته حق قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أى حد أصبح ذلك الرجل ممثلا لمشاعر الغضب والكبرياء العميق التى تتزاحم فى نفوس الألمان ، كما أن التفكير فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما

بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية . ولا تزال السياسة الخارجية لعبة حمقاء ، تدور بين الهيئات المعنوية التي يطلق عليها المؤرخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والمساومات السرية ، فهي لاتتناول الأجسام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب ، ولا يزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث فى إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف للحركة النازية ، (ذلك أنها لم تكن مثلا تعادى اليهود .) وكلما نمت الحركتان زاد أثر إحداهما الملحوظ فى الأخرى . أجل إنهما كانتا فى البداية مستقلتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بنيتو موسولينى ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا فى مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما ما لبثا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما فى شىء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية للتطور الاجتماعى للعصر — وأعنى بذلك أنهما نظما طبقة الشباب المتمردة المحرومة من كل هدف التى تظهر الآن فى كل قطر يتحطم اقتصاديا ، ومنحوها وسيلة للتعبير وإظهار النشاط .

بدأ موسولينى حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هى الأفانتى Avanti ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جرىء وقوى . فاختلف مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا فى تلك الحرب إلى صف الحلفاء ، واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفانتى وأصدر صحيفة IL Popolo del, Italia ليشرح فيها آراءه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأى امتياز عسكرى عظيم ، حدث بالبلاد الشىء الكثير من الاضطراب الاجتماعى وبضع حركات ثورية متناثرة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح لكثير من المراقبين أن فى الإمكان حدوث انقلاب شيوعى . وأحس موسولينى بنفس القلق القومى الذى أحسه هتلر ، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود هى حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة لاتقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار الماليين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، وذلك لأنهم كانت لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين الحمر على نزع أملاكهم وأموالهم ، كما ساورهم اقتناع أحمق بأن فى الإمكان التحكم فى ذلك العنصر متى أدى الغرض منه كمانع للاضطرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالغوا فى الخوف من الحمر وفى الاستهانة بالسود ،

على أن موسولينى لم يظهر فى أية مرحلة من مراحل حياته أى ميل إلى اعتبار نفسه خادما لرؤوس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته فى الدولة المتكاملة الأفراد الموحدة الجهود كانت تنطوى ضمنا على تحكم صارم جدا فى تصرفات المغامرين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركته قبل حركة هتلر ببضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا فى الحرب بنفس المدى الذى بلغه مقتل نظرائهم عند الألمان ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الغارات ، والجلد والاغتيال قام بها أتباعه ذوو القمصان السود وكبحوا بها تماما إرهاب المتهوسين الشيوعيين المؤمنين بمبدأ حرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما فى أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسولينى سريعا لايعوق سبيله عائق . لقد سبق ضريبه هتلر بحوالى عشر سنوات فى الوصول إلى السلطة الديكتاتورية . .

وكانت الظروف والأسباب المتماثلة فى كل أرجاء أوربا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح وتنتج نتائج متماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدو التمسك بلا هوادة بالمبادىء النظرية يحطمون النظام الاجتماعى والسياسى القديم فى كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم ، كما كانوا يهيئون السبيل فى كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والدكتاتورين « أى الرجال أولى القوة » ، الذين ينشئون حكومات أساسها الحكم الشخصى الفردى الشديد ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسى ولايبيحونها إلا لأنفسهم . فأما المبادىء التى كانوا يعتنقون فأمرلم يكن له وزن ؛ فربما كانت هى الشيوعية أو الدولة المتكافلة ؛ وما كانت تلك المبادىء إلا حالهم التى هم عليها وأفعالهم التى يفعلون . إذ ما الأهمية التى تعود فى النهاية من بلوغ منصب الدكتاتورية بالطرق غير المشروعة سواء أكانت يسارية أم يمينية . لاشك أن النتيجة العملية واحدة فى الحالين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه دكتاتورية ، كل بحث علمى خلاق وكل مثل عليا دولية وعادوا إلى نزعة الدولة القومية العسكرية ، وكانت الدكتاتورية الروسية أشد الدكتاتوريات ميلا إلى السلم ، ذلك أنها كانت قانعة بحدودها وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات الكيان الهزيل ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تعامل تلك المنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار . .

كانت اليابان كاملة السلاح والعدة ! وظلت كمعظم الحلفاء المنتصرين محتفظة بتسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تعد العدة لصرف أنظار شبابها القلق بهجوم تشنه على الصين المائلة المشبعة بالفوضى ، على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبذلان جهوداً جبارة فى سبيل تحسين أجسام جيلها الناشىء وتعويده على النظام ، وتعملان على النهوض بقواتهما الجوية نهضة قوية عاتية ، وكان فى تسلح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساى ، ولكن إيطاليا كانت حرة لايقيدها ذلك القيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث وصحافتها تبث باستمرار فى الشبيبة روح العدوان الحربى .

وقد حدث فى بعض نواحى أوربا أن التخوم التى رسمتها العصبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة فلنا مثلا التى منحت لدولة لتوانيا ، قد تقاتل عليها الروس والبولنديون واللتوانيون ، ثم ظلت فى يد البولنديين ، وعلى سبيل التعويض استولت لتوانيا على المدينة فى ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء مملمن الحامية الفرنسية التى وضعتها بها العصبة ثم تركت المدينة للتوانيا فى النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصابة يونانية جنرالا إيطالياً يعمل فى قومسيون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالمدافع دون انتظار لتفويض من العصبة وطالبت اليونان بالتعويض . ثم سوى الموقف باعتماد العصبة لما عملته إيطاليا .

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومى ، وهى مدينة منحت لكرواتيا ؛ فأغارت عليها قوة من المغامرين العسكريين بقيادة الشاعر المزهو بنفسه دانونزيو فى ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدى عدة مرات صارت ملكا لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، وطبيعى أن هذه لم تكن إلا أمورا صغيرة نسبيا ، ولكنها كانت تحذيراً لا بأس به ينذر بقلة التقدير ، الذى كانت تحظى به فى أعين الناس قوانين العصبة .

.. وكان الشرق الأقصى هو الميدان الذى تجلى فيه بطلان التسوية العالمية للعصبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أى واحد من رجال السياسة والتدبير الغربيين الموقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليدشئونها آنذاك ، — أنه كان يفهم فهماً جيداً المشاكل الخاصة العجيبة لمجتمع زها بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان وقد انهار هيكله السياسى

القديم والاجتماعى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرهم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى [أعنى دولة] كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتعهدات وتتحمل الديون وتتجشم الجزاءات ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه الفوضى الشاملة ، أخذ نفر من المتعلمين الصينيين يتمثلون للصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومنتانج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق « وطنية » ذات طابع عصرى بالصين ، ولم يكن مفر من أن تحدث فى ذلك القطر الهائل خلافات عظيمة فى الرأى وفى المشاعر المحلية الإقليمية ، وأن تتولد بها الفرص العظيمة للصوصية وقطع الطرق ، ومما زاد الموقف تفاقما أنه على الرغم من كل ماتدعيه العصبة من احترام القوميات ، سلمت لليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت فاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب الموجز عن متابعة ظهور وتوارى الزعماء المختلفين ، أمثال صن يات صن ذى النزعة العصرية ، والجنرال المسيحى فنج ، والمغولى تشانج تسولن الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يضيق عن ذكر تنقلات قصبة الحكم بين بيكين ونانكين وكانتون ، وأدوار كراهية الأجانب والانقلاب عليهم ، وتوالى تدخل الروسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة . ولكن مالبث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى المعتدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على عاتقها أن تواصل طبقا للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى المضى قدما حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين فى ١٩٣٢ واعتبرتها دولة محمية تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور المطرد للطيران وإمكانيات الحرب الجوية يغير روح المتاعب الدولية بالعالم أجمع وإن غيرها إلى ماهو أسوأ . ولكن جميع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة . وقد أصبحت الغواصة من حيث قوة التأثير أداة حربية قديمة الطراز ، وحلت محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتعلقة « بالجبهة البرية » « والطرق البحرية » قد صارت إلى اضمحلال وزوال ، وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والعدوان أرهف الجميع إحساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت تنمى

سلاحها الجوى تنمية سريعة وخفية وبالغة ، أما بريطانيا وفرنسا التى كان لهما تفوق عسكرى لاينازعها فيه منازع فى « العشرينات الحمقاء من القرن » فإنهما أدركتا بغتة أنهما فقدتا تفوقهما الجوى إبان الفترة التى قد نسميها باسم « ثلاثينات الخوف » ، ولم يبرح روح ألمانيا الجديدة بزعامة هتلر وجورنج وإيطاليا الفاشية يزداد على الأيام جسارة . فأخذا يواجهان دول الغرب بثقة واطمئنان متزايدين ، وأدركت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزع التفات أوربا فزادت من عدوانها بالصين ، ومن ثم شرعت الجيوش اليابانية التى تسيطر آنفاً على منشوريا فى غزو ولاية جهول فى نهاية ١٩٣٢ ، فبلغت سور الصين الأعظم فى ١٩٣٣ .

ولم تكن أى من بريطانيا أو فرنسا أو الروسيا راغبة فى الحرب . فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كل شىء وعدم اكتساب أى شىء . ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم آراء عميقة واسعة الأفق أو إخلاص فى إيمانهم بالعصبة كأداة من أدوات السلام ، ذلك أن الدول التى يسمونها بالديموقراطية كان يعوزها الإيمان بكفاية وسيلتها هى ، كما أن ثلاثتهن كانت تمزقها ـ على أشكال مختلفة ـ عوادى المتاعب الاقتصادية والمالية الخاصة بكل ، وراحت الدول العدوانية الثلاثة فى خلط عجيب بين التهديد الحقيق والتهويش والبلف ـ تمزق معاهدة فرساى وعصبة الأمم تمزيقاً تاماً ونهائياً .

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حاد بين إيطاليا والحبشة ، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت فى خريف ١٩٣٥ غمار حرب علنية لفتح بلاد الحبشة ، استخدمت فيها بغير رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والغازات السامة حتى انتصرت على الحبشة فى مايو ١٩٣٦ ، على أن الإيطاليين وجدوا الحبشة قطرا يصعب عليهم استيطانه واستغلاله .

وفى صيف تلك السنة نفسها واجهت أزمة عصيبة الحكومة الجمهورية بمدريد بعد أن أضعفها صراع مديد مع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القطلونيين ؛ إذ فوجئت بعصيان عسكرى يقوده الجنرال فرانكو على رأس الجنود المراكشيين وتؤيده فى السر ألمانيا وإيطاليا . وقد أخفق ذلك العصيان فى القيام بثورة مضادة مفاجئة ، لأن الأسبان

التفوا حول راية حكومة مدريد ، ودارت فى شبه الجزيرة رحى حرب ضروس ضارية مدة سنتين ، كانت ألمانيا وإيطاليا تزدادان على الدوام اشتراكا علنيا فيها . فكان المغيرون يضربون المدن بالمدافع بكل قسوة ، حتى قتل فى هذه العمليات الحربية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النساء والأطفال . ومع ذلك فإن أحداً لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفى نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية الدولية فى حالة سلم مع أسبانيا ، مثلما كانت اليابان من الناحية القانونية فى سلام مع الصين .

وفى ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضمتها لألمانيا فى تحد صريح للمنع الذى نصت عليه معاهدة فرساى فى هذا الصدد ، ولم تلق الحركة أية مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (من ورائه موسولينى حليفه المتيقظ) المتسلط المتحكم بصورة ملحوظة وشعورية فى شئون العالم كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العزيزة الجانب المسموعة الكلمة . على أن الخوف من الهجوم الجوى (ولعله كان خوفا مبالغا فيه) قد شل الدول الديموقراطية عن كل فكر أو حركة . وعندئذ ابتدأ سباق جنونى على التسلح ـ يفوق فى فداحة تكاليفه وإنهاكه للدول السباق الذى انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسة رائدها العزم والبساطة فى تلك اللعبة الدولية ، وتبخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا بل حتى ثقتها بنفسها ، أمور لن تتضح إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة فى الماضى القريب كانت تقاسى من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية المتغيرة والتى يساء فهمها وإن اختلفت صور العناء فى كل منها . فإنها هى أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهرى فى طرائق الإنتاج واضطراب فى التوزيع أخذا يقضيان على الطلب المستديم للعمال الدائمين ، كما أخذا مع مضى الزمن ونمو الصغار يضعان محل طبقة العمال المدربة القديمة طبقة أخرى من العاطلين القلقين الساخطين ، وظهر أثر ذلك التوتر بالولايات المتحدة فى شكل هبوط فى استهلاك السلع ، ولما كان استثمار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً أثناء الحرب ، ثم فى فترة

الاستقرار المالى بعد الحرب ، فقد نشأ عن ذلك تهافت الناس على بيع الصكوك المالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية ، ولم تلبث الأزمة أن مست عددا كبيرا من المصارف الأمريكية كان حرا قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ أثناء فترة الذعر المالى ١٩٣١ — ١٩٣٢ التى نجمت عن تلك الحال إذ وجدت على رأسها زعيما هو فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة الدول من النزعة الفردية التقليدية التى كانت تكدس الثروات وتبدد موارد البلاد فى عملية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الخطة مطبوع بالطابع العصرى ، هو حركة النظام الجديد The New Deal . ولكن ذلك المشروع كان يتطلب قدرا من الطابع الاشتراكى الذى يستلزم بدوره طائفة من الموظفين المدنيين يزيد عددها كثيرا عما كان لديه من الرجال المدربين والمتعلمين ، وكانت دماثة أخلاق الرئيس الجديد سبباً فى تأخير أعماله منذ البداية كما عوقته انقسامات وزرائه وضيق أفقهم فضلا عما يستشعره النظام القضائى الأمريكى من المحكمة العليا فنازلا — من التحيز العميق للجهد والمبادأة الفردية وكانت أمريكا لا تزال تقاسى الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى فى الإنشاء والتجديد فى ١٩٣٧ — ١٩٣٨ يوم بدأت تهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب فى العالم القديم . فأخذت تدرك الخطر الذى قد يتهدد كلا من منطقة الساحل الشرقى والغربى لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأية كارثة خطيرة ، كما أن الخطر الجوى أخذ يتراءى قريباً دانيا واضحاً للعيان أكثر فأكثر كلما زادت حيوم الطائرات وسرعتها . هذا إلى أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة لذا فإنها وإن ظلت تتعلق بأحلامها فى العزلة قد انساقت بدورها فى سباق التسلح الذى كانت تتزعمه من قبل بريطانيا وفرنسا .

تراكمت الصعوبات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى . فإنها سبقت أمريكا بأشواط فى ثورة الشعب على الغنى الحر القوى ، حيث فرضت ضرائب باهظة جدا على الدخل ، وقررت ضريبة التركات وصرفت للعاطلين معاشات تسد الرمق أو تكاد وبذلك أبعدت شبح التوتر الثورى وإن كانت طبقة الشباب العاطل فيها تتسكع فى الطرقات : وهم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضاً ، على أن شئون الصحة والتهذيب وزيادة التعليم أو الاستفادة من هذا الشباب اليائس المبتئس لم تلق إلا عناية قليلة نسبيا ، إذ أن صاحب الثروة الفردية وصاحب الجهد الفردى والمالية الفردية

كانوا من القوة السياسية ببريطانيا العظمى بحيث منعوا كل تطبيق للمذاهب الاشتراكية في الصناعة أو الموارد الطبيعية ، وتنبهت بريطانيا العظمى بدورها فى ١٩٣٧ إلى أن خطر الحرب أمر واقع وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم فى تيار العبودية للضرورات العسكرية. أدرك أذكياء الناس بأنه مادام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائما ، وتعليم الأكاذيب العنصرية مستمرا بطريقة منظمة ، والتحيزات القومية والثقافية رافعة الرأس ، وكذلك مادام نظام الامتلاك العقيم لموارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائما ، وما دام التلاعب المالى فى سبيل وضع اليد على الممتلكات مستمرا ، فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب أطنابه الآن بيننا ، كما لن تبرح الحياة والفكر البشرى تكرس إلى أقصى حد لخدمة تدريبات الحرب وعبودياتها ومخاوفها وشهواتها التى تزداد على كر الأيام هدما وتدميرا . والواقع أن جنسنا البشرى يتهدده نوع من الجنون العسكرى ، الذى قد ينحدر بنا خطوة فخطوة فى طريق حرب قاسية ترجع بنا القهقرى ، وتهوى بنا إلى حياة لايلذ لها شىء إلا الألم والبغضاء والشهوات البدائية ، ولا تهتم إلا بفضائل قليلة لاتتجاوز التجلد الإسبرطى .

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء ، كما أن ما أنفقه جميع الاشتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقلى فى سبيل تشخيص متاعبنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف ، قد لقى بسبب حاجاتنا الملحة كل احتقار . فلقد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشىء والكثير من التصريحات وظهرت ثرثرات عظيمة من التفاهات وأنصاف الحقائق التى لارابط بينها ، وامتلأت الآفاق بدعوة التآزر والتناسق دون أى تضحية بالذات . وعم العالم تلهف على شىء اسمه السلام ، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلاقة . ومن العجيب أن كل دعوة للتهدئة والسلم تنطوى على عنصر جسيم من الكسل والتراخى ، وإذا قدر للناس يوما أن يجمعوا فى أيديهم من القوة ، مايكفل قيام منظمة للســـلام تتصف بالكفاية فى أرجاء العالم وصيانتها ، فلن يتم ذلك عن طريق محفوف بالورود خال من كل مقاومة . ألا ترى أن السلم الرومانى Pax Romana كان ثمر الاستيلاء والفتح — فكذلك السلام العالمى (Pax Munbi) يتطلب بالتأكيد تصميما وعزما راسخاً ومعالجة حازمة لكل تمنع أو معاندة .

الفصل التاسع والستون

الحرب العالمية الثانية

سنقص الآن فى تفصيل نبأ الأحداث المتعاقبة التى أدت إلى نشوب الحرب التى لاتزال رحاها تدور اليوم[1] .

ففى مارس ١٩٣٨ اقترح المستر لتفينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث فى ضرورة القيام مجتمعين بعمل مشترك لمنع العدوان فى المستقبل ، وخاصة فى أواسط أوربا . ولم تدع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة فى هذا التشاور ، وذلك كما قال المسترلتفينوف : « لأننا لانريد أن نتناقش فى أمر العدوان مع المعتدى نفسه » وكان ذلك اقتراحاً واضحاً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوربية تماماً أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفحل، بيد أن ــ جنون كراهية الشيوعية ــ لدى الأغلبية البريطانية المحافظة كان أقوى كثيرا من خوفها من الخطر الألمانى . وقد ظل هذا الاقتراح الذى ردد صداه ستالين فى مارس ١٩٣٩ ومولوتوف فى مايو ، سياسة الروسيا العلنية الدائمة إلى ماقبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير حتى بعد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضامن مع الروسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألمانى .

وكانت الخطوة التالية فى البرنامج الألمانى هى القضاء على تشيكوسلوفاكيا . فإن ضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد الصغير الهام القوى الشكيمة محوطا بالألمان من ثلاث نواح، وعندئذ بدأت أبواق الدعاية فى بث دعوة صاخبة مجلجلة دفاعا عن الألمان الذين أصر واضعوا معاهدة فرساى تمسكا بفكرة التخوم الإستراتيجية الحربية ــ على ضمهم إلى بوهيميا وتلت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وبعض مفاوضات هزلية عجيبة . والواقع أنها كانت هزلية وعجيبة حقاً . فلئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم فى شخص مجنون معتز قاس،

---

(١) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنتهى الحرب كما هو واضح من السياق .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على المستر تشمبرلن المغرور عديم الكفاية المعاند المغرور رئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحاته إلى ألمانيا فى سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت اليوم مصدر الأسف الشديد والمهاترات المريرة لدى كل انجليزى ذكى ، ولكن لا يغرب عن البال أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد تخليه عن الدكتور بنيش ونبذه الضرورة الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قمع ألمانيا قمعاً جماعيا مشتركا بين الروسيا وفرنسا وبريطانيا وتشكوسلوفاكيا ، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها تشيكوسلوفاكيا وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر، وذلك عندما أعلن للجمهور المجتمع بداونج ستريت : « إنه السلام فى زمننا أيها الأصدقاء الطيبون . وإنى لأنصحكم الآن أن تعودوا إلى بيوتكم وتناموا فى فراشكم قريرى الأعين » . وانطلقت ألسن الجماهير بهتاف الفرح والسرور . وهى حقيقة ينبغى أن لا ننساها أبداً . وذهب الجمهور إلى بيته لينام قرير العين .

ومن البديهيات فى تدبير الطبيعة ونظامها القاسى المرير أن جزاء الحماقة والضعف يكون على الدوام شديداً صارما كجزاء الجريمة والإجرام سواء بسواء ؛ وها هى ذى بريطانيا ومعها البشرية جمعاء تدفعان ثمن التملص الدنىء مما قضى به الشرف والواجب . ذلك أن ألمانيا لم تبر بتعهداتها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز أن يبلغ إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغا يجعله يعتقد أنها كانت تنوى حقاً أن تبر بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب انجلترا «أصدقاء المستر تشمبرلن الطيبين» ذهب إلى فراشه قرير العين وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشكية المحددة لها ثم واصلت سيرها ... فأثارت استياء المستر تشمبرلن وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود فى مارس ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا تنتج الذخائر للجيوش الألمانية التى أخذت قوتها تتضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولندة والمجر أن وثبتا بشراهة على الدولة الصريعة ، غير آبهة بما قد يصيبها هى نفسها . فالتهمت بولندة منطقة تشكن Tescten واستولت المجر على سلخة من منطقة أوكرانيا .

ولم تترك بولندة مدة طويلة تهنأ فيها بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة . إذ أنها كانت الهدف الثانى للزحف الألمانى . وهنا جعلت مسألة دانزج سبباً ظاهرياً للخلاف الواضح المعروف . وأخذ الموقف يتطور سريعاً ، ولكن تردد المستر تشمبرلن وبلاده بريطانيا أصبح يدعو إلى المزيد من الرثاء . ومن قبل ، جبنت بريطانيا عن الدفاع عن

تشيكوسلوفاكيا ، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى خشيتها من البلشفية وشكوكها فيها . وكانت لا تزال فيما يظهر تصدق قول هتلر بأن غرضه الحقيقي هو تحطيم الشيوعية، كما لا تزال تداعبها الآمال في أن تزحف ألمانيا شرقا ، على حين أن كل مافعله الغرب هو القيام بالدور غير الكريم — وإن يكن مربحا — الذى يقوم به متعقبو المعسكرات ولكن بولندة كانت بها حكومة استبدادية لاتحتمل المعارضة ؛ رجعية وكاثوليكية كما كانت تناصب الروسيا العداء . هذا إلى أن المستر تشمبرلن كان يكابد الآلام بسبب تزايد نفور الناس من مغامراته في ميونيخ ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتلر ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لكبح جماح ألمانيا ، لكن تلك المفاوضات باءت بدورها بالفشل بسبب ماتبديه الطبقات البريطانية العليا من نفور من القيام بأى تعاون مخلص مع الروسيا . ذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هى الشبح الرهيب الذى يفزعهم .

وضمت مدينة ممل اللتوانية في مارس إلى الريخ الألماني . وفي أبريل ١٩٣٩ ، ضم الإيطاليون إليهم ألبانيا بغتة وفي تحد رصين لعصبة الأمم ، إلى غير ذلك من الاعتداءات فأثارت رشاش الاحتجاجات المألوف غير المجدى ، وعندئذ انسحبت من العصبة وخلا كرسى آخر من كراسيها . وفي مايو أعطى المستر لتفينوف الدول الغربية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على الدوام يتخذ موقف التعاون الجلى المتواصل مع الديموقراطية الغربية انسحب لتفينوف إلى القاعد الخلفية حيث أقام حصينا أريبا مجربا موثوقا به ، وخلفه المستر مولوتوف الذى كان استعماريا روسيا أكثر من سلفه وأقل منه ميلا إلى دول الغرب . ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة لتفينوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لاحظت أى حدث جرى في الروسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أن رغبتها في زوال الروسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا ما لبثت أن تحركت في الساعة الثالثة والعشرين فعقدت مع بولندة في ٢٤ أغسطس حلفا للمساعدة المتبادلة . وقد سبقت هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والروسيا . ذلك أن فون ريبنتروب وزير الخارجية الألمانية ذهب إلى الروسيا ، ومن الجلى أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

حيلين ، وعندئذ أدارت الروسيا ظهرها للديموقراطيات الغربية وهى فى حال من الغضب والشك الذى له مايبرره ، وتخلت ألمانيا تماما عن كل ما كانت تدعيه من العداء للكومنترن[1] ، ذلك العداء الذى كان له حق آنذاك أكبر الفضل فى وجود عطف على النازية بين الطبقات المسموعة الكلمة بفرنسا وبريطانيا العظمى ، فان هـذا العداء قد أدى الغرض المطلوب منه . فان الألمان اجتازوا حدود بولندة فى أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب فى الثالث من سبتمبر ، وهكذا صحا سكان بريطانيا الطيبون القريرو الأعين من نومهم وإذا بلادهم مشتبكة فى الحرب مع أحكم وأدق الشعوب المقاتلة تنظيما ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصى العتاد وغير مستعدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديمة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد نفر منهم تماما فى ذات الحين أقوى حلفائهم شكيمة . ومع ذلك فانهم قضوا نصف السنة التالية فى حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولأنهم طمئنوا تطمينا غير كريم .

وكانت الحملة الألمانية على بولنده قصيرة الأجل ولكنها تتسم بالكفاية . ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم المطارات البولندية ضربت بالقنابل وعطلت أعمالها بوساطة الهجمات الجوية الحاشدة ، على أن الجيوش البولندية التى قاتلت ببسالة عظيمة مالبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارف فى العتاد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت فى ١٢ سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والعزب ستضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضاً « لسحق كل مقاومة يبديها الأهالى المدنيون البولنديون » ، وذبح المدنيون البولنديون فى مذابح كثيرة . ومع ذلك لم يبذل سلاحا الجو البريطانى والفرنسى أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولندة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تتراجع إلى لتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو فى ٢٨ سبتمبر .

وفى السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة ، وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولندة قد غلبت

(١) الكومنترن : هى الهيئة الشيوعية الدولية أو الهيئة الدولية الثالثة . [المترجم]

على أمرها تمـاما . وتقدمت تلك القوات إلى نفس التخوم التى كانت للروسيـا بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقيـة كيرزون ، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التى عادوا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون حقيقيون . وعند ذلك ردت إلى لتوانيا مدينة فلنا التى أخذت من قبل تحديا لعصبة الأمم ، ثم اتجهت الروسيا بعـد ذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث (التى رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنحاها ضماناً مشتركاً) ، وتم لها بمقتضاها التحكم الفعلى فى وسائل دفاعها الجوية والساحلية بوساطة القوات الروسية . واتضح للعيان أن الروسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق . ذلك أنهـا كانت على الدوام فى خوف من أن تهاجمها الدول الرأسمالية مجتمعة ، وكان لها مايبرر اعتقادها فى أن تعد فنلندة رأس الحربة التى يأتيها هذا الهجوم من قبلها . وربما كانت الروسيا مبالغة فى هـــذه المخاوف . أجل إن للدافع الفنلندية كانت تتحكم فى الداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أمريكا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن فى استسلام صبر جميل . لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فعمدت الروسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من الغارات . وهى وحشية كان فى إمكان الروسيا أن تستغنى عنها تماماً وكانت الحرب حربا شاقة باهظة الثمن على السوفييت. على أن فنلندة ما لبثت فى النهاية أن اعترفت بالهزيمة وعقدت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفى نفس الحين كانت الحرب فى الناحية الغربية من أوربا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضا من وراء خطوط قوية التحصينات هى خطا ماجينو وسجفريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم فاتر على الجناح الشمالى من الجبهة . ثم عاد الألمان لمواصلة حرب الغواصات فباءوا بالفشل والخسران فإن الأسطول البريطانى عمد إلى استخدام وسائل فنية جـديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة ، ولم يلق فى سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناص منها ، وهى بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس فضلا عن بضع سفن صغرى ، وكانت خسارة السفن المحروسة فى القوافل أقل كثيرا.

من كل ما كان متوقعاً ، لذا وصلت المؤن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق مافقدوه ، فإن البارجة جراف سبي قد ضيق عليها الخناق وقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هي اكستر Exeter وأخيل Achilles وأجاكس Ajax ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفضيل إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم انتحر ربانها .

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت أثناءها حالة الخمول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية ، وزادت همة بريطانيا في الاستعداد للحرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من المدافع والمعدات الحربية تعبر بحر المانش .

وتخللت فترة الخمول هذه حركة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هي مطاردتهم واضطهادهم لزعماء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجهة فقط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين يجاوزون الخمسين نائبا أو اضطرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حلت في طول البلاد وعرضها وعين مكانها موظفون خصوصيون وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحتة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة الانتشار بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين الفلاحين ، وكان كثير منها لايزالون يرون الروسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون : أهم يقاتلون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الذخيرة فضلا عن صفوف الجند ، وللمرة الثانية استطاع المعتدى أن يدس إسفينه بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العادى . وذلك لأن الخيانة تكتلت أيضا في أحزاب اليمين المؤيدة لمسيو دلاديه ، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأشد أخذت تتسرب دون أن يدركها أو يتحداها أحد .

وزاد من متاعب الجند قسوة الشتاء بدرجة غير مألوفة وتضعضع الأمل إلى أقصى حد في الحصول الجديد بأوربا كلها ، ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد النرويج . إذ أصبح حياد تلك البلاد موضع الشك ، ذلك أن الملك هاكون كان شديد الميل للانجليز والولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا ديموقراطيين بروحهم ولكن الحلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة المياه الضيقة المحاذية لشاطىء النرويج وفى

حدود الأميال الثلاثة التى تعدها القوانين مياها إقليمية ، كانت تستخدم ممرا تجتاب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتنسل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين . وتفاقم الأمر تماما عندما حدث ما يسمى باسم حادثة آلتمارك . فإن عددا يتراوح بين الثلمائة والأربعمائة من بحارة السفن التى أغرقتها البارجة جراف سبى قبل تدميرها قد هربوا فى ذلك المجاز الساحلى بإغضاء من سلطات الموانى النرويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين نرويجيين مسلحين وإنكار موظفى الميناء النرويجيين وجود أى أسرى على ظهر السفينة ، فإن المدمرة تقدمت فى يوسنج فيورد واعتلى بحارتها السفينة المعتدية ، التى شحطت على الأرض أثناء المعركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف باسكندنافيا منذ تلك اللحظة . فغزا الألمان النرويج والدانمرك فى وقت واحد وسلمت الدانمرك على الفور . وقاومت أوسلو هجوم المعتدين ، ولكن خانها الحزب الفاشستى النرويجى نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة المضطربة . وفى تلك الأثناء كان الجمهور بيريطانيا يغذى بما لانهاية له من الأكاذيب والفخر الأجوف . فكان كل من المستر تشمبرلن والسير إدموند أيرنسايد Ironside رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية ، يتباريان فى الفخار الأجوف الكاذب . فيقول الجنرال أيرنسايد إن هتلر قد « فاته القطار » وردد المستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام ؟!!! خاصة وأن هتلر قد كشف نفسه الآن؛ وأخرجت الترسة رأسها من بين أطباق درقتها !! وستضرب بريطانيا ضربتها الآن !! وربما كان يمكنها توجيه ضربتها فعلا ، ولكنها لم تفعل ، وذلك لأن قيادتها العليا وإمارة البحرية فيها لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين للقيام بذلك . وقال الجنرال أيرنسايد : إن الجيش الألمانى جيش رفيع الامتياز حقا ، ولكن ليس فيه ضابط خدم فى الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشى . غير أن البريطانيين كان لديهم أمثال أيرنسايد من القواد المحنكين ! وقد غزا الألمان الدانمارك والنرويج فى ٩ أبريل . ولما حل يوم ٨ مايو أجرى مجلس العموم البريطانى تحقيقا حول تلك الهزيمة الشنعاء . وتجلى أن خطط و أساليب هؤلاء القادة المحنكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عمياء . وإليكم بضع عبارات من خطبة ألقاها المستر لويد جورج :

« لقد نجح هتلر فى وضع وطنه فى مركز استراتيجى أحسن كثيراً مما بلغه أسلافه

فى ١٩١٤ . فقد وقعت فى أيدى الألمان اسكندنافيا والنرويج ، وهى من أعظم الإمكانيات الاستراتيجية فى الحرب . وليس ثمة فائدة تعود من لوم السويد ، والألمان ينزلون عن يمينها ويسارها . وبأى حق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى ؟ ونحن قد وعدنا بإنقاذها وحمايتها . ونحن لم نرسل طيارة واحدة إلى بولندا وتأخرنا أكثر من اللازم فى بلاد النرويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيبتنا قد انحطت ؟ لقد ألقينا الوعود لتشيكوسلوفاكيا وبولندة وفنلندة . وأصبحت وعودنا قمامة فى عرض الطريق . . .

« لقد وعدونا بإعادة تسليح البلاد فى ١٩٣٥ ، وعرضت على المجلس اقتراحات فعلية فى ١٩٣٦ ، وعرف الكل أن كل ما عمل قد تم بغير همة تحدوه وبغير أثر فعال عاد منه ودون باعث قوى أو ذكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزدد سرعة الأمور شيئا يذكر بل بقى الحال على ما كان عليه من التوانى وعدم الكفاية . وعرف العالم كله أن بلادنا وضعت فى أسوأ مركز استراتيجى وقعت فيه فى تاريخها .

« لقد قال المستر تشمبرلن إن ورائى أصدقائى ، وليست المسألة مسألة من هم أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيرا وأخطر . إذ لابد لرئيس الوزراء أن يتذكر أنه التقى بهذا العدو الجبار فى وقتى السلم والحرب ، وأنه لقى على يديه الهزيمة دائما . لقد طالبنا بالتضحية . والشعب مستعد لاشك لبذلها ما دامت له زعامة . وإنى أقولها الآن باتزان تام إن فى إمكان رئيس الوزراء أن يضرب لنا مثلا فى التضحية ، إذ لا يستطيع شىء أن يؤدى إلى النصر فى هذه الحرب أكثر من تضحيته بمقاليد الحكم » .

وبينما بريطانيا لا تزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس المستر تشمبرلن الجاثم على صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة فى صورة الثالوث الشرس الرهيب جورنج وجوبلز وهتلر واستمرت آمال البشرية تتحطم وترجع القهقرى . ولم يفكر أحد حتى فى عزل السير إدموند أيرنسايد من منصبه . وما لبث أن رتب للاشتراك فى كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فإن الضربة التالية لفنون الحرب الفرنسية البريطانية المتداعية قد أنزلت فى العاشر من مايو ، عندما اجتاحت ألمانيا بلاد هولندة والبلجيك ولكسمبرج فى وقت واحد .

ومهما بدا عجيباً لعين دارس التاريخ فى السنوات التالية (إن بقى للتاريخ دارس فى السنوات التالية) فالواقع أن واحدة من تلك الأقطار الثلاثة لم تفكر يوما رغم هذا الخطر المحتمل البسيط، فى إعداد خطة للدفاع بالإشتراك مع فرنسا وبريطانيا. ولعبت نفس العناصر الخائنة المترددة دورها فيما أعقب ذلك من كارثة. ومن الأسف أن الفرنسيين لم يمدوا خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب « حركة » فى الجناح الأيسر المكشوف كانت ناقصة بتراء جدا وقاتل للوالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال، ولكن قضت عليهم الخيانة وراء حدودهم، كما غلبهم استخدام الألمان الهائل لرجال المظلات، وهو أمر لم يكن مستعدا له بالمرة خيال قواد الحلفاء، الذين لم يتح لهم إلا خمس أوست سنوات ليدرسوا فيها تلك الفكرة. ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس المصير الذى لقيته جرنيكا، فدفن آلاف من السكان تحت الأنقاض، ولم تمض أربعة أيام حتى انهارت كل مقاومة بهولندة. وفرت الملكة إلى انجلترة وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بعواطف البطولة.

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء المتقلصة. وكان فى أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سكودا التى أهداها المستر تشمبرلن لألمانيا فى السنة السالفة. وأخذ الخط الفرنسى فى الانكسار قرب سيدان. واندفع الألمان فى الاتجاه الشرقى مخترقين الثغرة التى فتحوها. فتركوا باريس عن يسارهم وتقدموا نحو بحر المانش وإنجلترة. لم يستطع الحلفاء سد الثغرة، لذا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين فى الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسى بفرنسا، ولاح أسرها وشيكا دانيا. وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمالى بريطانية، لذا كان فى فقدها كشفا لبريطانيا وتعريضا لها للأخطار. وعندئذ خطر للملك ليوبولد الذى كان قد التمس المعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتيحت بلاده، أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوى على أعظم مظاهر الجبن والخيانة. ففتح باب المفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار فى ٢٨ مايو، دون إخطار حلفائه وفى تخط لنصيحة حكومته الإجماعية، « ودون أن يلقى بالا إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائه فى ساعة العسرة ».

وأوشك الجيش البريطانى على الوقوع فى الأسر لولا أن أنقذته من التسليم صفات جنده وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب. قيادة سيئة وخيانة داهمة وجناح أيسر مكشوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دنكرك ، وتمسك بها بضعة أيام عصيبة ، كما استطاع رغم تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزا هائلا ، أن يعبر بحر المانش ، إلى انجلتره مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين الموالين . وبلغ من إبداع سلوك الجيش ، ومما انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألوان البطولة الرائعة ، أن امتلأ الجمهور البريطانى بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر . وقال المستر ونستون تشرشل الذى خلف فى النهاية المستر تشمبرلن فى رئاسة الوزارة محذرا الشعب : « ليس الانسحاب الناجح نصرا » وخسر الحلفاء قدرا هائلا من المدافع والمواد الحربية ، كما أن المقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تتهاوى .

وتفشى التقهقر بين صفوف الجند . وشرع المستر تشرشل فى التفكير فى انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية المرة نفسها وإن سقطت انجلترة صريعة فى الميدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والنافذة الكلمة تتدافع تدافعا غير كريم للفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا ربحت الكثير بسبب هذا الجلاء ، ومهما تكن نتيجة الحرب ، فإنا نشك فى أن يتحمس هؤلاء المنفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسولينى أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها فى ١٠ يونيه وأخذ الجنود الإيطاليون يكثرون من الإشارات وتحريك الأيدى على الحدود الألبية كما أخذت صور للدوتشى على الأراضى الفرنسية . وتحول انهيار الجيوش الفرنسية إلى تشتيت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بوردو . وخطب المسيو رينو فى ١٣ يونيه خطبة نهائية يائسة التمس فيها العون من الرئيس روزفلت . وقال إن الكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . ورد عليه الرئيس بسرعة معبراً عن أسمى أنواع العواطف ووعد بتقديم المساعدات المادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ ذات المعنيين : « إنى أعرف أنك تفهم أن أقوالى هذه لا تحمل أى معنى يدل على تعهدنا بالدخول فى المسائل العسكرية . إذا لا يملك أحد القيام بمثل ذلك التعهد إلا الكونجرس وحده . »

وعند ذلك استقال السير رينو وخلفه فى رئاسة الوزارة المـاريشال بيتان الشيخ الـكبير الفانى وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال ڤيجان الأصغر منه قليلا . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعـدو تسليما تاما ، يكاد يخالطه شىء من التحمس ! ! ثم عمدت الحكومة البريطانية فى اللحظة الأخـيرة إلى تقديم اقتراح بتوحيد بريطانيا وفرنسا معاً .

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تعاهدتا على عـدم القيام بصلح منفصل ، ولـكن ذلك العهد نسى آنذاك ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنوداً يحيط بها الأعداء . وانهالت الجيوش الألمانية الظافرة على فرنسا ، وذهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المانش ، وهى البقية الأخيرة من دوقية نورمندى التى ظلت تابعة للتاج البريطانى ١٠٦٦ — تقع فى يد الألمان . وعندئذ شعر البريطانيون بخطورة مركزهم ، ولـكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم ، ووجدت لسانها المعبر فى المستر تشرشل .

وكانت موانى فرنسا الحربية وأسطولها أيضا وفوق كل شىء ، مصدر تهديدلا يمكن الاستهانة به . وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طائعة ، وأقيمت فى لندن لجنة قومية فرنسية برياسة الجنرال ديجول (de Gaulle) ، لتنظيم استرداد فرنسا من براثن الأعداء . على حين أن بقية الأسطول الفرنسى قد قبض عليه أو عطل من السلاح أو ضم إلى بريطانيا . وهاجم الأميرال سومرفيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران ، منها بارجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج ودنـكرك وعطلهما عن العمل .

ولما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالى أول لقاء بحرى خطير ، راحت ضحيته البارجة الإيطالية الممتازة بارتولوميو كوليونى ، وهى من أسرع بوارج العـالم ، إذ أصابتها رغم ذلك قذيفة من المدمرة الأسترالية سدنى وأغرقتها . حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفحة الماء ، أحـد معدنهم الحر ينفض عنه الصدأ الذى ظل يتجمع على سطحه أثناء سنوات الانحطاط الطويلة .

ولعل شيئاً من الخورقد داخل بعض النفوس المرتابة عندما عاد السير إدموند أيرنسايد إلى انجلترة لتنظيم الدفاع الداخلى ، ولـكنه سرعان ما رقى إلى رتبة الماريشالية ومنح لقب اللوردية ، وأحيل إلى الاستيداع بنصف مرتب وأبعد عن طريق الشر . ونشأ حرس وطنى أخذت كفايته تزداد ، وحل الترقب الانفعالى محل التخوف المفزوع . وأخذ يتضح للعيان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية ، التى أخذت تجتذب إليها

الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب ، ومن أبناء الإمبراطورية وأبناء الحلفاء سواء بسواء ، وأثبتت الأيام صفاء معدنهم إلى أقصى حد . وكان احتمال الغزو ينقص درجات عديدة كلما تأخر يوما .

وتركز الاهتمام آنئذ على أسبانيا والبحر الأبيض المتوسط ؛ فكأنه قد عاد أدراجه إلى الشرق . واتضح للناس جميعاً أن للروسيا رأيا خاصاً بمستقبلها جعلها على الأقل لاتميل إلى العطف على الألمان كما لاتميل إلى العطف على الطبقة البريطانية الحاكمة . فعادت إلى تقوية تخومها المواجهة لألمانيا وتحصين مركزها على نهر الدانوب والبحر الأسود . ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بسارابيا وبوكوفينا الشمالية ، اللتين اقتطعتهما منها رومانيا فى ١٩١٨ ، ولم تلبث رومانيا أن أذعنت لذلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى . ثم استجابت الروسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق فى وقتها المناسب بشكل عجيب ، ومن ثم دخلت ثلاثتها الاتحاد السوفييتى .

وأثار هذا العمل شعوراً معنوياً بعيد المدى لدى حكومة الولايات المتحدة فإنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا ، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكى بخطاب شديد ضد ضمها ، فأجابه المستر مولوتوف قوميسير الشئون الخارجية الروسى إجابة شديدة وبلغة المذهب الشيوعى المألوفة . حيث قال إن فى إمكان أمريكا أن تعنى بأمورها الخاصة . ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمتين المهتمتين كلتيهما بقضية السلام والعاجزتين إن افترقتا عن الوصول إليه . ومع ذلك لم تكن هناك فى العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختلافهما فى الرأى إلا ضآلة نصيب الطرفين من سعة الخيال .

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية فى صيف ١٩٤٠ فى تجميع قواته ليقاتل قتالا جديا ، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت لاتزال مبهمة حمقاء . وأنشئت هيئة خفية وشبه سرية هى لجنة سوينتون لمعالجة شئون جموع اللاجئين والأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا العظمى وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويد جريم اتخذ اسم كانليف ليستر فى ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية فى ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سوينتون . ويلوح أنه باشر عمله بصورة تذكرنا بذوى النزعة السادية[1] فى بغض الأجانب

(١) السادية : ضرب من الانحراف الجنسى ، القسوة أبرز مظاهره . وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بغض الأجانب .

الجنوبي أو بعميل من عملاء النازية ، وتلا ذلك إنزال أقسى وأعنف الاضطهاد بأبناء الشعوب نفسها التي كان ينبغي على بريطانيا أن تشخص اليهم طلباً للمعونة أثناء كفاحها في سبيل إعادة ألوية الحرية إلى أوربا . فقد لقوا معاملة شريرة وحشية لا تنطوي على أي حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا ضرراً لاسبيل إلى إصلاحه . فاعتقل أعداء ألداء للنازية والفاشية ولقوا معاملة فظيعة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعائلاتهم ، وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتحار . وقديماً إبان الماضي العظيم العهد كننج وبلمرستون وملبورن الذي واجهت فيه بريطانيا الحالفة المقدسة ، جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال الحركات الثورية في كل دولة أوربية . وبريطانيا العظمى هي التي أوقفت تجارة الرقيق ، وكان مما يفخر به البريطانيون أنه حيثما رفرف علمهم اتشح الناس بثوب الحرية . فأما الآن فإن العالم وقف كالمصعوق يسائل نفسه أنسيت إنجلترة ذلك الماضي المجيد ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديمقراطية مجرد دعوى جوفاء ؟

ومما زاد من الوقع السيء لهذا الاضطهاد أن الحكومة البريطانية تشبثت في عناد بعدم إصدار أي بيان واضح عن أهدافها من الحرب وكانت كل قوة حرة في العالم خارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإصدار ذلك البيان . ومع ذلك فإن الشعوب البريطانية التي أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أنفسها من أغلال نزعات المحافظين التورية [1] القاسية التي أوقعتهم فيها الحرب . . .

هكذا واصل البريطانيون القتال في الوقت الذي سادفيه ببلادهم كفاح اجتماعي مطرد النمو وحدث هجوم جوي عظيم ومتواصل على لندن في سبتمبر وأكتوبر ، وأبرز للعيان تجلد عامة الشعب وصبرهم القوي كما أظهر التزايد المتواصل في السلاح الجوي البريطاني ، وأخذت أمريكا بزعامة فرنكلين ديلانو روزفلت تزداد على الأيام عطفا على ما يبذل البريطانيون من جهد في الحرب ، وبانقضاء السنة دخلت الحرب في مرحلة جديدة . فإن جيوش موسوليني كانت تسير حثيثا في طريقها إلى مصر وقناة السويس ، وبلغ من ثقته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١) . وكانت هذه مرحلة مجد أخيرة لذلك المخلوق المنتفخ الأوداج . وعند ذلك كان أمثال جورنت وأشباه إرنسايد قد أبعدوا

---

(١) التورية Torysim مذهب شعبة المحافظة على القديم .

عن رياسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد سما بكفايتها الرئيس متكساس إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطانى من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال ويفل ، فضرب الجيوش الإيطالية بشمال إفريقية وأريتريا والحبشة ضربة قاصمة وسريعة أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقض عشرة أسابيع حتى تمزقت المثانة الفاشيستية المتنفخة . وهزمت قوات الكومونولث البريطانى الناهضة القليلة العدد والقوية العزم الجيدة العتاد الجيوش الإيطالية المتناثرة من البحر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوى البريطانى الجيوش الإيطالية بألبانيا ولا شك أن لو أتيح للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالذكاء والعزم لأمكنهم فى ١٩٤٠ تحطيم هجمة النازيين على النرويج . ولم تبرح الأكذوبة المسماة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابة هذه السطور (مارس ١٩٤١) ، ولكن لو أن أمريكا مدت يد العون المادى فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنهـا على النحو الذى عالجوا به الفاشية . ولا يزال المحيط الأطلنطى معتركا لكفاح غير مضمون العاقبة . فالسفن البريطانية تغرق فيه بوفرة كما تغرق أخرى موالية لبريطانيا وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل فى قيام عالم جديد لايزال يملأ النفوس بالرجاء . فهل يتحقق ذلك الأمل ؟

الفصل السبعون

أزمة التكيف البشرى

ليس ضربا من المبالغة أن البشرية مصابة فى الوقت الحاضر بمس من الجنون ، وأننا لسنا بحاجة إلى شىء كحاجتنا إلى معاودة ضبط النفس العقلى فى الجنس كله . إننا نتهم الفرد بالجنون إن جانبت أفعاله الغالبة جادة التوافق مع ظروفه التى فيها يعيش مجانبة تجعله مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين . والظاهر أن هـذا التعريف للجنون ينطبق فى الوقت الحاضر على الجنس البشرى بأكمله ، وليس من المجاز فى شىء بل هو الحقيقة المجردة بعينها ، أن يقال إن على الإنسان أن يتمالك عقله أو يتماسك أو يهلك ويذهب جفاء . أجل عليه أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها قوة وجهداً أنضج ، وكأنى به لا يجد سبيلا وسطا بين هذين النقيضين . فهو مخير بين السماك الأعلى والحضيض الأوهد وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو .

تعقبنا فى هذه الخلاصة الموجزة للتاريخ البشرى خطى النمو المتصل للمجتمع البشرى . ولمسنا كيف كان كل تحسين فى وسائل المواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكييف أنفسهم لحياة اجتماعية موسعة الآفاق على الرغم من كل مقاومة تنبعث عن ضروب الولاء الوطيدة والديانات العتيقة والتحيز ومألوف العادات ، مع ما يقترن بذلك غالباً من الإسراف الهائل فى النفوس والتبديد الذريع للسعادة ــ كما أننا فحصنا فى الفصول ٥٧ و٥٨ و٥٩ بوجه خاص عن صنوف الارتباك والفرص التى خلقها العلم والاختراع الحر أثناء القرن الماضى ووجهنا البحث خاصة نحو موضوع المشقات التى ينتجها تعقد أوضاع الملكية عندنا إزاء تلك التربية العامة المهزيلة الموجودة لدينا اليوم ، لقد أصبحت كتلة السكان العظمى متمردة . وربما كان الفصل التاسع والخمسون أهم ما فى قصتنا من فصول ، وربما كان جديراً بأن يلقى عليه القارىء نظرة أخرى . وهنـاك ميزة خاصة اختصت بها الملكية هى صورتها السائلة كنقود أو كوعود بدفع النقود . ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقد تشغل قدرا متزايداً من عناية الناس واهتمامهم ، ولكن قدرا كبيراً من الأبحاث التى جرت كان غير ذى جدوى لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشىء أو نظام

فى حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من « مجموعة معقدة » من العلاقات ، هو مركب الملكية والنقد ، الذى كلما عدل منه جزء عدل معه الكل . مثال ذلك أنه عندما تتضخم العملة وترتفع الأسعار ، يجرد الدائنون مما يملكون ، فإذا زال التضخم وانكمشت العملة حمل المدنيون عبئاً ثقيلا . والنقود تتغير طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبيعه . ويصرح العليمون فى شيء من التمويه أن إيجاد الائتمان على يد البنوك الخاصة يعد ضربا من اغتصاب السلطة ، والنقود تتغير طبيعتها بتغير النواحى التى تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة ، بل عملات عديدة . وللشيوعية نوع من النقود كما أن هناك نوعا آخر لأنصار المذهب الفردى[1] المتطرف ونوع لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه فى شئون التملك والتوجيه وحرية التصرف .

فإذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافى من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة ظل ميدانا يرتع فيه المغامر والمضارب ، وظل مصدراً لإفساد لانهاية له لنظام الحياة الاقتصادية اليومية ، ولكن أين لنا بالتعويذة التى تبدد هذا الارتباك . لاجرم أن ذلك يستلزم جهداً عقليا هائلا ومنظما . ولن نبرح نقاسى حتى نبذل ذلك الجهد فضلا عما سنتعرض له من مخاطر ذريعة فى حياتنا الدولية المتهوسة ، — نقاسى قلة اطمئنان ربما لاحت فى أحد الأيام شيئاً لايصدقه العقل ، فى ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة . وليس فى أيامنا هذه رجل عادى فى أى مكان يمكن أن يقال إنه بمأمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن فقط فى إدراك العيار والعميق الحق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التى تدور الآن . وفى القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط يختطف هبات القوة والثروة التى كان العلم يهبها له ، دون أن يحس إلا بأقل قدر من الشكر ودون أن يدرك الثمن الذى ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن ، فقد بلغ من تغير معيار المسافات وبلغ من عظم القوة « المادية » التى فى يد البشر ، أن أصبحت السيادة المنفصلة التى للدول الحاضرة أمراً مستحيلا ومع ذلك فإننا نتعلق بتلك السيادة بعناد يجر علينا المصائب . فلابد من أن تبدو بشكل ما ، الأوهام المتصلة بالمال ؛ وبشكل ما ، لابد للتحكم العالمى فى الحياة السياسية والاقتصادية

---

(١) مذهب الفردية : مذهب اجتماعى واقتصادى يعلو بحقوق الفرد ومصلحته على حقوق الجماعة والدولة ومصلحتها . [المترجم] .

وفى بيولوجيا النوع بصفة عامة من أن يعالج بالتنظيم .

والضرورة تحتم تغيير كثير من الأشياء الثابتة تغييرا يطمس معالمها القديمة تماما ، وينبغى للقارىء الإنجليزى أن لايحز فى نفسه كثيراً احتمال انتهاء السيادة البريطانية العالمية فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام . أجل إننا أتينا أمورا ممتازة تنطوى على السماحة والحرية ، ولكننا لم نأت منها القدر الكافى لتبرير زعامتنا العالمية ، لذا وجب علينا خلال الضيق النفسي الذى يمر بنا أن نهيء أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا نعترف البتة بها فى أيام دزرائيلي والغرور الذى أثاره كبلنج :— وهى أن المصير التالى للانسان هو المتجه نحو المساواة والوحدة فى أرجاء العالم قاطبة . أما العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهيبة مثل أعلى غير جدير بالثقة فعلينا الآن أن نوطن أنفسنا طوعا أو كرها ، على الديموقراطية العالمية والزمالة العالمية ، حتى لا يصيبنا جميعاً ماهو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماما أنه لابد للبشرية من القيام بجهد تعميرى هائل إن شاءت أن تتجنب شدة الزيادة فى تلك الهزات العنيفة وتلك المذابح العالمية التى أنتجتها الحرب العظمى . ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن مجموعة مهلهلة مرقعة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تغير فى العالم شيئاً مع ادعائها تسوية كل شيء ، لن تكون علاجا للحاجات السياسية المعقدة للعصر الجديد الذى ينتظرنا . ومهما تكن الأمور مستعجلة وخطيرة ، فلابد من أن يسبق كل تنظيم عالمى جديد وفعال نهضة عقلية كبرى ، ولا بد من نشوء تطور منظم وتطبيق منظم لعلوم العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى ولعلم المالية والاقتصاد والتربية ، وكلها علوم لا تزال فى مهد طفولتها . فأما الأفكار الضيقة والبائدة والميتة والمحتضرة سواء منها الخلقى والسياسى فلابد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك الجنس البشرى كافة فى الأصول والمصائر .

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التى تتكدس على رأس الإنسان فى هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به ، فما ذلك إلا لأن العلم جلب له من القوة مالم يكن له من قبل إطلاقا ، كما أن المنهج العلمى القائم على الفكر غير الهياب والتعبير الواضح إلى أقصى حد ، والتخطيط الناقد والمتحرز إلى أقصى حد ، نقول : إن ذلك المنهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم يتهيأ له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى . فالبشرية لا تزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك ، بل متاعب القوة المتزايدة التى لم تلق بعد تنظيما . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركبا واحداً ، شأننا فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر المتجه إلى أعلى والهادف إلى الإلمام والتحكم ، لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره فى صورها النسبية الحقة . ونحن الآن فى أول مطالع فجر العظمة البشرية . ولكننا نلمس وميضا مما تستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نحسه فى جمال الزهر والغروب وفى الحركة السعيدة المتقنة لصغار الحيوانات وفى سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ؛ كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانيات المادية ، نجدها فيما أنتجته يد الصناع من فنون التشكيل والتصوير ومن الموسيقى الفاخرة الرائعة ، وفى قليل من المبانى الشامخة العظيمة والحدائق البديعة الغناء . لاجرم أن الأحلام تملأ رؤوسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة ولكنها لا تبرح تزداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لابد أن يحقق تماما أحرأ تخيلاتنا وأشدها غلوا ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وثمرات جيواتنا سيعيشون فى عالم سيصبح من الفخامة والجمال بحال تفوق كل قصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة من المغامرة والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنعه الإنسان ، والإنتصارات الصغيرة التى أحرزها فى حالته الراهنة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى بقى على الإنسان أن يتمها بعد .

الفصل الحادي والسبعون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

العقل البشرى فى أقصى توتره[1]

— ١ —

الأحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا السفر فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠ – ١٩٤١ . وليس هناك ما يستحق التغيير إلا النذر اليسير من حيث تتابع الحوادث . وقد حذفت بعض العبارات فى بعض النسخ لدواع سياسية ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة . وقد سجل الكتاب اليوم وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل ، ولن يكون لأحد عذر ولا إذن باجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منزها عن كل تغيير ويمكننا الآن إعادته سيرته الأولى الكاملة ، لقد ألم تغير جسيم بالقيم الناطقة بتتابعها . على أنه يجدر بنا قبل الخوض فى ذلك الموضوع أن نتذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك باختصار ، وذلك لأن كثيرا من تلك الأحداث لا تزال ناضرة فى ذاكرة القارىء :وفى ١٩٤٠ ـــ ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد يحتال التماساً للوقت ويضمر الاسترابة بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر رغم ما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكاد يصدقها عقل أن يعقد المعاهدات ويتفاهم مع جميع ضحاياه الذين قرر إيقاعهم فى شراكه عدا اليهود الذين كانت نقمته عليهم قاطعة . ويلوح أن الأمريكيين كانوا بمنأة عن دائرة أطماعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم المتركز حول أوربا . وسار مولوتوف وبوريس ملك بلغاريا وممثل الحكومة الألعوبة المهزلة القائمة فى يوغوسلافيا ،

---

(١) هذا الفصل أضافه المؤلف قبيل وفاته وظهر فى أحدث طبعة للكتاب . [المترجم]

فى إثر خطوات المستر تشمبرلن وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تتحمل وحدها عبء هجوم لم تبرح شدته تزداد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التقائه مع مولوتوف بالقلق من ناحية الروسيا . وكانت الروسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى لذلك كانت أقرب مصدر الخطر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية فى دفاعها ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لذا اجتاح هتلر بلاد الروس فى ٢٢ يونيه ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان من الميسور إرجاؤه حتى يقضى على الروسيا . كانت السلطات المسئولة فى أمريكا منقسمة إلى معسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يفضى إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر العجوز . وربما سهل على الألمان إيصال الجنود إلى انجلترا ، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور رغم وجود أتباع موزلى ومن إليهم ومساعدتهم لهم وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفى كل مكان ، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليزى العادى شهرة صلابة العود . وربما استنفد منه فيها مليونا من الرجال بينما ليس لديه ربع مليون يستطيع الاستغناء عنهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكرا لاعتقال أسرى الحرب ومن ثم يتنزل النازيون إلى أرض انجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لئن استبقى النظام الهتلرى رأسه خارج المصيدة البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح المعنوية لسكان لندن الشديدى التخاط السيئى التعليم الأقوياء المراس . وعندئذ بدأت الغارات الجوية التى تسمى باسم معركة بريطانيا ، فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين ، وما وافى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أسقطت مقابل ٦٢١ طيارة بريطانية قتل من ملاحيها ٦٠٠ ونجا الباقون بالمظلات الواقية ثم عادوا إلى معمعان القتال . ولكن سكان لندن المدنيين دفعوا ثمناً أفدح من هذا . فقد كان القتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفا ، وكان الجرحى عشرين ألفا ، أربع أخماسهم جميعا فى لندن وحدها . ودمرت فى ذلك الهجوم الجوى النازى دار نقابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التى بناها السير كريستوفر رن وتكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطانيا قائلا لأمريكا : « أعطونا الأدوات نتم لكم المهمة » وذلك لأن أمريكا كانت لا تزال جالسة فى مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقا حادا ، ولكن دون أن يبدو عليها أى مظهر ينبىء بمدها يد العمل

فى ذلك الكفاح . وفى أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب فى تدمير انجلترا وساعدوا فى القيام بالهجوم .

ولكن حدث فى السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أشد عمقا وأكثر فطنة وأوسع مجالا من مؤامرة النازى على سائر البشرية ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة . ذلك أنه قد تواصلت فى آسيا الدعاية المضادة للأوربيين سنين طويلة ، وكان مبعث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الخبيث العدوانى ولم تجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً فى اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التى تضيق الخناق على كل داعية إلى نظم الغرب وعاداته ولكنها وجدت من يعبر عنها باللغات الوطنية فى صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين وعمت كل أرجاء الصين ، وكانت اليابان فى كل مكان تتخذ صورة الزعيمة الناصرة للعالم الأسيوى الناهض ، الذى سطرت المقادير أن يتسلط فى النهاية على هذا الكوكب ، والذى كان قد ملأ أبناؤه البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الأسيويين شديد الاصطباغ بالحضارة الأمريكية ، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أيسر الأمور ردهم ثانية إلى تقاليدهم القومية ، ولم يكن اليابانيون يضمرون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذى يضمرونه للأوربيين كافة ، وكان رأى هتلر فى البداية فى ذلك الشعب الأصفر الصغير الأجسام لايقل عن هذا انحطاطا واحتقاراً .

ولم يلبث هذا المشروع الذى طال الأمد بإعداده ، أن قذف على العالم فى ٧ ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الدبلوماسيون اليابانيون لايبرحون يخففون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات فى واشنطون ، وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكى يرقد هادئا فى مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عندما فاجأه اليابانيون ، وفقدت فى تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفينتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها فى حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية . وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريبالس (لأنهما كانتا بلا عون جوى !!!) بطرابيد ألقيت من الطائرات اليابانية . وهل لى أن أكرر هذه الكلمات المشحونة بالمعانى الأسيفة . . . لأنهما كانتا بلا عون جوى ! ولسنا نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التقصير . . .

* * *

لقد صدّ ويفل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاله ولكن سحب جيوشه إلى البلقان أضعف حملته ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية وفاز الجنرال مونتجومرى فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٢ بمعركة العلمين الدوية ، ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيزنهاور . فوقع الألمان بين نارين فسلموا فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ . ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطورية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء فى الشرق الأوسط فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئا من العطف على المحور .

وفى أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتموين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ – ١٩٤٥ وفى يوليه سقط موسولينى ، وفى ٣ سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت الحرب على ألمانيا فى ١٣ أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حربا مريرة حتى كسرت فى مايو ١٩٤٤ على الخط القوطى بالقرب من بيزا ثم استسلم الألمان بعد ذلك فى أبريل ١٩٤٥ .

وفشل الألمان عند ستالينجراد عشرة مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم فى ربيع ١٩٤٤ وحرروا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا . ثم بدىء هجوم عام أخرجت به فنلندة ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا . ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان فى أكتوبر ، وفى نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدى الألمان ، وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مساعدة ثمينة . وثمة هجوم روسى أخير حرر بولندة ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير — مايو ١٩٤٥) .

ومهد الطريق للجبهة الثانية فى الغرب : بقذف ألمانيا بالطائرات بغاية الشدة . وفتحت الجبهة بشمال فرنسا الغربية بقيادة أيزنهاور ثم تقدمت الجنود المتحالفة من الساحل الجنوبى بسرعة إلى الشمال . فلما وصلت الجيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رونشتد

بمنطقة الأردن Ardennes فصدها إلى حين ، ثم مالبثت أن كسرت خط سيجفريد وعبرت الرين فى مارس . وفى ٧ مايو سلمت ألمانيا بلا قيد ولاشرط .

وسرعان ما اجتاح اليابانيون شبه جزيرة الملايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندى والهادى . ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما فى يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يوليه ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين . وكان الاستيلاء على أيوجيما وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما فى ٦ أغسطس وأخرى على نجازاكى فى أغسطس . وأعلنت الروسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا ، وفى ١٤ أغسطس أعلن هيروهيتو قبوله لشروط الحلفاء .

— ٢ —

معرفتنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى عام ١٩٤٠[1] . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبة من الأحداث أرغمت الشاهد الذكى إرغاما أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفا وأن الإنسان العاقل Homo sapiens ، وهو الاسم الذى سره أن يطلقه على نفسه يعد فى صورته الحالية شيئاً منهوكا لا غناء فيه . ذلك أن النيوم فى مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن يخلى مكانه لحيوان آخر أحسن تكيفا لمواجهة المصير الذى لايبرح يطبق على البشرية بصورة أسرع وأسرع .

وربما كان ذلك الحيوان التكيف الجديد صنفا آخر غريبا عنا تماما ، وربما نشأ كتعديل جديد للفصيلة البشرية Homindae بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

(١) وأضاف المترجم نبذة عما عقب ذلك من أحداث الحرب العظمى .

البشرية ، ولكن لاشك أنه لن يكون بشريا . فليس أمام الإنسان إلا مخرجان أحدهما يرتفع قائما إلى السماك وثانيهما يهوى سحيقا إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذى لاهوادة فيه فى زماننا هذا وفى كل أوان هو أن يتكيف أو يهلك

وما أكثر من لا يستسيغون منا بشدة هذا التخيير الفجيج بين السماك والحضيض . فإن القوى التى أنشأتنا فى نهاية تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حبتنا بتشبث بفكرة الاعتداد بالنفس تثور به نفوسنا ضد مجرد التفكير فى إخلاء العالم للفئران أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى قذرة مزودة بالجراثيم الوبيلة المعدة للقضاء علينا وكم أتمنى أن أحضر الجنس البشرى وهو يجود بأنفاسه ، وأن يكون لى رأى فى حلول السيد الجديد للخليقة محله فى النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذاك أن يعاملنى كما عامل أوديب أباه ، فيقضى على أنا أيضا .

قلب الطرف فيما حولك من هـذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله منتثرة فى أرجائه ولا بد لمعظمنا من بذل جهد فكرى هائل قبل أن يدركوا أن هـذا التوزيع المتسع للمنتجات الإنسانية ليس إلا ثمرة المائة ألف سنة الأخيرة . ولا بد أن المواد ذات النشاط الإشعاعى وعملية تحلل الراديوم قد بدأت فى المجموعة الشمسية فى مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فعلا قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بزمن طويل . يقول الدكتور ن . هـ . فذر بمعمل كافندش بكمبردج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعى طبيعية بحتة بمعنى أنه لابد أن أحوالا قد حدثت فى مرحلة ما من مراحل التطور الكونى ، ولعلها لاتزال تحدث فى بطون النجوم الأشد حرارة ، التى حدث بها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث ، على أن هـذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس ، كما أننا كسكان للأرض قـد جرت عادتنا التقليدية بأن لانعد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التى يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التى تقارب الثلاثة آلاف مليون سنة (٣×١٠^{٩} سنة) منذ أن حدث الانفصال » .

وقد حدثناك فى الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخى حديث الحياة على هذا الكوكب بقدر علمنا به فى ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك واضحا بأى حال عن حدود الزمان التى يذكرها الدكتور فذر بجلاء تام . فإذا نظرنا فى اتجاهات أخرى وجدنا أنفسنا اليوم

تواجه أشد أنواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلبا للأوضاع . وسيعمد الكاتب في هذا الفصل الختامي الذي سيكون من الأنسب له تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، — إلى التقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردها على الأسماع في نور التحقيقات الجديدة التي فرضت نفسها قسراً في عقول الشاهدين الأذكياء ، وهي لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التي سردها من قبل ولكنها ستصاغ صوغا جديدا في إطار من الآفاق الموسعة توسيعا هائلا . وهذا الإطار الزمني شأنه شأن الفضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذي يشكل عقولنا ، فنحن نفكر فيه ونستشعر صفة خادعة فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوى أى مدلول مطلقا ، فإن أخيلتنا الإيجابية لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقات الأولى لساعة الراديوم .

ثم أصبح الكوكب الأرضى فيما بعد على التدريج موطنا ممكنا لذلك الوافد العجيب : الحياة . وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يعلمها أحد وعلى مسافة لا ندريها — ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قمرا تابعا تمكنت موجة من موجات المد أن تهبط من سرعته حتى ألزمته في النهاية أن يدير وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الآبدين ومن ثم يكون الشهر القمرى يوما قمريا وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث أن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة المتزنة . لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفي زمن ما من ذلك الطور المندفع وفي ظل خيمة من كثيف السحائب البخارية بدأت سلسلة الدقات الإيقاعية التي نسميها الحياة .

على أن ظلمات البحر العميق التي لا نهاية لها . وجفاف الأرض اليابسة الذي لا هوادة فيه ، لم ينطويا على أية إمكانيات للدقات الإيقاعية . فهي شيء لم يكن ليوجد — كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين في إحدى مقالاته المبسطة الجديرة بالإعجاب — إلا في المنطقة التي يتبادلها على الساحل المد والجزر . فكان النور يعقب الظلام وتعقب الظلمة النور ، وبدأت الحياة — تلك الدقة العجيبة في المادة الموات . فإن علماء الحفريات الذين يبحثون على الدوام عن شيء يهديهم في ظلمات سجل الصخور ، يجدون إشارات تنبيء بوجود طور جرم كل أثر للحياة ، لا يعلم أحد مداه قبل أن تنفذ أشعة الشمس فعلا خلال ذلك الستار البخارى وافتتحت العملية المسماة بالحياة .

ولا تزال فقرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق . فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لايوجد أقرب نظير لها إلا فى العناصر الغشائية الميكروسكوبية للحياة المعاصرة أو فى مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكاثر هائل فى الدياطيم[١] وما ماثلها ، وحدث فى زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت طفرة موائية مادة خضراء هى الكلوروفل ، التى كانت تنتج تحت نور الشمس مزيجاً شبه دائم يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة المد والجزر .

وهذه الأشكال بكل ما حوت من أضرب يتجلى فيها ميل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها Leanvital وهى تظهر فى أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذى أصبح الموضوع الجوهرى لتاريخ الحياة ، ثم لاتلبث هذه المادة الحية أن تنقسم فى لحظة باكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف المتغيرة وتظل حية هنا وإن جف غيرها هناك أوهلك وكأنى بهذه الأفراد خالية من أى دافع للصراع مع الطعام الذى تتناوله أو مع إحداها الأخرى . فإذا هى التقت تدفقت معا ثم تباعدت ثانية وقد زادها الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحيوية ذلك دون وجود أى علامة للتمايز الجنسى ، فهى أمر يتم بين أنداد .

— ٣ —

بزوغ فجر العائلة

من الأمور التى بدأت بداية واضحة فى تاريخ الحياة تكوين فارق بين أفراد بحيث ينفرد فريق منهم بالمخاطرة ويتعرض للتجارب والموت النهائى ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتنتهى تريضات عصبية ، ومنها مايتبرعم وينقسم ؛ ومنها ما ينتشر بالتقطع ، أو التوالد

---

(١) الديطوم (Diatom) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحلب المجهرية ذات الخلية الواحدة ولها محارتان تنطبقان كالصندوق وغطائه

العذرى (كما فى الذبابة الخضراء) وما ماثل ذلك ، ولكن أمثال وسائل التوالد هذه تبقى النوع ثابتا ، غير قابل للتكيف وبعيداً عن كل مناعة ، ولا بد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا ، إن قدر للنوع البقاء — تغيير غايته القوة والتنويع فى الذكر والأنثى اللذين نجدهما مستقرين آنفاً فى صورتهما الراهنة فى أبكر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه .

وهناك تقلبات بعيدة فى تمايز الجنسين حتى فى النوع نفسه تقتضيها الضرورات المتغيرة التى تفرضها الحياة . وقل من وقف ليتمعن فى جنس النمر أو النمرة عندما يلتقى به صدفة ، ولكن كيف يتضح جنس قطة مارة بنا أو أرنب أو قنفذ ، أوذئب فى سربه حين يقتفى أثرنا أو ذبابة أو سحلية ؟

وحتى مياسم الجنس فى « الإنسان العاقل » أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مئة سنة ، ذلك أن المبالغة فى تضييق الخصر بالضغط الشديد عليه بالمشدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل البنات تدليلا لا نفهم له معنى . وكان للدراجة بعض الفضل فى ذلك الانطلاق . فإن البنت النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف وتجد الفائدة تعود عليها من ذلك بينما جدتها تأخذ قسطا من الراحة فى فراشها . وكلما ألمت بنا أزمة أغمى على جداتنا ولكن من ذا الذى يسمع اليوم عن نساء يغمى عليهن ؟ فالآن يغشى على الرجال أكثر من النساء ! ؟

لقد حدث فى أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم فى علاقة الجنسين بعضهما ببعض فى المجتمع البريطانى ، وبالعلاقات المتعلقة بالعمر فى الزواج ، وبالتوافقات الاجتماعية المترتبة على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ؛ على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفا هرما مزوجا من ربيع مزهر . وربما عاد رأى الناس أدراجه ثانية . وربما لم يكن ما نشهده خروجا على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع المنشأ على خطة مقصودة ونقص الطعام وما ماثله من عمليات اقتصادية ، وموجات العطف على الأمومة أو النفور منها والشعور القومى أو انعدامه والميل الطبيعى إلى الوقوع فى شرك الغرام مقترنا بالرغبة فى تثبيت إحدى العلاقات بوساطة مصلحة مشتركة ومستديمة والفخر بالأطفال الحسنى التكوين جثمانيا وعقليا ، ربما قدر لهذه جميعا أن تلعب أدواراً

لا حصر لها فى إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف الكافى إزاء الضرورات التى تهدد من حولنا كالمرجل وتضطرنا أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام العائلة . والواقع أنهم لا يفعلون فى ذلك السبيل أى شىء . فإن العائلة موجودة منذ تناسلت الحيوانات وتزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها . ولكن التدخل الكهنوتى قد حط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم يولدوا لأب شرعى بأن حملهم تم فى ظل الخطيئة ، جاعلا من مولدهم غير الشرعى شيئاً مخزياً بطريقة لا نفهم لها معنى ومقيما سداً منيعاً بين الحقائق والإمكانيات الجوهرية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصغار حتى يفوت الأوان فلا يعودون يستفيدون من معرفتهم بها .

— ٤ —

انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشرى إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به . وساعة الراديوم [1] تعطينا كعمر للحياة فترة عظمى أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون من السنين الأرضية ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفى كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تعاقب مستمر فى أشكال الحياة التى تسود الموقف على ظهر البسيطة . أجل لقد ساد كل منها بدوره ثم عاد كل منها فأزيح من المشهد بدوره أيضاً وحل محله شكل أحسن تكيفا . وانصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين لامفر من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم — فالأمر الذى لامرد له هو أن عش — أجل عش وبأكبر مايمكن من الوفرة الزاخرة . عش أكثر من إخوانك

(١) المفروض أن المؤلف يشبه إشعاع الراديوم المنتظم على مر العصور بدقات الساعة التى تحسب الزمن . [المترجم]

وكن أكبر حجما منهم والتهم منهم أكثر . وفى الأيام الأولى ، كان ذلك الأمر الحتم غير مقيد بأى دافع يدعو إلى المساعدة المتبادلة ضد منافس مشترك . لذا أكل الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوهم فعلا ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر ، فسجل الصخور لايظهر فيه دائماً فى نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام .

ويدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيرا يجعل سيد الخليقة القديم المفرط النمو غير متجانس مع مايحيط به من بيئة ، وإذن فلا مفر له من أن يذهب . والعادة — وإن لم يكن ذلك دائماً — أن يخلفه شكل للحياة مختلف تماما . ولعله يصنع صنيع القروش فيتضاءل عدده حتى يدركه الطعام ، وعندئذ يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الطبيعة قد أعدت بديلا منه . ومن المعلوم أن القروش وأشباهها تعيش وتموت بعنف ولا يبقى منها شىء يصبح حفرية . ونحن نعرف أن هناك فى هذا العصر قروشا هائلة تصطلى هى وأمثالها فى ضياء الشمس . ولعلها بلغت ضخامتها الحاضرة فى عصر قريب جداً أو لعلها تصلى فى الشمس منذ عصور متعاقبة ، منذ أن وجد لها القدر الكافى من الأسماك تلتهمه وتغتذى به . فنحن فى ذلك كله نتخبط فى غياهب الحدس والتخمين .

— ٥ —

النضج المبادر : إحدى وسائل البقاء

أنتجت الطبيعة فى لعبها الأبله بإمكانيات الحياة مستحدثات مباغتة فى السجل بزيادة سرعة إخصاب البويضة وإنضاجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة . وينبغى أن لايذهب عن بالنا دائما فى مثل هذه المسائل أن مانرثه إنما هو دورة حياة كاملة وليس شكلا ثابتا لبالغ ، وحدث المرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلا بالغا من السجل فصلا تاماً وألغته وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشكل الناجح تناسليا .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيدة الخليقة فيه الشوكيات Echinoderms والسمك النجمى وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعى . ولم يكن لديها شىء من قوة التنقل الحركى أثناء طور بلوغها أو كان لديها منه قدر قليل ، كما كان الكثير منها كالزنبقيات Crinoids مثبتا فى الجذور وقد تحولت للزقات Junicata هى وبعض

الأشكال الشمعة الأخرى إلى إنتاج السليلوز وكانت بارزة النزعة النباتية فى طريقة عيشها وعاداتها . وكانت تلق فى الماء بيضها المخصب ، وساعد على انتشار هذا البيض نشوء تكوينات إضافية صلب بها عود البرقات المتقذفة على غير هدى ووهبت حركتها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقرى هذه الأشكال المنبعثة المتنقلة باسم الحبل الظهرى Notochord كما أطلق اسم الحبليات على شكلى الحياة المسميين الطبيعة الجديدة New Fore و« الطراز المتأخر Aft » الذى كان الحبل الظهرى هو البشير الآذن بهما؛ سميا الحبليات Chordata كنقيض لسلسلة الأشكال التى ليس لها حبل ظهرى من أمثال السمك النجمى وقنفذ البحر وخيار البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة الخليقة فى زمانها . ولا يخفى أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه بما فى ذلك الإنسان يدين بوجوده لهذه النزوة التى أصابت الطبيعة ، ولم تكن تنطوى على أى سبب عقلى بأى حال ، لقــــد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهرى فى تطور الحيوانات الفقارية جميعا ، ولكن تغزوه وتحل محله فى جميع الأشكال العليا مادة غضروفية أو عظمية ، وهو يظل فى سمك الجريث Hagfish والجلكيات Lampreys طول حياتها ، وهو يصل إلى موائدنا ممثلا فى هذا النوع الأخير .

— ٦ —

الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب المواضع التى يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة عن الصدام الذى لامفر من حدوثه والناشب الآن بينه وبين الشباب . إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر ، ولكنه لا يعتقد أن أى شاب يصغر مثلا عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التى يتقبلها بها . فإن كل شاب يظل حتى قرابة ذلك السن فى حالة صراع مع العالم ويبغى أن يحصل على مايريده منه فإن هو فعل ذلك فلابد أن يكون شابا ضئيل الحظ جدا من الحيوية حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم « وتقبل الأشياء على علاتها » .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف فى سنته التاسعة والسبعين ؛ بعد أن عاش عيش المرح واليسار وقد دفأ كلتا يديه على نار الحياة وها هو الآن مستعد للرحيل عنها وقد أخذت تنحدر به فى دور من العلة والوسوسة وهكذا ينتظر خاتمته وهو يرقب البشرية وهى لاتزال متحمسة لاستخدام ماجمعه من خبرة استخداما نافعا يعينها فى هذا الزمن زمن الاضطراب العقلى . ولكنها لاتكابد تلك القوة المتهورة التى تدفعها للوصول مع الحياة إلى نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضرورى من تكوين أى فتى سوى ذكرا كان أم أنثى .

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين يحس نفس إحساسات المؤلف . فهو قد كون نفسه عندئذ . ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثاله من كبار السن يصوغون ويستكملون ويفصلون بكل بساطة صيغ الفكر التى صبوا فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة معينة فى الحدة فى معظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه المتواصل بعلم البيولوچيا ربما كان السبب فى اتصاله الوثيق بالحقائق الحيــــة اتصالا أوثق من اتصال السياسيين أو المضاربين الماليين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى المشاغل ، على أن ذلك ليس وسيلة رتق الصدع القائم بين المسنين والشباب . وسواء أكنا نحن المسنين نرقب ما حولنا بأمل أو بسوء نية ، بحسد أو بكرم خلق ، فإنا لانملك إلا أن نرقب ولانستطيع تجاوز ذلك . لقد عشنا بالضرورة أربعين سنة تقريبا ، والشباب هم الحياة ، ولا يعقد أمل إلا عليهم .

— ٧ —

ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية فى مدارها قد أخذت سرعتهما فى الهبوط . فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد العصور الباكرة لسجل الصخور (إذا هو قيس بدقة وضبط بساعة الراديوم) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماما وسرعة العصر الكاينوزوى . أجل إن الأشكال هى نفسها لم يداخلها تغيير ، ولكن النسب مختلفة . وربما كان ذلك التباطؤ الدنيوى مستمرا وربما لم يكن كذلك على أن استمراره

هو الأرجح فى نظر المؤلف . ولـكن من يدرى ؟ على أن أحوال حيوات الفرد والنوع يلوح أنها كانت تتقلب تقلباً سريعا ومتسعا فى تلك الأزمنة المندفعة .

ولـكنا على يقين من شىء واحد . ذلك أنه رغمما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم تستطع أن تلق ظلا من الشك على ما يسميه العلماء إلى الآن باسم « نظرية » النشوء والارتقاء العضوى . وعلى الرغم من عنيف الـكذب والعواء الذى أذاعه لـقون المتدينون ، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يستطيع أن يمس بأى سوء الطبيعة المنيعة لقضية النشوء والارتقاء . وهناك كتيب جدير بالإعجاب كتبه ا . م دافيز وأسماه « النشوء والارتقاء وناقدوه المحدثون[1] » ولخص فيه هـذه القضية تلخيصا وافيا ومقنعا . فإلى ذلك الـكتيب ينبغى أن يلجأ القارىء الذى لا يجد موردا جديرا بالثقة ينتهل منه .

أما الشىء الذى يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية فى سرعتها . ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ؛ والعقل البشرى لا يزال فعالا ناشطا يتعقب النهايات والموت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور ــ مع تذكر سنه ــ يرى أن العالم منهك خال من كل قوة تعيد إليه العافية وقد أبدينا فى الأقسام السابقة من هذا الـكتاب نزعة ترجو متلهفة أن يوفق الإنسان إلى التخلص مما يقيده من اشتباكات ويبدأ طورا جديدا خلاقا للحياة الإنسانية . ولـكن خاب الفأل فى السنتين الأخيرتين إزاء ما تجلى منا من عدم كفاية عامة ، وحتى على التفاؤل ضرب من الاستخفاف المادىء ، فـكبار السن يسلـكون فى معظم أمرهم مسلـكا نسبيا يدعو إلى الاشمئزاز ، كما أن الشباب يتصف بالحماقة وسرعة الانفعال وسهولة الوقوع فى شرك المضللين ، فلابد للانسان من أن يرتفع إلى السماك أو يهوى إلى الحضيض وكأنى بكل الظروف تعمل على تردية إلى حضيض الهوة وإخراجه من مسرح الحياة فإن هو ارتفع إلى السماك كان التـكيف المطلوب منه عظيما يضطره أن لا يظل إنسانا ؛ ولعلـكم تذكرون من العنوان الثانى لهذا الفصل أن الناس العاديين فى أشد التوتر ؛ فليس فيهم من لعله يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتـكيف ، فأما بقيتهم فهم قوم لن يهتموا بالأمر ، لأنهم يجدون أنواع المخدرات والعزاء التى يحبونها ، لذا ينبغى لنا أن نختتم هذا

(١) A. M. Davies : Evolution & its Modern Critics

التأمل الفكرى حول الطور الأخير فى التاريخ العجيب للشىء الذى يسمونه الحياة باستعراض تعديلات النوع الإنسانى التى تحدث فى هذه الأيام.

تظهر الحيوانات الراقية كمخلوقات غابات تتصل بصلة القربى بمجموعات من أكلة الحشرات، بدأت حياتها شجرية واكتسبت بين الأغصان حدة الأعين والتوافق العضلى؛ كانت ميالة إلى العشرة وازدهرت ازدهاراً واسعاً، حتى إذا حدث لها الازدياد المعتاد فى الجسم والوزن والقوة، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض، وقد بلغت آنذاك من الكبر ما يجعلها تستطيع أن تتحدى وتقاتل وتتفوق فى الدهاء والحيلة على آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم الغابة وقد مكنتها هيئتها شبه القائمة أن تنتصب على قدميها وتضرب أعداءها بالأحجار، وهى سلاح جديد لم يسمع بمثله أضيف إلى الأسنان والمخالب. ولكن ميلها إلى التعاشر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات رحيبة من المواد الغذائية. وذوى الصغار أمام الكبار، وفقاً لنمط الحياة القديم الأمد وطورت القردة العليا نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عال. وعلى امتداد هذا الخط ساروا حتى أصبحوا ما نراه حولنا فى الوقت الحاضر من غوريلا وشمبانزى وأورانج يوتانج.

— ٨ —

النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لظروف قاهرة أخرى خارج مناطق الغابات أثناء مرحلة تقلصت فيها تلك الغابات. فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليئة بالعشب والسهوب القاحلة. وتقلص مقدار الأطعمة المتخذة من الخضر، لذا أصبحت الحيوانات الصغيرة واللحم بوجه عام جزءاً متزايد الأهمية فى الطعام. وكان أمامهم كما هو الحال دائما الاختيار بين بديلين: فإما التكيف وإلا فالهلكة، وكان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن تجت من مذبحة عالية لها: كانوا أكثر انتصابا من القردة العليا بالغابة؛ وكانوا يجرون ويصطادون وأوتوا من الذكاء ما جعلهم يتعاونون فى صيدهم

كانت هذه القردة الأرضية ـ هى الفصيلة البشرية Hominidae ، وهى سلسلة حيوانية جائعة وكاسرة . ولما كانت حيوانات تعيش فى العراء ولها قدر كاف من الذكاء يجنبها الغرق كانت البقايا المتحفرة والدالة على ظهورها قليلة العدد متباعدة. ولكن فيها الكفاية . فلئن لم يتركوا كثيراً من العظام ، لقد نثروا فى العالم أدواتهم، ذلك أن وضعها القائم حرر يدها وعينها وأوجد بينهما تعاونا أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . كانت تستطيع القبض على الهراوات والأحجار لتستخدمها فى أغراضها . وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شكلا أكثر حدة فإذا تطاير الشرر بين الأوراق الجافة التى كان يجثم بينها وظهرت النار الحمراء كالأزهار كان ظهورها هادئا ومألوفا بحيث لم يبعث فى قلبها الخوف ولم يكن أى كائن حى آخر قد شهد النار إلا فى إثناء النكبات الباعثة الرعب فى قلوب الحيوانات حيث كانت تتعقب كل شىء دون رحمة وكانت الدببة ـ حتى دببة الكهوف ـ تفر من النار والدخان . على حين أن الفصيلة البشرية اتخذت من النار صديقاً وخادما . وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل المغارات وأمثالها من الأماكن المستترة وتركت نيران الدار موقدة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت فى أثناء أطوار الزمهرير لعصور الجليد المتعاقبة . كانت تخرج للصيد بصيحاتها وحركاتها الغليظة الشاذة . وكانت وهى فى شكلها البالغ أكثر وأثقل كثيرا من الإنسان ، فالأيدى الثقيلة التى اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال الظران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرقيقة نسبيا التى صنعها رجال العصر الحجرى القديم المتأخر بمنتهى النجاح ، بيد أن الأداة الشليانية الزائفة لاتقل صعوبة وثقلا عن أى آلة حجرية شبه إنسانية فالأداة الشليانية إنما هى قلب ظرانة عظيمة : بينما الأداة الإنسانية التالية شظفة من قلب ظرانة بضربة .

يخرج المخلوق المسمى بالإنسان العاقل من بين الأنواع المبكرة للفصيلة البشرية خروجا جليا جدا بوصفه فلتة أخرى من فلتات دورة الحياة نحو صورة طفلية وشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهى فلتات لعبت دورا هاما جدا فى التاريخ المتقلب للكائنات الحية وهو ليس المعادل للبالغ القبيح من إنسان هيدلبرج أو نياندرتال وإنما هو وهو فى أطوار الاستهلالية الطفل التجريبى اللعوب القابل للتعلم السريع النضج

الذى لايزال مكلفا بالخضوع الإجتماعى بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنسى ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تسامحها آنا بعدآن إزاء كل طور بلوغ نهائى وضخم ومستبد ولذا بتر هذا الطور من الدورة فالإنسان البدائى البالغ الغليظ الضخم يختفى ويحل محله طراز أشب منه ، طراز آخر مختلف تماما كما بين السجل ذلك بجلاء تام ، ولكن أطوار الانتقال وطريقة لاتزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تتزاوج وتتوالد ، وربماكان هناك تزاوج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت فترات من الانعزال بإنتاج أشكال أخرى محلية شبه نياندرتالية أوشبه زنجية أو شقراء أوقاتمة أو طويلة أو قصيرة لاتزال قادرة على التزاوج والتوالد على نفس الشاكلة التى أنتج بها الكلاب عددا لانهاية له من الأجناس التى تستطيع بسهولة أن تتهجن بل لامفرلها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينها . وربما اقتتلت العائلات والقبائل فيما بينها وعدا الظافرون مميزاتهم الفارقة بالتزاوج مع أسراهم من النساء . هذا وإن علم البشريات المقارن يحل ببطء معقدات قصة الطريقة التى ذوى بها الإنسان البدائى Homo الذى بلغ بجنسه حد الكهولة والذى لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركا من ورائه الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل ، الذى هو فى أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم ميال للتجريب من مهده إلى لحده .

هذا وإن عبارة « فى أحسن أحواله » هى زبدة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات بعيدة فى مدى قابلية البشرية المعاصرة للتكيف العقلى ، ومن الممكن أيضا أن كتلة البشرية المعاصرة قد لا تكون سهلة التقبل للأفكار الحديثة كعقول الأجيال الأبكر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الحائل العميق الشديد لم يزد إلى الحد الذى يساير به امتداد الجماعات والمنظمات الإنسانية وتعقيداتها وتلك هى أحلك ظلال اليأس التى تسقط على آمال الإنسانية .

— ولكن روحى ومزاجى يجعلانى لا أشك مطلقا كما قلت آنفا فى أنه ستوجد تلك الأقلية الصغيرة التى ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق . م فى شبه الجزيرة الأسبانية وفى إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين فى تلك الأثناء بشمال الهند ؛ وكانت يد التدمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر الترامية ، عصور تحتمس الثالث وأمينوفيس الثالث ورمسيس الثانى ، كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعاف . وكانت إسرائيل متحدة فى ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل . وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان متربعا آنذاك على العرش . وفى ذلك العام كان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) ملك الإمبراطورية الأكادية السومرية ذكرى سحيقة فى التاريخ البابلى ؛ أبعد فى عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر . وقد توفى حمورابى قبل ذلك بألف سنة . وصار الأشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حربية . وكان تجلات بلسر الأول قد استولى فى ١١٠ ق . م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور وبابل لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد . وكان عمر ستون هنج بانجلترة فى ذلك الأوان بضع مئات من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان ببلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى وكانت أيام عظمة الأترسك بإيطاليا الوسطى . ونحن نبدأ قائمة التواريخ المحققة بالآتى : . .

قبل الميلاد

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر (وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين)

٧٧٦ إقامة أول أولمبياد ببلاد اليونان

٧٥٣ بناء روما

٧٤٥ فتح تجلات بلسر الثالث بابل وأسس الإمبراطورية البابلية الآشورية الجديدة

٧٢٢ سلح سرجون الثانى الآشوريين بأسلحة من الحديد

٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم

٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين الإثيوبية

٦٦٤ استرجع أبساتيك الأول حرية مصر وأسس الأسرة السادسة والعشرين (حتى ٦١٠)

٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا فى معركة مجدو

٦٠٦ استيلاء الكلدان والميديين على نينوى . تأسيس الإمبراطورية الكلدانية .

٦٠٤ رد نخاو إلى نهر الفرات وتغلب نبوخذ نصر الثانى عليه (أرجع

قبل الميلاد

نبوخذ نصر اليهود إلى بابل)

٥٥٠ خلف قورش الفارسى سيا كسارس الميدى . قورش يقهر كرويسوس

٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان وكذلك أيضاً كونفشيوس ولاهوتسى

٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس الإمبراطورية الفارسية

٥٢١ حكم دارا الأول ابن هستاسبس من الدردنيل إلى نهر السند . حملته على بلاد الإسكيذيين (الروسيا)

٤٩٠ معركة ماراثون

٤٨٠ معركتا ترموبيلاى وسلاميس

٤٧٩ معركتا بلاتيا وميكالى تنهيان طرد فارس

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون أسطول الأترسك

٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤

٤٠١ تراجع العشرة آلاف

٣٥٩ أصبح فيليب ملكاً على مقدو

٣٣٨ معركة خايرونيا

٣٣٦ عبور الجند المقدونية إلى آ. ومقتل فيليب

٣٣٤ معركة جرانيكوس

قبل الميلاد

٣٣٣ معركة إيسوس

٣٣١ معركة أربيلا

٣٣٠ مقتل دارا الثالث

٣٢٣ وفاة الإسكندر الأكبر

٣٢١ قيام شندراجوبتا بالبنجاب . السمنيون يهزمون الرومان تماما بمعركة مفارق كودين Caudine Forks

٢٨١ غزا بيروس إيطاليا

٢٨٠ معركة هرقليا .

٢٧٩ معركة أسكولم .

٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى واستوطنوا غلاطية

٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا .

٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم آسوكا بإقليم بيهار حتى ٢٢٧) .

٢٦٠ معركة ميلاى .

٢٥٦ « إكنوموس

٢٤٦ أصبح شى هوانج تى ملكا على تسن ان

٢٢٠ صار شى هوانج تى إمبراطورا للصين

قبل الميلاد

٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم .

٢١٠ وفاة شى هوانج تى .

٢٠٢ معركة زاما .

١٤٦ تدمير قرطاجنة .

١٣٣ وهب تالوس مملكة برجامة لروما .

١٠٢ صد ماريوس الألمان .

١٠٠ انتصار ماريوس .. (الصينيون يفتحون وادى نهر تاريم)

٨٩ أصبح الإيطاليون جميعاً مواطنين رومانيين

٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتاكوس .

٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته

٦٦ بومبى يقود الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات . ويلتقى بقبائل الآلانى .

٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبى عند فارسالوس

٤٤ مقتل يوليوس قيصر

٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤ ب . م .) .

٤ التاريخ الحقيقى لمولد يسوع الناصرى


Bibliotheca Alexandrina
02590076